الفصل الثالث

الرسول ﷺ في المدينة

الجهاد ضد المشركين

obeikandl.com

obeikandl.com

تشريع الجهاد

الجهـاد مصطلح شـرعي يراد به القتال في سـبيل الله، لإقامـة نظام عادل يلتزم بأحكام الشـريعة، ويسـعى لتحقيق أهداف الإسـلام في المعمورة.. ولم يشـرع الجهاد في الإسـلام في العهد المكـي، بل أمر المسـلمون بألا يواجهوا المشـركين بالقوة، وألا يحملوا السـلاح فـي وجوههم، فكان الشـعار المعلن آنذاك ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[(١)]، وهو الموقف الذي اتخذ عندما كانت الدعوة جديدة مثل النبتة ا لصغيرة، تحتاج إلى الماء والغذاء، لترسخ جذورها، وتقوى على مواجهة العواصف، فلو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بالسيف، فإنهم يجتثونها ويقضون عليها من أول الأمر، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين، وأن يتجهوا إلى تقويم أنفسهم وزيادة إيمانهم بدعوتهـم عـن طريق العبـادة ومجاهدة النفـس، ودعوة الآخرين لتكثير سـواد المسـلمين. ولـم يكن المسـلمون متميزين عن المشركين في معيشتهم اليومية، وليس لهم معسـكر ينحازون إليه عند إسـلامهم، وإن كانوا يجتمعون بينهم في دار الأرقـم وغيـره لتلقي تعاليم الإسـلام. ولـو كان الجهاد قـد فرض في تلك الحقبـة لجـرت معركة في كل بيت أسـلم منه أحد. فلما هاجر المسـلمون إلى المدينـة، وآزر الأنصـار دعوة الإسـلام، وصـارت للمسـلمين أرض يمتلكون السـيادة عليها شـرع اللـه تعالى الجهـاد، وكان الإذن بالقتال دفاعًـا عن النفس أولى المراحل، وذلك فـي الآية الكريمة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[(٢)]. ثـم أمر المسـلمون بالقتـال دفاعًا عن النفس والعقيدة في الآية الكريمة ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ

---

(١) سورة النساء: آية ٧٧.

(٢) الحج ٣٩. وانظر عن سبب النزول مسند أحمد ٧/ ١٢٢ وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٥٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[١]، وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد.

وهو بذلك يختلف عن القتال والحروب التي شهدها التاريخ الإنساني، والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين، يريدون العلو في الأرض، فالهدف هو ضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميَّزته عن أنواع الحروب الأخرى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[٢].

(اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدا)[٣].

ثم كانت المرحلة الثالثة، وتتمثل في الأمر بقتال المشركين وابتدائهم به، وذلك للتمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أي عقبات تضعها قوى الشرك، ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين، وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا، ويظهر هذا التوجيه الأخير في الآيات الكريمة الآتية:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٠. والآية محكمة إن أريد بها عدم الاعتداء بقتل النساء والشيوخ والأطفال ومن لم يرفع السلاح بوجه المسلمين (نواسخ القرآن لابن الجوزي ١٨٠).

(٢) سورة النساء: آية ٧٦.

(٣) حديث رواه مسلم في صحيحه ٣/ ١٣٥٧.

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٩.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾(١). «وكُتِبَ» معناها «فُرِضَ» كما في الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾(٢).

إن الجهاد يمثل فريضة من أبرز الفرائض الإسلامية، وهو يوضح الهدف الكبير الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه، وهو حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء الأرض، وتكوين القوة العسكرية والسياسية اللازمة لدعم هذه الحرية وحماية المسلمين الجدد، وبرغم أن اعتناق الإسلام على صعيد الأفراد لا يمكن أن يتحقق بالقوة، إذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، ولكن الإعلان عنه و التمكين له وحماية معتنقيه في سائر المعمورة يقتضي التفوق على القوى السياسية والعسكرية العالمية الأخرى، خاصة في العالم الذي ظهر في الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، حيث كانت الحكومات المعاصرة تمنع أتباعها من اعتناق الإسلام، وتوقع بالمسلمين الفتنة، مثل ما حدث من قبل الملأ من قريش بمكة، ومثل موقف الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العرب في الشام ومصر. وقد أوضحت النصوص الإسلامية: أن تشريع الجهاد ليس مؤقتًا بظرف طارئ، وإنما هو فرض ديني دائم، ففي الحديث: (الجهاد باق إلى يوم القيامة) و (من مات ولم يغزُ، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق)(٣). وهو من فروض الكفاية، إلا إذا غُزِيت ديار الإسلام في عقرها، فيتعين على الجميع الدفاع عنها.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٦.

(٢) سورة التوبة: آية ٢٩.

(٣) مسلم: الصحيح ٣/ ١٥١٧.

وقد خصصت كتب الفقه أقسامًا خاصة لأحكام الجهاد المتنوعة، مثل ما خصصت للصلاة والصوم والحج والزكاة مما يدل بوضوح على دوام هذه الفريضة على الأمة الإسلامية، مثل بقية الفروض والأركان الأخرى.

وكان الجهاد يوحد الجبهة الداخلية للأمة الإسلامية، ويصرف طاقاتها في مواجهة أعدائها، وكان النداء بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، والمساواة بين الناس وتكريم الإنسان أيا كان لونه أو جنسه، يسبق قوات المسلمين حيثما توجهت، فيجتذب النداء بالمبادئ السامية القلوب قبل أن تصدعها السيوف، وهذا هو السر في انتشار الإسلام وانتصار قواته.

وقد حاول بعض الدارسين لحركة الفتوح الإسلامية أن يضعوا تفسيرات متنوعة لنجاحها وامتدادها السريع، فذهب كابتاني وبعض المستشرقين الآخرين إلى تفسيرها بالدوافع الاقتصادية، بدعوى أن جزيرة العرب تعرضت لتغيرات مناخية أدت إلى نضوب المياه والجفاف، مما استدعى خروج الموجات البشرية منها إلى الهلال الخصيب، حيث تتوافر دواعي الرخاء الاقتصادي. وأن حركة الفتح الإسلامي موجة من هذه الموجات، ولكن الدراسة الموضوعية تبين أن الجزيرة العربية لم يحدث فيها تغير مناخي قبيل الإسلام، ولم يحدث انقلاب مهم في الظروف الاقتصادية المتنوعة، ولم تنتقل القبائل العربية بهذا الحجم الهائل إلى الهلال الخصيب، إلا بعد ظهور الإسلام وتوحدها تحت رايته، وانطلاقها لتحقيق مبادئه.

وكذلك يلاحظ من دراسة الرسائل المتبادلة بين الخلفاء وقادة الفتوح ومن متابعة أخبار الفتح الأخرى، مدى سيطرة العقيدة على الجند، وتحقيقها للانضباط الدقيق في صفوفهم، وأن المثل العليا والرغبة في هداية الناس كانت تمثل الروح المهيمنة على القيادة ومعظم الجيش، ولا يمنع ذلك من القول:

إن الغنائـم كانت تحفـز بعض المقاتلين وتوسـع عدد المشـاركين، خاصة من الأعراب، لكن تفسـير حركة الفتح ومعرفة الروح العامة المسـيطرة على تفكير القيـادة التي خططت للفتح ينبغي ألا تتأثر كثيرًا بمواقف فردية لبعض الأعراب من المقاتلين، ولا شـك أن القيادة كانت تحرص على هداية الناس، ولو فوَّت ذلك عليها الغنائم الكثيرة.

وإن تخفيـض الضرائب على سـكان المناطق المفتوحـة، وإبقاء الأملاك الشـخصية والمحافظـة علـى البنيـة الاقتصادية لها يـدل علـى أن روح الهداية والإعمار كانت تتحكم في موقف الفاتحين.

وهنـاك تفسـير آخر لحركـة الفتح يتمثل بالعوامل السياسـية، فـإن اهتمام الرسـول ﷺ وخلفائه الراشـدين بمنع حركات الردة ومحـاولات تمزيق كيان الأمـة الإسـلامية، جعلهـم يوجهون الطاقـات في حركـة فتح شـاملة، بدل أن تنصـرف إلى الفتن والشـقاق، مما أدى إلى وحدة الصـف الداخلي، وبرغم أن هذا التصور يبين جانبًا إيجابيًّا، ويكشف عن بعض الحكمة من تشريع الجهاد، إلا أنـه لا يمكـن أن تفسـر به حركة الفتح الإسـلامي، فإن أكثر الشـقاق والفتن كان يقـوم بها الأعـراب المرتدون في خلافة أبي بكـر الصديق، وقد منعهم أبو بكـر بعـد إخضاعهم لسـلطان الدولة من المشـاركة في الفتـوح، وجرَّدهم من السـلاح تأديبًا، لعدم الوثوق بإخلاصهم، ولأنهم لا يصلحون أن يمثلوا طلائع الفتح لعدم اسـتكمالهم لمقومات الشخصية الإسلامية تصورًا وسلوكًا، مما لا يعطي سـكان المناطق المفتوحة صورة صحيحة عن الإسـلام، فكان الاعتماد على سـكان المدن (المدينة ـ مكة ـ الطائف) التي اسـتقرت فيها معاني العقيدة وآثارها التربوية العميقة، وكان سائر القادة من الصحابة رضوان الله عليهم.

وهناك تفسير آخر لحركة الفتح يتسم بالطابع التبريري، وهو أن حركة الفتح ذات صبغة دفاعية، وأنها استخدمت الهجوم للدفاع عن الدولة الإسلامية أمام خصومها الأقوياء، وهذا التفسير يسود معظم الكتابات التي حررتها أقلام المؤرخين العرب والمسلمين، فهم أمام المفاهيم السلمية التي سادت إيديولوجيات القرن العشرين، وكراهية الناس للحرب لآثارها السيئة في دمار الحضارات وإهلاك البشر وابتلائهم بالعاهات والتشرد، ولظهور المؤسسات الدولية المعنية بالتوفيق بين مصالح الدول المتعارضة، والمساعدة في إقرار السلام الدولي، وإحلال التفاوض والحوار لحل المشكلات الدولية بدلًا من الحروب.

فروح العصر جعلت كثيرًا من الكتاب عن حركة الفتح ينحون منحًى تبريريًّا، يهدف إلى التوفيق بين روح العصر الحديث وفكرة الجهاد في الإسلام، ويرجع ذلك إلى عوامل نفسية وفكرية متداخلة، منها سيطرة مفاهيم الحضارة الغربية على الكثير من المتعلمين من المسلمين، بسبب الغزو الفكري، وما ولده ذلك من الإحساس بالضعف أمام الغرب، ومحاولة تبرير كل ما يتعارض مع روح حضارته وتصوراتها الفكرية والسلوكية، ومنها عدم فهم حقيقة الجهاد وأهدافه، بحيث يتميز في الأذهان بوضوح: أن الجهاد لا يهدف إطلاقًا إلى فرض العقيدة الإسلامية على الناس، بل يهدف إلى إزالة معوقات انتشار الإسلام في الأرض، سواء بإضعاف القوى السياسية المعاصرة أو القضاء عليها، بحيث يتم استعلاء المسلمين في الأرض، وتمتنع فتنة أحد عن الإسلام حيثما كان.

إن ارتباط الجهاد بفرض العقيدة على الناس مبعثه الدعاية والتمويه، الذي شحنت به الدراسات الاستشراقية، وإن فك الارتباط بين الاثنين ضروري لتصور الحقيقة، ويكفي أن القرآن الكريم أوضح بما لا يقبل الشك حرية الناس

في اختيار الإسلام أو البقاء على النصرانية واليهودية، حتى داخل المجتمع الإسلامي وضمن سيادة الدولة الإسلامية، وهذا ما تثبته آيات القرآن الكريم وتدعمه الوقائع التاريخية الصحيحة، حيث رحبت الشعوب بتحرير الإسلام لها من سيطرة الرومان والفرس، وعبر القبط في مصر واليعاقبة في الشام عن سرورهم بالحرية الدينية التي أعلنها الإسلام، ولولا هذا الإعلان الصادق لحرية المعتقد لذابت سائر الأقليات الدينية في المسلمين، ولما حافظت على وجودها حتى الوقت الحاضر برغم مرور أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام.

إن دراسة الواقع التأريخي لانتشار الإسلام تكشف عن حقيقة اعتناق الناس للإسلام منذ عصر السيرة، وأنه كان يتم في ظروف السلم بنطاق أوسع بكثير من ظروف القتال، فعدد من دخله بعد صلح الحديبية كان أضعاف عدد من دخله قبل الصلح. وكانت البعثات الدعوية في عصر السيرة إلى البوادي تترى برغم الأخطار المحدقة بها، وقد استمر انتشار الإسلام بعد انحسار سلطانه العسكري والسياسي، وما زال يمتد في العصر الحديث، فلا شك إذًا في تهافت مقولة: إن الإسلام انتشر بالسيف.

إن وصف حركة الفتح بأنها دفاعية هو محاولة تبريرية لا تصمد لأي مناقشة جادة، فهل اعتدى سكان الأندلس أو ما وراء النهر على حدود المسلمين ليفتحوها؟ وهل تأمين الحدود يقتضي التوغل في القارات الثلاث، آسيا وأوروبا وأفريقيا، حيث وقعت الأحداث الخطيرة والمواقع الحاسمة بعيدًا عن جزيرة العرب، فكانت «توربواتيه» جنوب فرنسا، وكان فتح كريت وجنوب إيطاليا، وكانت موقعة طراز على نهر طلس في ما وراء النهر، وأخيرًا حصار فيينا..

لذلك فإن التفسير الصحيح لحركة الفتح أنها تطبيق لفريضة دينية هي الجهاد، الذي وصفه الحديث الشريف بأنه ذروة سنام الإسلام.

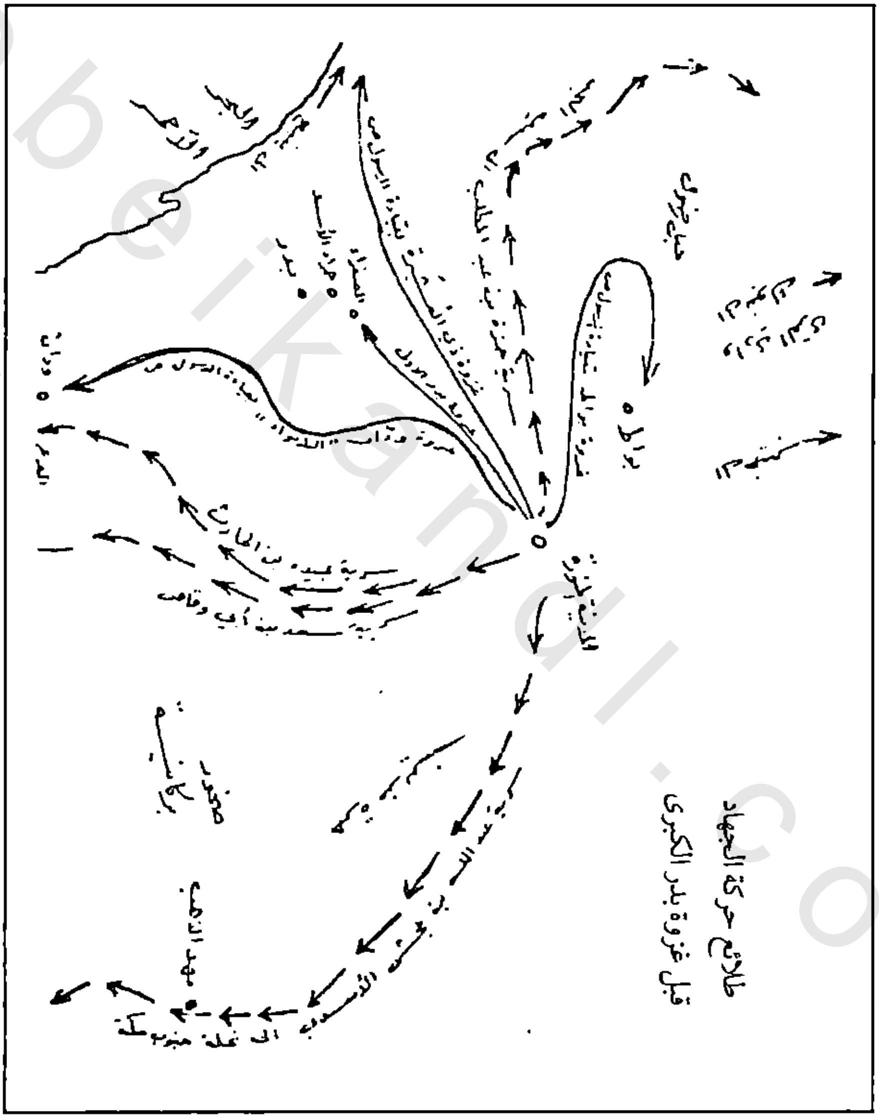

obeikandl.com

طلائع حركة الجهاد

تتمثل طلائع حركات الجهاد في غزوات وسرايا صغيرة، اتجهت إلى مواقع غربي المدينة، واستهدفت ثلاثة أمور، تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

والثاني: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة، لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل - في الصراع بين المسلمين وقريش، وهي خطوة مهمة يُعد تحقيقها نجاحًا للمسلمين، لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها، إذ بينها محالفات تاريخية، سماها القرآن الكريم بالإيلاف، سعت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشام واليمن، ثم إن هذه القبائل لها مصالح وثيقة مع قريش سادنة البيت الحرام، حيث يحج العرب جميعًا إلى الأصنام حوله، هذا فضلًا عن وحدة العقيدة بين هذه القبائل وقريش، واشتراك الجميع في معاداة الإسلام، فلا شك إذًا في أن تمكن المسلمين من موادعة هذه القبائل وتحييدها خلال الصراع يُعد نجاحًا كبيرًا لهم في تلك المرحلة.

والثالث: إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة، بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل، ويؤثرون في مصالحها وعلاقاتها.

وأولى الغزوات هي غزوة الأبواء[1]، تسمى بغزوة ودّان أيضًا، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، والأبواء تبعد عن المدينة

(١) ورد في صحيح البخاري من حديث زيد بن أرقم أن أول غزوةٍ العشيرة، ووفق الحافظ ابن كثير بينه وبين رواية ابن إسحاق بأن المقصود أول غزوة غزاها زيد بن أرقم مع الرسول هي العشيرة (البداية والنهاية ٣/ ٢٤٦).

حوالي أربعة وعشرين ميلًا، ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تمت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، وكانت هذه الغزوة في ١٢ صفر سنة اثنتين. وقد عاد الجيش إلى المدينة(١) بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول في رواية المدائني(٢). ويذكر عروة بن الزبير أن النبي ﷺ أرسل سرية من الأبواء تضم ستين رجلًا بقيادة عبيدة بن الحارث(٣)، في حين يذكر ابن إسحاق أن السرية أرسلت إلى سيف البحر بعد العودة إلى المدينة، وأن ثمة سرية أخرى من ثلاثين رجلًا بقيادة حمزة بن عبدالمطلب اتجهت إلى سيف البحر أيضًا في الوقت نفسه للتعرض إلى قافلة قرشية، لكن السريتين لم تشتبكا مع القرشيين في قتال، فقد حالت القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك في سرية حمزة، وجرى تراشق بالسهام فقط بين سرية عبيدة والقرشيين(٤).

ولا شك أن السريتين استهدفتا تهديد تجارة قريش بالدرجة الأولى، وهو تحذير أولي لقريش بأن تجارتها أصبحت في خطر ما لم تغير موقفها المتعنت من الإسلام، وفي ربيع الثاني استمر المسلمون في حملاتهم باتجاه الطريق التجاري أيضًا، فكانت غزوة بواط إلى رضوى قرب ينبع في مائتي مقاتل لاعتراض قافلة تجارية قرشية، ثم غزوة العشيرة (بينبع) في جمادى الأولى، ولم يقع قتال في رضوى والعشيرة، لكنه جرت موادعة بني مدلج في العشيرة(٥)، وقد تعرض كرز بن جابر الفهري في جمادى الآخرة في

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٧٩ وتاريخ خليفة بن خياط ٥٦ من رواية ابن إسحاق دون إسناد.

(٢) تاريخ خليفة ٥٦.

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٧٩.

(٤) تاريخ خليفة ٦١-٦٢ وسيرة ابن هشام ١/ ٥٩١ - ٥٩٢ من رواية ابن إسحاق دون إسناد، ومغازي الأموي دون إسناد أيضًا كما في فتح الباري ٧/ ٢٧٩.

(٥) تاريخ خليفة ٥٧ من طريق ابن إسحاق دون إسناد.

أعقاب العشيرة إلى أطراف المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فطارده الرسول ﷺ إلى سفوان من نواحي بدر، فسميت الغزوة ببدر الأولى. وقد تمكن كرز من الإفلات من حملة المطاردة[1]، لكن الحادث أكد للمسلمين ضرورة تأمين العلاقة مع جيران المدينة، فاستمرت الحملات، ولم يقتصر تعرض المسلمين لتجارة قريش مع الشام، بل تعرضوا لطريق تجارتها مع اليمن أيضًا، فأرسلت سرية عبدالله بن جحش في ثمانية من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في آخر رجب للاستطلاع، والتعرف على أخبار قريش، لكنهم تعرضوا لقافلة تجارية لقريش، فظفروا بها، وقتلوا قائدها، وأسروا اثنين من رجالها، وعادوا بها إلى المدينة[2]، ونظرًا لأن هذه الحادثة وقعت في الشهر الحرام فقد أثار المشركون ضجة كبيرة بدعوى أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وكان لذلك وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عام ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام. والواقع أن عبدالله بن جحش كان يدرك خطورة الأمر، فقد اختار قرار القتال بعد مشاورة لأصحابه، ولما رجع إلى المدينة وأراد تسليم الغنائم أبى الرسول ﷺ تسلمها، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وانتشرت داعية قريش أن قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال!!

وقد نزلت آيات من كتاب الله توضح سلامة موقف المسلمين، فأخذ الرسول ﷺ الغنائم، وفادى الأسيرين مع قريش، والآيات هي ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ

---

(١) تاريخ خليفة ٥٧ من طريق ابن إسحاق دون إسناد.

(٢) تاريخ خليفة ٦٣ من رواية عروة المرسلة، والإسناد إليه حسن.

ٱلْقَتْلِ﴾[١]، وهكـذا بينـت الآيـات أن مـا فعلته قريـش من فتنة المسـلمين عن دينهـم وإخراجهـم من مكة أكبر من قتال المسـلمين في الشـهر الحرام[٢] ـ مع إقرار مطلع الآية لحرمة «الأشهر الحرم» ـ فهلا التزمت قريش بالقيم والأعراف فيما فعلته مع المسـلمين، حتى يحق لها أن تعلن عن نفسـها، وكأنها القيِّم على الأعراف والمقدسات!!

وقد تعرض الشبهة للبعض، فيظن أن تعرض المسلمين لقوافل المشركين يشـبه أعمال قطاع الطرق، فرد هذه الشـبهة بأن المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش، فإضعافها اقتصاديًّا وبشـريًّا مـن مقتضيات حالة الحرب، هذا فضلًا عمـا قامت به قريش من مصادرة أموال المسـلمين عنـد هجرتهم من مكة، وما زالـت حالة الحـرب حتـى الوقت الحاضر تسـمح بضـرب الطاقات البشـرية والاقتصادية للعدو.

*****

وفـي شـهر رجب أيضًـا، وقع حـادث مهم لابد مـن التنويه بـه، لأثره في التأكيـد على تمييز المسـلمين واسـتقلالهم فـي وجهة صلاتهـم، وهو تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

*****

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٧.

(٢) ابن هشام: سيرة ١/ ٥٩ـ ٦٠ من مراسيل عروة. والبيهقي: سنن ٩/ ١٢، ٥٨ ـ ٥٩ بسند صحيح إلى عروة. وله شـواهد مسـندة عند الطبراني بإسـناد حسـن وغيره (انظر الإصابة ٢/ ٢٧٨ وابن كثيـر ٣/ ٢٥١ والهيثمـي: مجمـع الزوائـد ٦/ ٦٦ ـ ٦٧). والحديث يرقى بمجمـوع طرقه إلى الصحيح لغيره.

تحويل القبلة إلى الكعبة

كان النبي ﷺ يتجه في صلاته بمكة قبل الهجرة مستقبلًا بيت المقدس، تاركًا الكعبة المشرفة بينه وبين بيت المقدس. هكذا ورد في رواية صحيحة الإسناد إلى عبدالله بن العباس[1]. وذهب بعض العلماء إلى أنه كان يصلي بمكة إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس. وقد مال إلى هذا الرأي الأخير الحافظ أبو عمر بن عبدالبر القرطبي[2]، وانتقد الحافظ ابن حجر هذا الرأي وضعَّفه، فقال: «وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره»[3]، وقد بين سعيد بن المسيب أن الأنصار كانوا يصلون إلى بيت المقدس قبل الهجرة بثلاث سنوات[4].

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة استمر في الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا[5]، وفي منتصف رجب سنة اثنتين للهجرة أمره

(١) ابن سعد: الطبقات ١/ ٢٤٣ وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس، وكأن البخاري – في ترجمة الباب – أراد الإشارة إلى أن الجزم بالأصح من أن الصلاة لما كانت عند البيت كانت إلى بيت المقدس (فتح الباري ١/ ٩٥ – ٩٦).

(٢) فتح الباري ١/ ٩٧.

(٣) فتح الباري ١/ ٩٦.

(٤) تفسير الطبري ٢/ ٤ بإسناد حسن، لولا عنعنة قتادة وهو مدلس، وقد ضعف ابن المديني مرواياته عن سعيد بن المسيب إذا لم يصرح بالسماع، كما في ترجمة قتادة في تهذيب التهذيب، وقال بذلك أيضًا من المفسرين ابن جريج مثل قول سعيد بن المسيب (تفسير الطبري ٢/ ٥)، ويلاحظ أن عبارة ابن المسيب فيها «ثلاث حجج» بدل «ثلاث سنوات».

(٥) روى ذلك عدد من الصحابة، هم معاذ بن جبل وأنس بن مالك والبراء بن عازب، كما روى ذلك سعيد بن المسيب مرسلًا، والأسانيد إليهم صحيحة (صحيح مسلم ١/ ٣٧٤ وجزم به وصحيح البخاري (فتح الباري ١/ ٩٥) لكن رواية البخاري تذكر «ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا» ـ على الشك ـ وتاريخ خليفة بن خياط ٦٤ وتفسير الطبري ٢/ ٣).

الله تعالى بالتحول في صلاته إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل، وقد حدّد سعيد بن المسيب تاريخ تحويل القبلة إلى الكعبة بشهرين قبل بدر[١]، فيكون في ١٧ رجب سنة اثنتين إذا توخينا الدقة، أو منتصف رجب كما هو قول الجمهور إذا لم نعتبر اليومين[٢].

وقد أرخ ابن إسحاق تحويل القبلة في رجب بعد سبعة عشر شهرًا من قدومه[٣]، وورد عنه أيضًا رواية شاذة أن التحويل في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة[٤].

وأما الواقدي فأرخ ذلك للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرًا[٥].

وهناك روايات شاذة، فقد جزم موسى بن عقبة بأن التحويل كان في جمادى الآخرة، وقال آخرون: ثلاثة عشر شهرًا، وتسعة أشهر، وعشرة، وشهرين[٦] وسنتين[٧].

---

(١) تاريخ خليفة ٦٤ وطبقات ابن سعد ١/ ٢٤٢ بإسناد إليه صحيح لكنه مرسل، ومراسيل سعيد ابن المسيب قوية. وانظر تفسير الطبري ٢/ ٣.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٩٧، وقد اعتمدوا على أن تاريخ الهجرة في شهر ربيع الأول بلا خلاف، فأضافوا ستة عشر شهرًا، فيكون تحويل القبلة في منتصف شهر رجب على الصحيح، وبه جزم الجمهور.

(٣) تاريخ خليفة ٦٤ دون إسناد.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٣ دون إسناد.

(٥) طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٢ والواقدي متروك.

(٦) فتح الباري ١/ ٩٧ وتفسير الطبري ٢/ ٣ ـ ٤ وتاريخ خليفة ٦٤ في إسنادهما عثمان بن سعد الكاتب ضعيف.

(٧) من مرسل الحسن البصري، ومراسيله ضعيفة (تاريخ خليفة بن خياط ٦٥).

وإذا أسقطنا الروايات الشاذة، فإن ظاهر التعارض بين «ستة عشر شهرًا» و«سبعة عشر شهرًا» يسهل إزالته بالجمع بين القولين بأن يكون من جزم بستة عشر شهرًا لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرًا وألغى الزائد، ومن جزم بسبعة عشر عدهما معًا، ومن شك تردد في ذلك[1].

ولا شك أن استمرار النبي ﷺ بعد الهجرة في الصلاة إلى بيت المقدس لقي ترحيبًا من اليهود الذين كانوا قد عاهدوه. ولعل ما يذكره مجاهد من أنهم استغلوا ذلك قائلين: «يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا»[2] صحيح، فكأنهم يرون أن الدين الجديد يتابعهم في قبلتهم، ويأخذ عنهم في التقاليد والطقوس، وقد يطمحون في جره إليهم، وقد ذهب البعض إلى القول: إن تغيير القبلة إلى بيت المقدس كان أول الهجرة إلى المدينة تأليفًا ليهود[3]. وقد تبين أن الصحيح خلاف ذلك، وأن الصلاة إلى بيت المقدس كانت استمرارًا لما كانت عليه الحال بمكة قبل الهجرة.

وكان الرسول ﷺ يتطلع إلى الوحي، ويرغب في التوجه إلى الكعبة.. عودة إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، حيث أول بيت مبارك بني لتوحيد الله وعبادته، ورغبة في تمييز المسلمين بقبلة مستقلة تقطع على يهود دعايتهم، فاستجاب الله تعالى له، وحقق أمنيته ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[4].

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٦.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٢٠.

(٣) قد وردت في ذلك روايات ضعيفة في تفسير الطبري ٢/ ٤ من طريق محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، والمثنى بن إبراهيم الآملي وهو مجهول.

(٤) سورة البقرة: آية ١٤٤.

وأول صلاة صلاها النبي ﷺ إلى الكعبة كانت صلاة الظهر في بني سلمة، وأول صلاة صلاها في المسجد النبوي العصر، وأول صلاة صلاها أهل قباء في مسجدهم الفجر عندما بلغهم خبر تحويل القبلة[١]. وكان وقع ذلك على اليهود شديدًا، فقد غضبوا للأمر وقاموا بدعاية واسعة، فنزل القرآن الكريم في تفنيد مزاعمهم، فلما زعموا أن البر في الاتجاه بالصلاة إلى بيت المقدس نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[٢]. وعندما يتساءلون عن سبب التحول عن القبلة الحق - في نظرهم - يعلم نبيه أن يجيبهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣]. وقد أوضح القرآن الكريم أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة امتحان وابتلاء للمؤمنين، لتظهر قوة عقيدتهم، وتختبر سرعة استجابتهم لأوامر الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

يعني: وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس إلا للاختبار، وإنما يظهر وجه الابتلاء عندما تطالعنا الأخبار التي تعكس صدى تحويل القبلة، حيث يزعم المشركون أن الرسول ﷺ تحير في دينه ورجع إلى قبلتهم، ويرجف المنافقون في أوساط المؤمنين: ما بال محمد يحولنا مرة إلى

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٧٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١٤٢ وانظر تفسير الطبري ٢/ ١ - ٢.

(٤) سورة البقرة: آية ١٤٣.

هنا ومرة إلى هنا؟! حتى خاف المسلمون على صلواتهم التي صلوها إلى بيت المقدس أن يبطل أجرها[(١)].

فأوضحت الآية أن الله لا يضيع صلاة من صلى منهم إلى بيت المقدس ومات قبل تحويل القبلة دون أن يتجه إلى الكعبة، وهم عشرة من الصحابة، لأنهم أطاعوا الله ورسوله بالاتجاه إلى بيت المقدس، كما أطاعه الأحياء في الاتجاه إلى الكعبة[(٢)].

*****

(١) تفسير الطبري ٢/ ١١ – ١٢.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٤٣ بإسناد صحيح، وفتح الباري ١/ ٩٨، وتفسير الطبري ٢/ ١٧.

openikandl.com

والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ...

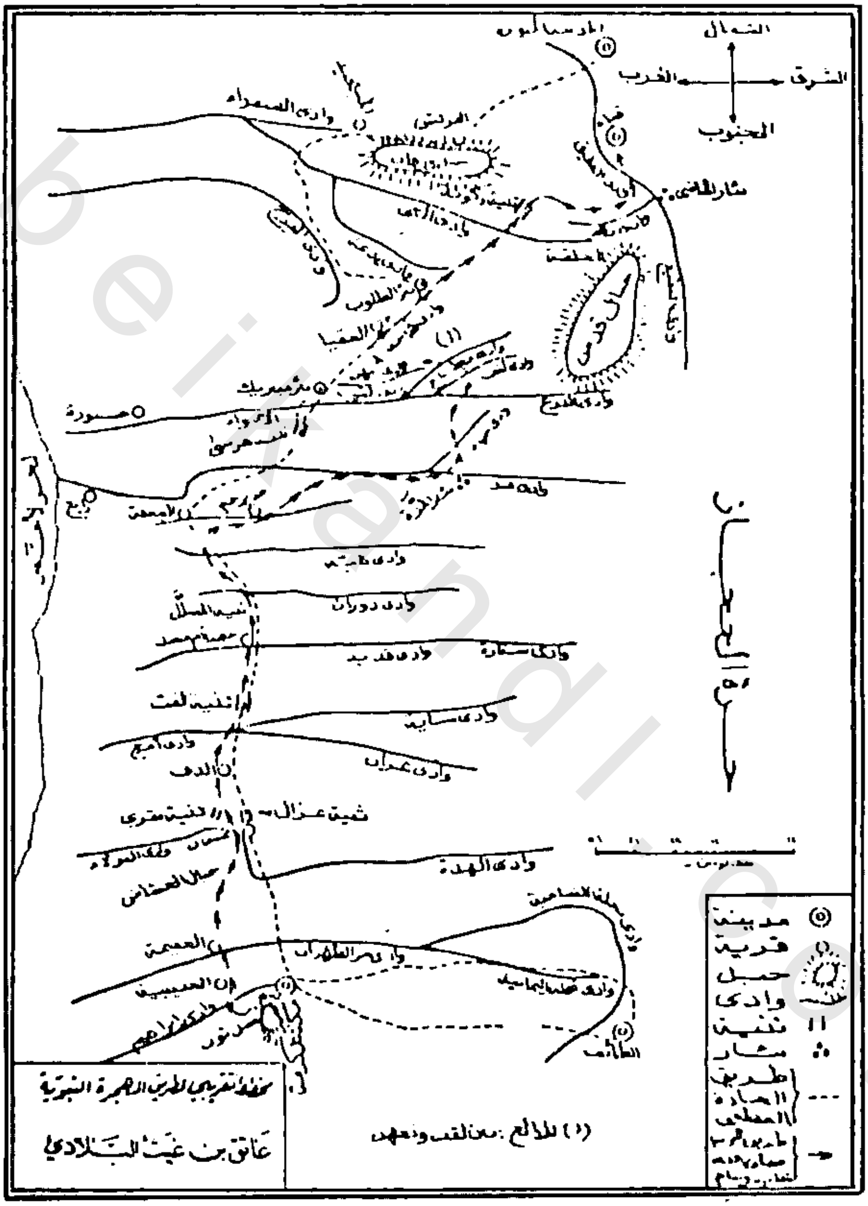

من كتاب «معجم معالم السيرة النبوية»

obeikandi.com

غزوة بدر الكبرى

برغم تهديد المسلمين لطرق التجارة إلى الشام، فإنهم لم يشتبكوا مع قوافل قريش في قتال حاسم حتى هذه المرحلة، مما جعل قريشًا تواصل إرسال قوافلها التجارية مع تأمين الحراسة لها، ولكن المسلمين كانوا لها بالمرصاد، فلما بلغهم تحرك قافلة كبيرة لقريش عائدة من الشام ترصدوها، وكان يقودها أبو سفيان صخر بن حرب، وكانت تحمل أموالاً عظيمة لقريش. ويحرسها ثلاثون أو أربعون رجلًا[(١)]، وقد أرسل النبي ﷺ بسبس لاستطلاع أخبار القافلة، فلما رجع إليه بخبرها ندب أصحابه للخروج، وتعجل بمن كان مستعدًّا دون أن ينتظر من رغب في الخروج من سكان العوالي لئلا تفوتهم القافلة[(٢)].

لذلك فإن جيش المسلمين ببدر لا يمثل كل طاقتهم العسكرية، فإنهم خرجوا لأخذ القافلة ولم يعلموا أنهم سيواجهون جيش قريش. وقد ذكر عكرمة أن الرسول ﷺ أرسل عدي بن الزغباء وبسبس بن عمرو إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها[(٣)]. وخبر إرسال بسبس ثابت في صحيح مسلم، وهو دليل على الأخذ بالأسباب، ومن ذلك التجسس على العدو وجمع أخباره.

---

(١) ابن حزم: جوامع السيرة، ١٠٧، وقد قدرت الأموال بخمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينارًا (مغازي الواقدي ١/ ٢٠٠ والبلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٣١٢).

(٢) صحيح مسلم حديث رقم ١١٥٧ ووقع فيه «بسيسة» بدل «بسبس»، وقال ابن حجر: إن الصواب «بسبس» (الإصابة ١/ ١٥١).

(٣) ابن سعد: الطبقات ٢/ ٢٤ ط. مصر بإسناد صحيح إلى عكرمة مرسلا.

وقد خرج المسلمون إلى بدر وهم ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً فقط[١]، منهم مئة من المهاجرين وبقيتهم من الأنصار، إذا أخذنا برواية الزبير بن العوام، وقد شهد الموقعة، أما البراء بن عازب الذي رده الرسول ﷺ عن شهودها لصغر سنه، فقد ذكر أن المهاجرين كانوا يزيدون على الستين، وأن الأنصار كانوا يزيدون على أربعين ومائتين[٢]. وقد ذكرت المصادر أسماء ٣٤٠ صحابيًا ممن شهد بدرًا، وهذا بسبب الاختلاف بينها في شهود بعضهم الغزوة[٣].

وقد أذن رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان ولأبيه بعدم شهود بدر، لأنهما كانا قد وعدا كفار قريش بعدم القتال معه، فطلب منهما الوفاء بعهدهما[٤].

وقد التحق بهم أحد شجعان المشركين في الطريق ليقاتل مع قومه، فرده الرسول ﷺ، وقال: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، وكرر الرجل المحاولة، فرفض الرسول حتى أسلم الرجل و التحق مع المسلمين[٥]. فلا بد أن تظهر الصبغة العقائدية على أولى الملاحم الإسلامية، ولا بد من وحدة الهدف فيها، وكان مع المسلمين سبعون بعيرًا يتعاقبون على ركوبها[٦] وكان الرسول ﷺ وأبو لبابة وعلي بن أبي طالب يتعاقبون على بعير واحد، فأرادا أن يؤثراه بالركوب،

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٨٤. وقال البخاري في روايته: «بضعة عشر وثلاث مئة (فتح الباري ٧/ ٢٩٠ – ٢٩٢).

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٩٠ – ٢٩٢، ٣٢٤ – ٣٢٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١٤. وانظر: مرويات غزوة بدر للعليمي ٣٦٥ – ٤١٩.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٤٤ (ط. دار الفكر بيروت).

(٥) شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٩٨.

(٦) البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠، من طريق ابن إسحاق دون إسناد. وابن حزم: جوامع السيرة ١٠٨.

فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[1] ويالروعة هذا الموقف عندما يستوي القائد والجند في تحمل الشدائد وقد تملكهم الصدق والإخلاص في التطلع إلى رضوان الله وثوابه! وكيف لا يحتمل الجند المشاق وقائدهم يسابقهم في ذلك، ولا يرضى أن يكون دونهم في مواجهتها، وهو شيخ في الخامسة والخمسين من عمره!!.

وقد أمَّر النبي ﷺ على المدينة عند خروجه عبدالله بن أم مكتوم للصلاة بالناس، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء - وهي على أربعين ميلاً من المدينة - وعينه أميرًا على المدينة[2]. مما يبين أهمية وجود الأمير في الحضر والسفر والسلم والحرب.

وقد بلغ أبا سفيان خروج المسلمين لأخذ القافلة، فسلك بها في طريق الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري لاستنفار أهل مكة، فلما علمت قريش الخبر استعدت للخروج دفاعًا عن قافلتها، وقد ذكر ابن عباس وعروة ابن الزبير أن عاتكة بنت عبدالمطلب رأت في المنام: أن رجلاً استنفر قريشًا، وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة، فتفتتت، ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل، حتى قدم ضمضم، وأعلمهم بخبر القافلة[3]. فسكنت مكة وتأولت الرؤيا.

(١) أحمد: المسند ١/ ٤١١ بسند قال الحاكم: إنه صحيح على شرط مسلم (المستدرك ٣/ ٢٠)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم ابن بهدلة وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ٦٩).

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠ نقلا عن ابن إسحاق دون إسناد. والحاكم: المستدرك ٣/ ٦٣٢ وفي إسناده ابن لهيعة، وهو صدوق خلط بعد احتراق كتبه (التقريب لابن حجر)، وفيه أبو جعفر البغدادي وأبو علاثة محمد بن عمرو بن خالد لم أقف على ترجمتهما. وسكت عنه الذهبي.

(٣) الحاكم: المستدرك ٣/ ١٩ بإسناد ضعيف إلى ابن عباس، والبداية والنهاية ٣/ ٢٥٧ من طريق ابن إسحاق وبإسناد حسن إلى عروة لكنه مرسل. وثمة روايات أخرى لا تخلو من ضعف، لكنها تعتضد للدلالة على صحة الحادثة (الإصابة ٤/ ٣٤٧ ومجمع الزوائد ٦/ ٧٢).

وكان وقع الخبر على قريش كالصاعقة، فإن التعرض لقوافلها السابقة كان ينتهي بمناوشات خفيفة، قصد منها المسلمون إقلاق قريش، أما هذه المرة فقد قصدوا أخذ القافلة فعلا، يدل على ذلك قول الرسول ﷺ للمسلمين: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»(٤). لذلك سارعت قريش للخروج، وحاولت أن تجند كل طاقتها، فلم يتخلف أحد من فرسانها ورجالها إلا البعض - مثل أبي لهب - ممن أرسل بدله رجلا. فقد كانت قريش في أشد الغضب، وكانت ترى فيما حدث امتهانا لكرامتها، وحطًا لمكانتها بين العرب، فضلا عن ضرب مصالحها الاقتصادية الكبيرة. لذلك كان من يظهر التردد في الخروج مع جيش قريش يتجه إليه زعماء قريش بالعتاب واللوم حتى يقنعوه بالخروج(٥).

وقد صح أن عدد جيش المشركين بلغ ألفًا(٦)، وقد ذكر ابن إسحاق - دون إسناد - أنهم كانوا تسع مئة وخمسين مقاتلاً، معهم مائتا فرس يقودونها، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين(٧).

وأما عن تمويل الجيش، فإن الأموي ذكر - دون إسناد - أن أثرياء قريش كانوا ينحرون الإبل مرة تسعًا ومرة عشرًا، لإطعام الجيش(٨). وقد انشق بنو زهرة ورجعوا إلى مكة بعد أن نصحهم بذلك الأخنس بن شريق، حين علموا بنجاة القافلة. وهم بالجحفة شرق رابغ(٩)، ولكن معظم الجيش تقدموا حتى

---

(٤) ابن هشام: السيرة ٢/ ٦١ من طريق ابن إسحاق بسند صحيح إلى ابن عباس.

(٥) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٢٨٣.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٨٤.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠.

(٨) المصدر السابق.

(٩) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠١ وتاريخ الطبري ٢/ ٤٤٣.

وصلـوا إلـى منطقة بـدر. فلم تعد نجـاة القافلـة هدفهم، بل تأديب المسـلمين وتخليـص طرق التجـارة من تعرضهم، وإعلام العرب بقوة قريش وسـلطانها، وسـقط بعض خدمهم أسـرى بيد المسـلمين عند عيون المياه ببدر، وقد عرف منهم الرسـول ﷺ عدد الجيش وموقعه وزعماءه، فقـد ذكروا عدد ما ينحرون من الإبل لطعامهم كل يوم، فقال: «القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها»[1].

ولم يرتح بعض المسلمين لنجاة القافلة ومواجهة جيش المشركين، لأنهم لم يستعدوا للقتال. وقد صور القرآن الكريم موقفهم في الآيات الآتية: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

وكان الأنصار قد بايعوا الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية على أن يحموه في بلدهم، ولم يبايعوه على القتال معه خارج المدينة، لذلك اقتصرت السـرايا التي سـبقت بدر علـى المهاجرين، ونظرًا لوجود الأنصـار مع المهاجرين ببدر وتفوقهـم العـددي الكبيـر، فقـد أراد الرسـول ﷺ معرفـة رأيهم فـي الموقف الجديـد. فكان أن شـاور أصحابـه عامة وقصد الأنصار خاصـة، وقد روى ابن إسحاق خبر المشورة بسند صحيح، قال: فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسـن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسـن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك،

(١) مسـند أحمد ٢/ ١٩٣ رقم ٩٤٨ وقال المحقق أحمد شاكر: إسناده صحيح، وفيه أبو إسحاق السـبيعي مدلـس، ولكـن العلة زالت لـوروده من طرق أخـرى. وقال الهيثمـي: رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (مجمع الزوائد ٦/ ٧٦).

(٢) سورة الأنفال: الآيات ٥ - ٧.

والله لا نقول لك كما قال بنو إسـرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سـرت بنا إلى برك الغماد لجالدنـا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له.

ثم قال رسـول الله ﷺ: «أشـيروا عليَّ أيها الناس؟» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يارسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهم المدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسـول الله ﷺ قال له سـعد بن معـاذ: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال: أجل.

قـال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشـهدنا أن ما جئت بـه هو الحق، وأعطيناك علـى ذلـك عهودنـا ومواثيقنا علـى السـمع والطاعة لـك. فامض يارسـول الله لمـا أردت فنحـن معك. فو الذي بعثك بالحق لو اسـتعرضت بنـا البحر فخضته لخضنـاه معـك ما تخلف منـا رجل واحد، وما نكـره أن تلقى بنا عدونـا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله. قال: فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[1].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) من رواية ابن إسـحاق بإسـناد صحيح. وقال ابن كثير: وله شواهد من وجوه كثيرة، فمن ذلك رواية البخاري والنسائي وأحمد، ويشير ابن كثير إلـى روايـة البخاري وروايـة الإمام أحمد لقول المقداد بن الأسـود (الفتح ٧/ ٢٨٧ ومسـند أحمد ٥/ ٢٥٩ حديث رقم ٣٦٩٨ من ط. أحمد شاكر).

فلما رأى النبي ﷺ طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وحبهم للتضحية من أجل الإسلام بدأ بتنظيم جنده، فأعطى اللواء - وكان أبيض - إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين لعلي بن أبي طالب وسعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة[١].

وقد ظهرت الخلافات في جيش المشركين حيث كان عتبة بن ربيعة يريد العودة دون قتال المسلمين، لئلا تكثر الترات بين الطرفين وبينهم أرحام وقرابات، أما أبو جهل فكان مصرًّا على القتال، وقد غلب رأيه أخيرًا[٢]، فقام المشركون بإرسال جاسوس لهم للتعرف على عدد المسلمين فأخبرهم بعددهم[٣]. وأخذ أبو جهل يدعو على رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة»، فكان ذلك استفتاحه الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٦٠ من طريق ابن إسحاق دون إسناد. وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٨٥.

(٢) الطبري: تاريخ ٢/ ٤٤٣، ٤٢٤ - ٤٢٥ بسند حسن.

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٢٦٩ من طريق ابن إسحاق بإسناد جيد، إذ يغلب على الظن أن شيوخ إسحاق بن يسار فيه من الصحابة. ولو تحقق ذلك فإن الحديث صحيح، لأن جهالة الصحابي لا تضر خاصة وهم كثرة.

(٤) الحاكم: المستدرك ٢/ ٣٢٨ والطبري: التفسير ١٣/ ٤٥٤ تحقيق أحمد شاكر، كلاهما بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن ثعلبة بن أبي صعير العذري من صغار الصحابة، لم يثبت له سماع لكن مرسل الصحابي ليس علة قادحة، لأن الصحابة كلهم عدول. والآية من سورة الأنفال ١٩.

لقد وصل المسلمون إلى بدر، وقاموا باستطلاع المكان قبل وصول المشركين، وقد ورد بسند حسن إلى عروة لكنه مرسل: أن الحباب بن المنذر أشار على النبي ﷺ بأن يترك مياه بدر خلفه، لئلا يستفيد منها المشركون، وأن النبي ﷺ قبل مشورته[١]. وبرغم ضعف هذه الرواية من جهة الإرسال، فإن مبدأ الشورى ثابت بنصوص القرآن الكريم وأحداث السيرة المطهرة.

فكثيرًا ما كان الرسول ﷺ يستشير أصحابه فيما لا وحي فيه، من الكتاب والسنة تعويدًا لهم على التفكير بالمشكلات العامة، وحرصًا على تربيتهم على الشعور بالمسئولية، ورغبة في تطبيق الأمر الإلهي بالشورى، وتعويد الأمة على ممارستها.

وقد وصف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية صحيحة: كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر، وأمامهم معسكر المشركين، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح... ثم إنه أصابنا من الليل طش[٢] من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف[٣] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه، ويقول: (اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد) فلما طلع الفجر نادى: (الصلاة عباد الله)، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرّض على القتال»[٤].

---

(١) ابن حجر: الإصابة ١/ ٣٠٢ من طريق ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وثمة رواية عند الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٢٦ - ٤٢٧ بإسناد فيه من لم أقف على تراجمهم، لكن الذهبي قال: إنه حديث منكر. وساق ابن هشام الخبر من طريق ابن إسحاق بسند فيه إبهام. ولو عرف المبهم لحسن السند (سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٣).

(٢) الطش: القليل.

(٣) الحجف: التروس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب (الفتح الرباني ٢١/ ٣١).

(٤) أحمد في المسند بإسناد صحيح (الفتح الرباني ٢١/ ٣٠، ٣٦).

وقد وردت رواية ضعيفة تشير إلى أن تعبئة الجيش من حيث تهيئتهم للحرب وترتيبهم في مواضعهم تمت خلال الليل(١). وقد أثبتت آية قرآنية نزول المطر ببدر، وهي ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾(٢).

ويبدو أن الرسول ﷺ أراد أن يريح جيشه، فقام بحراستهم بنفسه تلك الليلة.

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان نظم الرسول ﷺ جيشه في صفوف كصفوف القتال(٣). وهو أسلوب جديد في القتال، يخالف ما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكر والفر، وهو الأسلوب الذي قاتل وفقه المشركون ببدر، ولا شك أن نظام الصفوف يقلل من خسائر المسلمين، ويعوض قلة عددهم أمام المشركين، وفيه مزية السيطرة على القوة بكاملها، وتأمين العمق للجيش، حيث تبقى دائما بيد القائد قوة احتياطية في الخلف، يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان(٤).

---

(١) تحفة الأحوذي ٥/ ٣٢٤ - ٣٢٥ وفي إسناد الترمذي محمد بن حميد الرازي ضعيف، وسلمة بن الفضل الأبرش صدوق كثير الخطأ، كما في التقريب لابن حجر. فلا تنهض الرواية لمعارضة رواية الإمام أحمد.

(٢) سورة الأنفال: آية ١١.

(٣) أحمد في المسند بإسناد صحيح (٥/ ٤٢٠). والهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ٧٥ من رواية الإمام أحمد بإسناد صحيح. ويذكر ابن عساكر أن المحفوظ أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة (السيرة ٥٣، ٥٤) أما الرواية التي تذكر أنها يوم الاثنين فهي ضعيفة من طريق ابن لهيعة (المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٢٣٧).

(٤) محمود شيت خطاب: الرسول القائد ٧٨ - ٧٩.

وقد بُنِيَ للرسول ﷺ عريش أو قبة كان فيها، ليدير منها المعركة باقتراح من سعد بن معاذ[١]، وذلك لأهمية الحفاظ على القائد في المعركة.

ولما اقترب المشركون من المسلمين قال لهم الرسول الكريم: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه». فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»[٢]. فلما سمع عمير بن الحمام الأنصاري ذلك، قال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخ بخ[٣]. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رَجَاءَةَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه[٤] فجعل يأكلن منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»[٥]!!.

وحكى عمر بن الخطاب إكثار النبي ﷺ من الدعاء يوم بدر، قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٨٧ من رواية البخاري.

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري ٢/ ٧٠ حديث رقم ١١٥٧.

(٣) كلمة تقال لتعظيم الأمر في الخير.

(٤) القرن: جعبة النشاب.

(٥) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ٣/ ١٥٠٩ - ١٥١٠ حديث رقم ١٩٠١.

سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة»(١). وقد خرج من العريش، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٢).

وكان رسول الله ﷺ يباشر القتال بنفسه، قال علي، رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»(٣).

وقد بدأ القتال بمبارزات فردية، حيث تقدم عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه الوليد وأخوه شيبة طالبين المبارزة، فانتدب لهم شباب من الأنصار، فرفضوا مبارزتهم، طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول ﷺ حمزة وعليًّا وعبيدة بن الحارث بمبارزتهم، وقد تمكن حمزة من قتل عتبة، ثم قتل علي شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد، وجرح كل منهما صاحبه، فعاونه عليٌّ وحمزة فقتلوا الوليد، واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين(٤).

وقد أثرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش وبدأوا الهجوم، فأمر النبي ﷺ أصحابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقتربوا منهم حرصًا على الإفادة من النبال بأقصى ما يستطاع، فقال: «إذا أكثبوكم فارموا، واستبقوا نبلكم»(٥). ويذكر عروة وقتادة أن الرسول ﷺ رمى الحصا في وجوه المشركين(٦)، وتدل

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٨٤ - ٨٥.

(٢) من رواية البخاري (فتح الباري ٧/ ٢٨٧).

(٣) أحمد: المسند ٢/ ٢٢٨ وقال أحمد شاكر: صحيح.

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٤٩ وصححه ابن حجر (الفتح ٧/ ٢٩٨).

(٥) فتح الباري ٧/ ٣٠٦ من رواية البخاري.

(٦) الطبري: تفسير ١٣/ ٤٤٢ - ٤٤٣ بإسنادين صحيحين إلى عروة وقتادة لكنهما مرسلان، وهما يعتضدان لأن المرسل إذا تعددت مخارجه يقوى.

على صحة ذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

ثم التقى الجيشان في ملحمة قتل فيها عدد من زعماء المشركين، منهم أبو جهل عمرو بن هشام الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه فرعون هذه الأمة(٢). وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء، وهما غلامان لا يعرفانه حتى دلهما عليه عبدالرحمن بن عوف، وقد أخبرا بأنهما يريدان قتل أبي جهل لما كان من سبه للرسول ﷺ، وقد أجهز عليه ابن مسعود بعد أن أصاباه(٣).

ومنهم أمية بن خلف، فقد أسره عبدالرحمن بن عوف بعد المعركة، وأسر معه عليًّا ابنه، فلمحه بلال، وكان هو الذي يعذبه بمكة، فقال: رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا، واستصرخ عليه الأنصار، فأعانوه على قتله هو وابنه علي(٤).

وقد ثبت في القرآن والحديث: أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر، وكذلك صح أنها قاتلت ببدر.

فأما القرآن ففيه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ

(١) سورة الأنفال: آية ١٧.

(٢) الهيثمي (مجمع الزوائد ٦/ ٧٩) من طريق الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة. وفي التقريب ٢/ ٢١٦ أنه صدوق.

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٩٣ – ٢٩٦، ٣٢١. ومسلم بشرح النووي ١٢/ ١٥٩ – ١٦٠.

(٤) انظر فتح الباري ٤/ ٤٨٠ من رواية البخاري، وابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٨٦ من رواية ابن إسحاق بإسناد صحيح.

رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[٣]. هذا إذا أرجعنا الضمير في «اضربوا» إلى الملائكة، لكن الطبري أرجعه للمؤمنين، وإن الله تعالى يعلمهم كيفية الضرب[٤].

وأما الأحاديث:

فقد قال ابن عباس: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم[٥]. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم[٦] أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»[٧].

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٩ - ١٠.

(٣) سورة الأنفال: آية ١٢.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٠، تحقيق أحمد شاكر.

(٥) اسم فرس الملك.

(٦) الخطم: الأثر على الأنف.

(٧) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٨٥ - ٨٦.

وقد أسر رجل من الأنصار العباس بن عبدالمطلب، فقال العباس: «يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح[١] من أحسن الناس وجها، على فرس أبلق، ما أراه في القوم». فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: اسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم»[٢].

وفي مغازي الأموي بإسناد حسن: «خفق النبي ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة، آخذ بعنان فرسه، يقوده على ثنايا النقع، أتاك نصر الله وعدَتُه»[٣].

وفي صحيح البخاري: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»[٤].

فهذا ما صح من الآثار عن اشتراك الملائكة ببدر وقتالها فيها، وأما عن حكمة ذلك مع أن جبريل وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله، فيوضح السبكي ذلك بقوله: «وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها، التي أجراها الله تعالى في عباده. والله تعالى هو فاعل الجميع، والله أعلم»[٥].

---

(١) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه (النهاية ١/ ٢٨٤).

(٢) أحمد: المسند ٢/ ١٩٤ وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح». وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (مجمع الزوائد ٦/ ٧٥ - ٧٦).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤ والألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ٢٤٣. وحكم عليه بالحسن. وقارن برواية البخاري في الصحيح (فتح الباري ٧/ ٣١٢).

(٤) فتح الباري ٧/ ٣١١ - ٣١٢.

(٥) المصدر السابق ٧/ ٣١٣ وكلام السبكي يكشف عن طبيعة الإسلام في تحقيق أهدافه معتمدًا على الجهد البشري وفي حدود السنن والقوانين الطبيعية و الاجتماعية، وهذا الكلام يدل على بصيرة نافذة وعمق في فهم طبيعة هذا الدين.

وقد يتحاشى بعض الكتاب المسلمين الإشارة إلى مشاركة الملائكة ببدر، وهذا من مظاهر الهزيمة أمام الفكر المادي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوسات، والإيمان برسالة محمد ﷺ يقتضي الإيمان بالملائكة.

وأخذ المشركون يتساقطون صرعى، حتى قتل منهم سبعون وأسر سبعون[١]، وكان بعضهم يصرعون في مواضع، كان الرسول ﷺ قد بين لأصحابه قبل المعركة أنهم يصرعون فيها، وذكرهم بأسمائهم[٢].

ثم فروا، لا يلوون على شيء، تاركين غنائم كثيرة في ميدان المعركة.

وأمر الرسول ﷺ بسحب قتلى المشركين إلى آبار ببدر، فألقوا فيها، وأقام ببدر ثلاثة أيام، ودفن شهداء المسلمين فيها، وهم أربعة عشر شهيدًا، سمتهم المصادر[٣] وزاد ابن حجر عليهم في الإصابة اثنين آخرين[٤]. ولم يذكر أنه ﷺ صلى عليهم، وهي السنة في الشهداء، ولم ينقل أحد منهم من بدر ليدفن في المدينة.

فلما كان اليوم الثالث ببدر وقف على أربعة وعشرين رجلا منهم من صناديد قريش في إحدى الآبار، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، ويقول: «أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٨٦ - ٨٧

(٢) أحمد: المسند ١/ ٢٣٢ بإسناد صحيح.

(٣) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٢٨. وابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣٢٧.

(٤) ابن حجر: الإصابة ٣/ ٣٢٨، ٦٠٨ وهما معاذ بن الحارث وهلال بن المعلي بن لوذان.

قال قتادة: «أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا»[١].

ولم يطلب الرسول ﷺ قافلة أبي سفيان بعد بدر، فقد وعده الله إحدى الطائفتين، وأنفذ له وعده بالنصر على جيش المشركين[٢].

وقد أوصى الرسول ﷺ بالمحافظة على حياة بعض المشركين، الذين خرجوا إلى بدر مكرهين خائفين من لائمة قومهم، ومنهم من قدم يدًا للمسلمين في العهد المكي، وقد سمى منهم بني عبدالمطلب - وفيهم عمه العباس بن عبدالمطلب - وأبا البختري بن هشام[٣]، فطلب من المسلمين أن يأسروهم[٤] وقد تم أسر العباس بن عبدالمطلب، وأما أبو البختري فقد أصر على القتال فقتل[٥].

وقد استشار الرسول ﷺ أبا بكر وعمر فيما يصنع بالأسرى؟ فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم وعلل ذلك بقوله: «فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام»، وأشار عمر بن الخطاب بقتلهم: «فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها». ومال النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر بقبول الفدية، فنزلت الآية الكريمة في موافقة رأي عمر، رضي الله عنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٠٠ من رواية البخاري.

(٢) انظر: أحمد: المسند ٣/ ٣٢٠، ٤/ ٣١٣، ٥/ ٥ بإسناد صحّحه أحمد شاكر وجوّده ابن كثير وحسّنه الترمذي (ابن كثير: تفسير ٢/ ٢٨٨ وتحفة الأحوذي ٨/ ٤٧١).

(٣) كان ممن قام بنقض صحيفة المقاطعة بمكة، وكان لا يؤذي المسلمين (البداية والنهاية ٣/ ٢٨٥).

(٤) مسند أحمد ٢/ ٧٦ - ٧٧ بإسناد صحيح كما قال أحمد شاكر.

(٥) البداية والنهاية ٣/ ٢٨٥ وسيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ - ٧١.

حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[2].

وبذلك أحل لهم ما أخذوه من الفداء بعد أن عاتبتهم الآية في تفضيل الفداء على عقوبة أئمة الكفر. وهذا الحكم كان في أول الإسلام، ثم جعل الخيار للإمام بين القتل أو المفاداة أو المن عليهم دون فداء، ما عدا الأطفال والنساء، إذ لا يجوز قتلهم[3].

وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال فقد أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم[4]. وقد فدت زينب بنت رسول الله ﷺ زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة، فأطلق الصحابة أسيرها وردوا عليها قلادتها إكرامًا لرسول الله [5]. ومن لم يكن لهم فداء من الأسرى، جعل فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[6]. ولم يكن هم المسلمين أخذ المال من هؤلاء قدر إضعافهم معنويًا، فقد قال الرسول ﷺ: (لو كان مطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له)[7]. وقد أراد الأنصار إعفاء العباس من دفع الفدية، فهو عم الرسول ﷺ وجدته نجّارية، فأبى الرسول ﷺ ذلك، وقال: «لا تذرون منه

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٨٦ - ٨٧.
(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ - ٦٨.
(٣) ابن قدامة: المغني ٨/ ٣٧٢ - ٣٧٤.
(٤) الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ٩٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.
(٥) مسند أحمد بإسناد جيد (الفتح الرباني ١٤/ ١٠٠).
(٦) مسند أحمد بإسناد فيه علي بن عاصم صدوق يخطئ ويصر (المسند ٤/ ٤٧). وانظر طبقات ابن سعد ٢/ ١ / ١٤ والأموال لأبي عبيد ١١٦ ومستدرك الحاكم ٢/ ١٤٠.
(٧) فتح الباري ٧/ ٣٢٣ من رواية البخاري.

درهما»[١] فليست هناك محاباة ولو مع عم رسول الله ﷺ، بل الكل سواء أمام حكم الله ورسوله. برغم أنه أخبر الرسول ﷺ أنه كان مسلما وقد أكره على الخروج إلى بدر[٢]. فدفع العباس مئة أوقية فدية، ودفع عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، في حين دفع بعض الأسرى الآخرين أربعين أوقية فقط[٣]!!.

هذا بالنسبة للأسرى. أما الغنائم فقد وقع خلاف حولها، إذ لم يكن حكمها قد شرع بعد، قال عبادة بن الصامت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ على فواق بين المسلمين[٤] - أي بالتساوي بينهم. وتدل الآثار الصحيحة على أن النبي ﷺ أخرج الخمس من الغنيمة، ثم قسمها بين المقاتلين[٥]. وكانت آية الخمس قد نزلت ضمن سياق الآيات في غزوة بدر، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ

(١) فتح الباري ٧/ ٣٢١ من رواية البخاري.

(٢) الطبري: تفسير ١٤/ ٧٣ بإسناد حسن.

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٢٢ من كتاب الأوائل لأبي نعيم بإسناد حسن، كما قال الحافظ ابن حجر.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح (الفتح الرباني ١٤/ ٧٣ وانظر تعليق البنا عليه).

(٥) فتح الباري ٧/ ٣١٦ من رواية البخاري، ٣١٧.

﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا الغزوة لأعمال كلفوا بها في المدينة، أو لإصابتهم بجروح وكسور في الطريق إلى بدر، أو لغيرها من الأعذار. منهم عثمان بن عفان الذي أمره الرسول ﷺ بالعناية بزوجته رقية في مرض موتها[٢]. وما إن اتضح الحكم في الغنائم وكيفية توزيعها حتى ثاب الناس إلى طاعة الله ورسوله، واختفى كل خلاف، وكان هذا شأنهم في كل أمر يقطع فيه الله ورسوله بحكم. وكان تقسيم الغنائم في الصفراء في طريق عودة الجيش إلى المدينة، وقد تقدمهم زيد بن حارثة إليها بالبشارة، وقد تلقى المسلمون بالمدينة هذه البشارة بالفرح الغامر والحذر، ألا يكون الخبر يقينا، قال أسامة: «فو الله ما صدقت حتى رأينا الأسارى»[٣]. وكانت الدهشة تعلو الوجوه، أحقًّا هزمت قريش، وأسر زعماؤها، وتحطمت كبرياؤها، وظهرت حقيقة آلهتها الزائفة وعقائدها الباطلة، وها هي أم المؤمنين سودة لفرط دهشتها تقول لأبي يزيد سهيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل: «أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراما»!! فقال رسول الله ﷺ: «أعلى الله وعلى رسوله»!! - أي تؤلبين - فقالت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت»[٤]!!

وفي طريق عودة الجيش إلى المدينة أمر الرسول ﷺ بقتل اثنين من الأسرى: أولهما النضر بن الحارث، وثانيهما عقبة بن أبي معيط[٥]، وكانا

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤١، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) العليمي: مرويات غزوة بدر ٤٢٠ - ٤٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣٠٤ نقلا عن البيهقي بإسناد صحيح.

(٤) ابن هشام: السيرة ٢/ ٣٣٥ بإسناد صحيح.

(٥) البداية والنهاية ٣/ ٣٠٥.

يؤذيان المسلمين بمكة، ويشتدان في عداوتهما لله ولرسوله. فهما من أئمة الكفر ومجرمي الحرب، وفي قتلهما صبرًا درس للطغاة بليغ، وقد تخلى عقبة عن جبروته ونادى: من للصبية يا رسول الله؟ فأجابه: النار[١]. فهلا تذكر عقبة يوم ألقى سلاة شاة على رأس النبي وهو ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عنه[٢]!!

أما بقية الأسرى فقد استوصى بهم رسول الله ﷺ خيرًا، حتى حكى أبو عزيز - وقد أسره أخوه مصعب بن عمير ومعه رجل أنصاري - أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، قال: «فأستحي فأردها، فيردها عليَّ ما يمسها»[٣] وهذا الموقف آية على حسن معاملة الأسير، في الإسلام وإيثاره بأفضل ما عند آسريه. مما لا نجد له مثيلاً في تواريخ الدنيا.

لقد كانت موقعة بدر - برغم صغر حجمها - فاصلة في تاريخ الإسلام، لذلك سماها الله تعالى في كتابه بـ «يوم الفرقان»، لأنه فرَّق بها بين الحق والباطل، وفيها حققت العقيدة الإسلامية انتصارات كبيرة، فقد ظهر استعلاؤها على سائر المصالح والمطامح والعلائق الدنيوية، فهاهم الأنصار يعلنون قبل بدئها أن التزاماتهم تجاه العقيدة لا تحدها اللوائح والعهود التي قطعوها في بيعة العقبة الثانية، بل هم جند مطيعون ومضحون من أجل عقيدتهم دون شرط ولا قيد، وها هم المهاجرون يواجهون أقاربهم في المعركة، فالابن يلقى أباه، والأخ يلقى أخاه، فلا تمنعهم أواصر القربى من قتلهم، لأن مصلحة العقيدة

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ٨٩ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح. وقارن برواية أبي داود في السنن ٢/ ٥٥ بإسناد حسن.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٣٠٦ بسند حسن إلى الشعبي لكنه مرسل.

(٣) البداية والنهاية ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

فوق كل آصرة وارتباط. وقد استحق المقاتلون ببدر أن ينالوا التقدير الكبير الذي صار يلازم كلمة «البدري»، حتى كونوا الطبقة الأولى من الصحابة في سجل الجند لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكانوا يأخذون أعلى العطاء، واحتلوا الصفحات الأولى من كتب الطبقات، وهكذا نالهم التكريم الأدبي والمادي على مر الدهور. وقد أوضحت الأحاديث الصحيحة فضل البدريين وعلو مقامهم في الجنة، فقد أصيب حارثة بن سراقة الأنصاري يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال: «ويحك - أو هبلت - أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس»(١).

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي أخبر قريشًا بخبر قدوم المسلمين لفتح مكة، فعفا عنه الرسول ﷺ، وقال: «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم»(٢) ولما قال عبد لحاطب: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار. قال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرًا والحديبية»(٣).

وكانت أصداء بدر عميقة في المدينة ومكة وأرجاء الجزيرة العربية، فقد استعلى المؤمنون في المدينة على اليهود وبقايا المشركين، فانخذل اليهود، وظهرت أحقادهم التي دفعت بهم إلى المجاهرة بالعداء، فقد غاظتهم النتيجة التي ما كانوا يتوقعونها، فلم يعودوا يسيطرون على أفعالهم وأقوالهم التي تنم عن الغضب والحقد المتأججين. فاندفعوا نحو العدوان مما أدى إلى إجلاء بني قينقاع عن المدينة.

---

(١) فتح الباري ٧/ ٣٠٤ حديث رقم ٣٩٨٢.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥ وشرح النووي على مسلم ١٦/ ٥٥.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ٥٥.

ودخل الكثيرون في الإسلام، وبعضهم دخل حماية لمصالحه بعد أن شعر برجحان كفة المسلمين، فكوَّن هؤلاء جبهة المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي ابن سلول.

وأما قريش في مكة فلم تكد تصدق ما حدث، فقد قتل ساداتها وأبطالها، وتشير رواية مرسلة إلى أنها تجلدت فمنعت البكاء والنياحة على قتلاها، لئلا يشمت بهم المسلمون[١]. وصممت على الانتقام والثأر، فأرسلت عمير بن وهب الجمحي لاغتيال الرسول ﷺ بعد أن وعده صفوان بن أمية بإعالة أهله إن قتل، فمضى إلى المدينة متوشحا سيفه، فلما بلغ المسجد أمسك به عمر بن الخطاب، وذهب به إلى الرسول ﷺ فسأله عما جاء به، فكذب عليه، وزعم أنه جاء في طلب أسير، فأخبره الرسول ﷺ بمقصده، وما كان بينه وبين صفوان ابن أمية، فأعلن إسلامه، وطلب أن يأذن له بدعوة أهل مكة إلى الإسلام[٢]. ومما فعلته قريش للثأر لقتلاها أنها اشترت اثنين من أسرى المسلمين في حادثة الرجيع، وهما خبيب وزيدبن الدثنة فقتلتهما[٣].

*****

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٠.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٣/ ٣٦ من مرسل عروة بن الزبير والزهري، وفي الغالب فإن الزهري يرويها عن عروة، فيتحد المخرج ولا يقوي المرسل.

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٠٨ من رواية البخاري.

في أعقاب بدر

غزوة قرقرة الكدر:

وجه المسلمون جهودهم للمحافظة على الحصار الاقتصادي الذي فرضوه على قريش، ويبدو أن بعض القبائل المستفيدة من تجارة قريش ومرورها بديارها قامت بتجمعات للتحرك ضد المسلمين، من ذلك أن بني سليم وغطفان جمعوا جموعًا بقرقرة الكدر، وهي ماء لبني سليم، فقاد النبي ﷺ جيشًا وداهمهم على الماء، فلم يجد سوى الإبل، فقد فر المقاتلون لما سمعوا بقدومه، فأقام ثلاثة أيام بالمكان ثم عاد[١]. وذكر ابن سعد - دون إسناد - أن الغنيمة كانت خمس مئة بعير، وأن المقاتلين كانوا مئتي رجل[٢].

غزوة السويق:

وقام أبو سفيان بعمل انتقامي، حيث قدم سرًّا بمئتي فارس من مكة، ولجأوا إلى بني النضير في أطراف المدينة، ثم قام بمهاجمة ناحية العريض - وادٍ بالمدينة في طرف حرة واقم - فقتل رجلين، وأحرق نخلاً، وفر عائدًا إلى مكة. وقد تعقبه المسلمون إلى قرقرة الكدر فلم يدركوه، وعادوا بالسويق الذي رماه المشركون للتخفف من حملهم والمسارعة في الفرار، فسميت بغزوة السويق[٣].

---

(١) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢١).

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٣١.

(٣) ابن إسحاق بإسناد صحيح إلى عبد الله بن كعب بن مالك. لكنه مرسل (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٣) وابن سعد: طبقات ٢/ ٣٠ دون إسناد.

غزوة ذي أمر:

وبعد شهر من غزوة السويق التي كانت في محرم سنة ثلاث، غزا الرسول ﷺ نجدا، يريد غطفان التي تجمعت في ذي أمر، ففروا من أمامه ولم يقع قتال. فأقام طيلة شهر صفر في ديارهم ثم عاد إلى المدينة. وهي غزوة ذي أمر[1]. وبيَّن الواقدي وابن سعد أن المجتمعين على ماء ذي أمر هم من غطفان من بني ثعلبة بن محارب، وأن عدد جيش المسلمين كان أربع مئة وخمسين رجلاً، وخالف ابن إسحاق في تاريخها، فذكر أن خروج المسلمين إليها كان في يوم الخميس لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث[2].

غزوة بحران:

ثم غزا الرسول ﷺ بحران من ناحية الفُرُع على الطريق التجارية بين مكة والشام ولم يقع قتال[3]. وذكر الواقدي أنه غاب عن المدينة في هذه الغزوة عشرة أيام[4]. وبيَّن ابن سعد أن عدد جيش المسلمين كانوا ثلاث مئة مقاتل[5].

غزوة القَرَدة:

وحاولت قريش الإفادة من الطريق التجارية عبر نجد باتجاه العراق للإفلات من الحصار الاقتصادي. فخرج أبو سفيان في تجار من قريش معظم

(١) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٥).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢. وطبقات ابن سعد ٢/ ٣٤.

(٣)ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٥).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٥ دون إسناد.

حمولتهم من الفضة، فأرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة فلقي القافلة في ماء من مياه نجد يدعى القردة، ففر الرجال تاركين القافلة غنيمة له. وكان ذلك بعد ستة أشهر من غزوة بدر الكبرى[١]. وذكر ابن سعد أن جند زيد بن حارثة كانوا مئة، وأن القافلة كانت تحمل وزن ثلاثين ألف درهم من الفضة، وأن قيمتها بلغت مئة ألف درهم[٢]. وبذلك فشلت خطة قريش في إيجاد طريق جديد لتجارتها، وهكذا أحكم الحصار الاقتصادي عليها، وأحست بشديد وطأته على اقتصاد مكة التجاري. فكان لابد أن تقوم بعمل حاسم لإنقاذ اقتصادها وسمعتها.

*****

(١) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠ وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٤). وقد ذكر الواقدي أن قائد القافلة كان صفوان بن أمية بدلا من أبي سفيان، كما في البداية والنهاية ٤/ ٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦ دون إسناد.

obeikandl.com

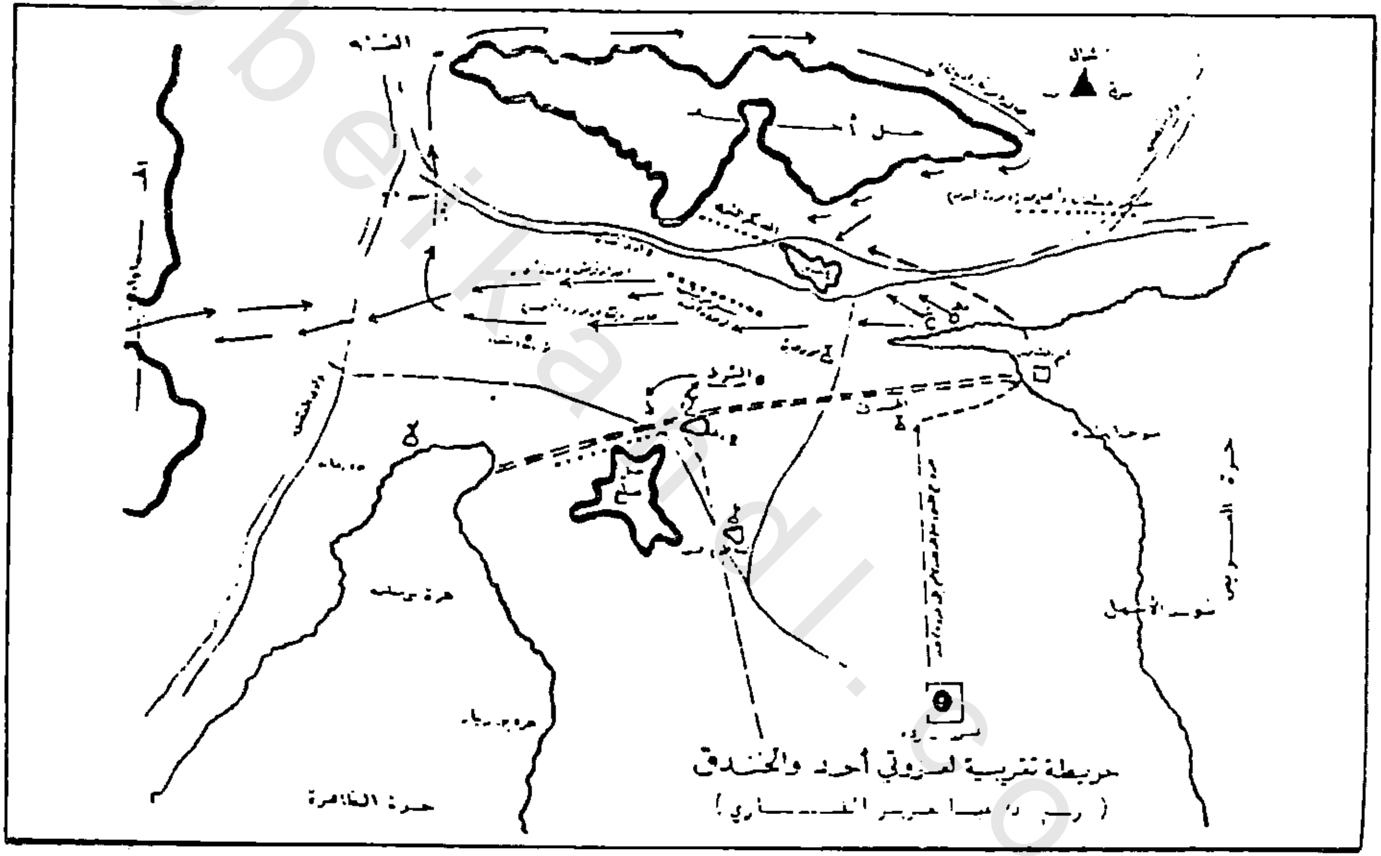

خريطة تقريبية لغزوتي أحد والخندق

غزوة أحد

عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، ويقع في شمال المدينة، وكان يرتفع ١٢٨ مترًا أما الآن فيرتفع ١٢١ مترًا فقط بسبب عوامل التعرية، ويبعد عن المسجد النبوي خمسة أكيال ونصف الكيل[١] بدءًا من باب المجيدي أحد أبواب المسجد النبوي، ويتكون أحد من صخور جرانيتية حمراء، وله رءوس متعددة، ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى «عينين»، وهو الذي عُرِفَ بعد المعركة بجبل الرماة، وبين الجبلين واد عرف بوادي قناة.

وقد وقعت هذه المعركة نتيجة هجوم شنته قريش على المدينة، ولم يمر على غزوة بدر سوى سنة واحدة وشهر، واستهدفت الثأر لقتلاها ببدر، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين، واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر. وقد اتفق كتاب السيرة على أن أحدًا كانت في شوال في السنة الثالثة من الهجرة، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه، وأشهر الأقوال أنها في يوم السبت للنصف من شوال[٢].

وقد ذكر ابن إسحاق عن جمع من شيوخه أن قريشًا أعدت لغزوة أحد

---

(١) الكيل مصطلح أطلقه المجمع العلمي بدمشق على الكيلو متر. وانظر عن تقدير المسافة (العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٢) عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة ١٩٧.

(٢) روى ذلك خليفة بن خياط بإسناد فيه مجهول عن الزهري ويزيد بن رومان (تاريخ خليفة ٩٧) والطبري - بإسناد فيه حسين بن عبد الله الهاشمي وهو ضعيف - عن عكرمة (تفسير الطبري ٧/ ٣٩٩)، وهو أصح ما في الباب على ضعفه.

منذ هزيمتها ببدر،حيث خصصت القافلة التجارية التي نجت[١] أو أرباحها[٢] لتجهيز جيشها. ويذكر ابن إسحاق أنهم أخرجوا معهم ثماني نسوة سماهن في حين يذكر الواقدي أنهن أربع عشرة سماهن[٣]. وبلغ عدد جيش قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس، جعلوا على ميمنتها خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل[٤]. وكان فيهم سبع مئة دارع[٥].

يتكون جيش المشركين من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة[٦]. وقد علم المسلمون بقدوم جيش المشركين لغزو المدينة، ورأى الرسول ﷺ رؤيا - ورؤيا الأنبياء حق وهي من الوحي - حكاها لأصحابه، فقال: «رأيت في رؤيا أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقرًا - والله خير - فإذا هم المؤمنون يوم أحد»[٧]. وقد فسر رسول الله ﷺ الرؤيا بأن هزيمة تكون في أصحابه، وقتلاً يقع فيهم[٨]، وفي رواية أخرى: «ورأيت أني في درع حصينة، فأوّلتها المدينة»[٩].

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١ وشيوخ ابن إسحاق فيهم الثقات والضعفاء، وقد جمع كلامهم ولم يميزه، وبعضهم من صغار التابعين فروايتهم مرسلة ضعيفة، ولكن في مثل هذا الخبر يتساهل عادة.

(٢) الواقدي: المغازي ١/ ٢٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٦ دون إسناد، ومغازي الواقدي ١٥٨ وهو ضعيف.

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٨ - ١٢ من رواية ابن إسحاق دون إسناد والطبري: تاريخ ٣/ ٥٠٤ من رواية الواقدي. ولا تصح رواية في ذلك، وإنما هي أقوال الإخباريين المعنيين بذلك.

(٥) الطبري: تاريخ ٣/ ٥٠٤ من رواية الواقدي.

(٦)ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٣/ ٤ ومغازي الواقدي ١/ ١٠١).

(٧)رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٢٧٤).

(٨) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٥٠ وقال الساعاتي: سنده صحيح). وانظر روايات أخرى في الفتح الرباني ٢١/ ٥٠ وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٤٥ كلاهما بإسناد رجاله ثقات، وفيه عنعنة أبي الزبير وهو مدلس.

(٩) السابق نفسه.

وقد شاور الرسول ﷺ أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها، «وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن»[١]، أو الخروج لملاقاة جيش قريش، فقال: «إنا في جُنَّة حصينة». فقال ناس من أصحابه من الأنصار: يا نبي الله إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فأبرز إلى القوم، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته[٢]. فتلاوم القوم، فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر، وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله إن القوم قد تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع). فقال رسول الله ﷺ: (إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يناجز)[٣].

ومن الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى لو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشكلات الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا لأنه اخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلا بد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٤] لتعتاد على ممارسة الشورى، وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فبرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه

---

(١) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٦٣.

(٢) اللأمة: الدرع الحصينة وسائر أدوات الحرب.

(٣) تفسير الطبري ٧/ ٣٧٢ بإسناد حسن إلى قتادة مرسل، لكن الإمام أحمد وصله من طريق أبي الزبير عن جابر نحوه، وفيه عنعنة أبي الزبير وهو مدلس، وتقويه رواية البيهقي بسند حسن عن ابن عباس، وبمجموع الطرق يصح الحديث، كذلك حكم عليه الألباني في فقه السيرة.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درسا آخر هو من صفات القيادة الناجحة، وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها، ويغرس الفوضى بين الأتباع.

وتتلخص دوافع الراغبين في الخروج بإظهار الشجاعة أمام الأعداء، وبرغبة الذين فاتتهم المشاركة في غزة بدر أن يشاركوا في موقعة مماثلة.

أما رأي الرسول ﷺ ومن وافقه فمبني على الإفادة من حصون المدينة في الدفاع، مما يقلل من خسائر المدافعين، ويزيد من خسائر المهاجمين، ثم الإفادة من طاقات سائر السكان، حتى الذين لا يستطيعون القتال في الميادين المكشوفة من النساء والصبيان.

وعلى أي حال فقد ارتفعت راية سوداء[١] وثلاثة ألوية: لواء المهاجرين يحمله مصعب بن عمير، فلما قتل حمله علي بن أبي طالب، ولواء الأوس يحمله أسيد بن حضير، ولواء الخزرج يحمله الحباب بن المنذر[٢]. واجتمع تحتها ألف من المسلمين والمتظاهرين بالإسلام، معهم فرسان فقط ومئة دارع[٣].

ولبس رسول الله ﷺ درعين[٤]. برغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل، تعويدا لأمته على الأخذ بالأسباب المادية، ثم التوكل على الله.

---

(١) خليفة بن خياط (تاريخ ٦٧) بإسناد حسن إلى سعيد بن المسيب مرسلا ومراسيله قوية.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٣٣، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ٤٥٠ ولم تصح رواية في موضوع الألوية.

(٣) الطبري: تاريخ ٣/ ٥٠٤ وابن سعد: الطبقات ٣/ ٤٤.

(٤) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٥ وصححه ووافقه الذهبي.

وخرج الجيش الإسلامي إلى أحد مخترقًا الجانب الغربي من الحرة الشرقية[١]، حيث انسحب المنافق عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاث مئة من المنافقين، مدعيا أنه لن يقع قتال مع المشركين!! معترضًا على قرار الرسول ﷺ بالخروج بقوله: (أطاعهم وعصاني)[٢].

أما الواقدي فذكر أن انسحاب المنافقين كان من منطقة الشيخين قريبًا من منطقة أحد[٣]. وقد بين القرآن الكريم أن انسحاب عبدالله بن أبي بالمنافقين إنما هو تنقية لصف المؤمنين وتمييز لهم، فلا يبقى فيهم من يرجف ويخذل. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[٥]. وقد ورد في رواية مرسلة لابن إسحاق عن شيوخه أن عبدالله بن عمرو بن حرام حاول إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، وذكروا ما حكته الآية الكريمة السابقة، فقال: «أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه»[٦].

---

(١) منطقة ملعب التعليم الآن، وكان يجري فيها سباق الخيل قديما (العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر ٣٦٩ والبلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص ١٧٠).

(٢) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٣/ ٨ - ١٢) دون إسناد.

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ وطبقات ابن سعد ٣/ ٤٤.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٧٩.

(٥) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٦، ١٦٧.

(٦) سيرة ابن هشام ٣/ ٩.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصحابة، الأول: يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش. والثاني: لا يرى قتلهم، وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين في الآية ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾(١).

وقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين، ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألمَّ بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى، فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين، وهما بنو سلمة (من الخزرج) وبنو حارثة (من الأوس)(٢). وقد صوَّر القرآن الكريم موقف الطائفتين، فقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾(٣).

وفي موقع الشيخين عسكر جيش المسلمين، واستعرض الرسول ﷺ صغار السن، الذين لا طاقة لهم بقتال، ممن هم أبناء أربع عشرة سنة أو أقل، فردهم سوى رافع بن خديج أجازه، لما قيل له: إنه رام، وسمرة بن جندب لما علم أنه أقوى من رافع(٤)، وبلغ عدد من ردهم من صغار السن أربعة عشرة صبيًّا، سماهم ابن سيد الناس(٥). وقد صح أن ابن عمر منهم(٦)، وموقف

(١) النساء: ٨٨ والحديث في مسند أحمد ٥/ ١٨٤، ١٨٧ بإسناد رجاله ثقات، وقد رواه البخاري (فتح الباري ٤/ ٩٦) ومسلم: الصحيح ٤/ ٢١٤٢ حديث رقم ٢٧٧٦.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٥٧ و٨/ ٣٢٥). وصحيح مسلم ٢/ ٤٠٢ وسيرة ابن هشام ٣/ ٦٧.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٢٢.

(٤) ابن إسحاق (ابن هشام: السيرة ٣/ ١١) والواقدي: مغازي ١/ ١٠٩. وابن حزم: جوامع السيرة ١٥٩ ولم تصح في ذلك رواية. ولكن شتان ما بين صحة الأخبار حديثيًّا - وهي عزيزة - وبين نفيها.

(٥) عيون الأثر ٢/ ٧.

(٦) رواه البخاري (فتح الباري ٥/ ٢٧٦) وصحيح مسلم ٢/ ١٤٢.

هـؤلاء الصبيان وهـم مقبلون على الموت بشـجاعة ورغبة يبعث على الدهشـة حقًّـا، وقد تنافسـوا في ذلك متطلعين إلى نيل الشـهادة في سـبيل الله، دون أن يجبرهـم قانـون للتجنيـد، أو تدفع بهم قيادة غاشـمة إلى ميـدان القتال، ولكن أليست هذه سمات التربية المحمدية ومزايا الروح الإسلامية؟

وقد تقدم الجيش الإسلامي إلى ميدان أحد، واتخذ مواقعه بموجب خطة محكمـة، حيث نظم الرسـول ﷺ صفوف جيشـه، جاعلاً ظهورهـم إلى جبل أحـد، ووجوههم تسـتقبل المدينة، وجعل خمسـين مـن الرماة بقيـادة عبدالله ابـن جبير فوق جبل عَيْنَيَن المقابل لأحد لحماية المسـلمين مـن التفاف خيالة المشـركين عليهم، وشـدد عليهم بلـزوم أماكنهم، وقـال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم»[(١)]. وبذلك سـيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي تقدم وهو يواجه أحد وظهره إلى المدينة.

وتشـير روايات ضعيفة - حديثيًّا - إلى وقوع مبارزة قبل التحام الجيشين بيـن علي بـن أبي طالـب وطلحة بن عثمـان حامل لـواء المشـركين، وأن عليًّا قتلـه[(٢)]، وإلـى محاولة أبـي عامر الفاسـق (الراهـب) - الذي كان مـن زعماء الأوس وترك المدينة، فالتحق بالمشركين - إقناع الأوس بالالتحاق به، لكنهم ردوه ردًّا شديدًا[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/ ١٦٢).

(٢) الطبري بإسناد صحيح لكنه من مراسيل السدي (تفسير ٧/ ٢٨١).

(٣) سـيرة ابن هشـام ٣/ ١٣ ومغازي الواقدي ١/ ٢٢٣ وهو من رواية عاصم بن عمر بن قتادة، ولم يسنده.

وقد اشتد القتال بين الجيشين، وتراجع المشركون إلى معسكرهم، فقد أبدى المسلمون بطولة فائقة، فهذا رسول الله ﷺ يأخذ سيفًا، فيقول: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا. أنا. قال: من يأخذه بحقه؟ قال: فأحجم القوم. فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين[١]. وقاتل حمزة بن عبدالمطلب قتال الأبطال. فلما طلب سباع بن عبدالعزى المبارزة تصدى له فقتله، وكان وحشي مولى جبير بن مطعم قد وعده مولاه أن يعتقه إن قتل حمزة - وكان حمزة قد قتل عمه طعيمة بن عدي ببدر - فكمن له وحشي تحت صخرة فلما دنا منه رماه بحربته فقتله غيلة[٢]، وهل لمثل وحشي أن ينازل حمزة منازلة الأبطال أو يواجهه كما يفعل الرجال!!

واستشهد آخرون في هذه المرحلة الأولى من القتال منهم حامل الراية داعية الإسلام مصعب بن عمير. قال خباب: «هاجرنا مع النبي ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى - أو ذهب - لم يأكل من أجره شيئا، كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، فلم يترك إلا نمرة (أي كساء)، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطى بها رجلاه خرج رأسه. فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه، واجعلوا الإذخر أو قال ألقوا على رجليه من الإذخر»[٣]. ولما استشهد مصعب بن عمير أخذ علي بن أبي طالب اللواء[٤]. وقد أشارت الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم

(١) صحيح مسلم ٢/ ٣٨٤.

(٢) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٦٧) من حديث وحشي نفسه.

(٣) من رواية البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٧٥) والإذخر: نبات معروف زكي الريح، وإذا جف ابيض (المصباح / ١/ ٢٤٥).

(٤) تاريخ خليفة ٦٧ من مرسل سعيد بن المسيب و مراسيله قوية.

بِإِذْنِهِۦ﴾[١] إلى قتل المسلمين للمشركين بإذن الله في هذه المرحلة من القتال.

فلما رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبدالله بن جبير: «الغنيمة الغنمية، ظهر أصحابكم فما تنتظرون. فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»[٢]. ثم انطلقوا يجمعون الغنائم.

وتبين رواية مرسلة للسدي ما حدث بعد نزول الرماة، فقد رأى خالد بن الوليد - وكان على خيالة المشركين - الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد[٣]. وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون دون تخطيط، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان - والد حذيفة بن اليمان - وهو شيخ كبير، وابنه يصيح فيهم: أبي. فأجهزوا عليه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين[٤]!!

ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما دام لا تحكمه خطة منظمة، فأخذوا يتساقطون شهداء في الميدان، وقد فقد المسلمون اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قد قتل[٥].

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٢، والحس: القتل.

(٢) من رواية البخاري (فتح الباري ٦/ ١٦٢).

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٢٣.

(٤) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي. ومسند أحمد ٤/ ٢٦٠٩ ط. شاكر.

(٥) فتح الباري ٧/ ٣٦١ من رواية البخاري.

وأسقط في يد المسلمين، ففر كثيرون منهم من ميدان القتال، وانتحى بعضهم جانبًا فجلس دون قتال[١]، في حين آثر آخرون الموت على الحياة بعد فقد رسول الله ﷺ منهم أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدرًا، ويقول: «والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع». فلما رأى في أحد بعض المسلمين جلوسًا محتارين صاح: «واهًا لريح الجنة، أجد دون أحد» فقاتل حتى قتل، ووجد في جسده بضع وثمانون أثرًا من بين ضربة ورمية وطعنة، حتى ما عرفته أخته الربيع بنت النضر إلا ببنانه، ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٢].

وقد أرسل الرسول ﷺ زيد بن ثابت بعد المعركة يتفقد أنس بن النضر، فوجده بين القتلى وبه رمق، فما كان منه - بعد أن رد على سلام الرسول ﷺ إلا أن قال: «أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف. وفاضت عينه[٣]. فما أروعها من وصية، وما أقواه من التزام لا يؤثر فيه الموت وآلام الجراحات!!.

وقد حكى القرآن خبر فرارهم والعفو عنهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٤]. ويبدو أنهم ترخصوا في الفرار لسماعهم

---

(١) انظر عن قعود البعض سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣ وتفسير الطبري ٧/ ٢٥٦.

(٢) ابن المبارك: كتاب الجهاد ٦٣ والبخاري (فتح الباري ٦/ ٢١، ٧/ ٢٧٤، ٨/ ٥١٧). وانظر عن سبب النزول أيضا وأنه في مصعب (الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

(٣) من رواية ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات (مجمع البحرين ٢/ ٢٣٩ وشرح المواهب ٢/ ٤٤).

(٤) سورة آل عمران: آية ١٥٥.

بخبر قتل الرسول ﷺ[١]، وكان أول من عرف بأن الرسول ﷺ حي هو كعب ابن مالك، فنادى في المسلمين يبشرهم، فأمره الرسول بالسكوت، لئلا يفطن له المشركون[٢].

وقد صمدت فئة قليلة كانت حول الرسول ﷺ الذي ثبت في الميدان، ولم تزعزعه الأحداث، كما هو شأنه عليه الصلاة والسلام في سائر المواقف الصعبة، فكان يدعو أصحابه كما حكى القرآن الكريم ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[٣]. وخلص بعض المشركين إلى الرسول ﷺ نفسه، وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فقال: «من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟ فقاتلوا عنه واحدًا واحدًا حتى استشهد الأنصار السبعة[٤]. ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله قتالاً مشهورًا، حتى شلت يده بسهم أصابها[٥]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ وهو يناوله السهام، ويقول: «إرم فداك أبي وأمي»[٦]، وكان سعد من مشاهير الرماة. ودافع أبو طلحة الأنصاري عن رسول الله ﷺ وكان راميا، فكان النبي يشرف على القتال، فيقول له أبو طلحة: «لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك»، وكان إذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول

---

(١) ابن الجوزي: زاد المسير ١/ ٤٨٣.

(٢) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال: صحيح.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٣، وتصعدون أي تهربون في بطون الأودية والشعاب. (تفسير الطبري ٧/ ٣٠١ - ٣٠٢).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٤٦.

(٥)من رواية البخاري (الفتح ٧/ ٣٥٩).

(٦)من رواية البخاري (الفتح ٧/ ٣٥٨).

الرسـول: «انثرها لأبي طلحة»[١]. وقد عبر الرسـول عن إعجابـه بقتاله، فقال: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة»[٢].

وبرغم استبسـال الصحابة في الدفاع عن الرسول ﷺ فقد أصيب إصابات كثيـرة فكسـرت رباعيته وشـج في وجهه فجعل الدم يسـيل علـى وجهه، وجعل يمسـح الدم وهـو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجـه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الإسـلام»، فأنـزل الله ﷻ فـي ذلـك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[٣]. لقد اسـتبعد الرسول ﷺ أن يوفق الله من آذوه بهذه الصورة، فأخبره الله سبحانه بأن ذلك ليس ببعيد، إن أراد الله هدايتهم، فقال عليه الصلاة والسلام لما طمع بإسلامهم: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٤].

وقـد ورد أن أبا دجانة كان يحمي الرسـول ﷺ بظهره حتى كثر النبل فيه، وأن قتـادة بـن النعمان أبلى بين يدي رسـول اللـه ﷺ، وأن عينه أصيبت فردها الرسول ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه[٥].

وقـال رجل للنبي ﷺ: أرأيت إن قُتِلْتُ فأين أنـا؟ قال «في الجنة»، فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قتل[٦].

---

(١) من رواية البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٦١).

(٢) رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٢/ ٥٨٩) بإسناد رجاله ثقات.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٤٩ وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٩ والبخاري معلقا. (فتح الباري ٧/ ٣٦٥).

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٤٩.

(٥) ابن إسحاق من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة، ولم تثبت من طريق صحيحة، ولكن اشتهرت في كتب السـيرة دون إسـناد أو بمراسـيل (سيرة ابن هشـام ٣/ ٨٢ ط السقا ومغازي الواقدي ١/ ٢٤٢ والبداية والنهاية ٤/ ٢٣).

(٦) صحيـح البخـاري (الفتح ٧/ ٣٥٤) وصحيح مسـلم ٢/ ١٥٤، وهذا الرجل المبهم آخر غير عمير بن الحمام الذي استشهد ببدر.

وكان عبدالله بن جحش قد دعا ربه، فقال: (إني أقسم أن نلقي العدو، فإذا لقينا العدو أن يقتلوني، ثم يبقروا بطني، ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني: فيم هذا؟ فأقول: فيك. فلقي العدو فَفُعِلَ ذلك به)[١].

وقد أبى عمرو بن الجموح - وكان أعرج شديد العرج مما يسقط عنه الجهاد - إلا أن يشهد المعركة مع أبنائه الأربعة طلبًا لشهادة، فقال للرسول ﷺ: «أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة؟ قال: نعم قال: فو الذي بعثك بالحق لأطأن بها الجنة اليوم إن شاء الله، ثم قاتل حتى قتل[٢].

واستشهد حنظلة بن أبي عامر الغسيل وهو جنب، وكان عروسًا ليلة أحد، فسمع النداء بالخروج، فعجل بالخروج ولم يغتسل، فقال الرسول ﷺ: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة»[٣]!!

وقتل في أحد مخيريق، الذي كان من علماء يهود بني النضير، وكان قد أوصى بأمواله - إن قتل - للرسول ﷺ فقبلها[٤].

---

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ١٩٩ من مرسل سعيد بن المسيب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه. وقال الذهبي (مرسل صحيح) قلت: لأن مراسيل سعيد ابن المسيب قوية.

(٢) ابن المبارك: كتاب الجهاد ٦٩ من مرسل عكرمة وابن إسحاق عن أبيه عن أشياخ من بني سلمة (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٤) وتقويان ببعضهما لتعدد المخارج.

(٣) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠٤ وقال: صحيح على شرط مسلم. وسكت عنه الذهبي، وقال الألباني: الحديث حسن فقط لأن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات، وله شاهد عند ابن عساكر، قال عنه: هذا حديث حسن صحيح (الأحاديث الصحيحة ٤/ ٣٦ رقم ٣٢٦).

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٤٨، ١٥٢، ولم يصح في إسلامه حديث، ولكن نص على ذلك ابن إسحاق والواقدي دون إسناد، ويؤيده أن ابن حجر ترجم له في الصحابة (الإصابة ٦/ ٥٧ وانظر عن أموال مخيريق هذه طبقات ابن سعد ١/ ٥٠١ - ٥٠٣ وتركة النبي ٧٨).

وقد أبى شيخان كبيران تركهما الرسول ﷺ في الحصون مع النساء والأطفال عند خروجه إلا اللحاق به والاشتراك في القتال طلبا للشهادة، وهما اليمان والد حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش، فاستشهدا في الميدان. فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فقتله المسلمون خطأ، ووداه الرسول ﷺ، فتصدق ابنه حذيفة بديته، مما زاده عند الرسول خيرًا(١).

وسارع عمرو بن أقيش إلى أحد، وكان للإسلام كارها، فلما رآه المسلمون منعوه، فقال: «إني قد آمنت» فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ فقال لأخته: «سليه: حمية لقومك أو غضبًا لهم أو غضبًا لله؟ فقال: بل غضبًا لله ولرسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلَّى لله صلاة»(٢)!!

وقد ثبت أن رجلاً(٣) أخبر الناس الرسول ﷺ عن حسن بلائه. فقال: إنه من أهل النار، ثم أخبرهم الرجل بأنه إنما قاتل عصبية لقومه وليس لله. وقد انتحر بسهمه لما آلمته الجراح!!

وفي هذين الخبرين آية وبيان لمكان النية في الجهاد، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ومن قاتل لغير ذلك من الأهداف مهما سمت في نظر الناس فليس بشهيد(٤).

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد، منهن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية التي اضطرت للقتال دفاعًا عن رسول الله ﷺ حتى جرحت

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٠ والحاكم: المستدرك ٣/ ٢٠٢ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ١٩ ومستدرك الحاكم ٣/ ٢٨

(٣) سماه ابن إسحاق «قزمان» ووافقه الواقدي (سيرة ابن هشام ٣/ ٤ ومغازي الواقدي ١/ ٢٦٣).

(٤) الهيثمي: المقصد العلي ١ / ق ٨٠ من رواية أبي يعلى، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

جراحًا كثيرةً[١]. وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقي العطشى، وتداوي الجرحى[٢]. وثبت أن أم سليط كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين[٣].

وصح أن عائشة رضي الله عنها وأم سليم قامتا بسقي الجرحى بعد تراجع المسلمين[٤].وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم، إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرض لهن الأعداء. مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم، إلا إذا داهم العدو ديار الإسلام فيجب قتاله من الجميع رجالاً ونساءً.

وبرغم ما أصاب المسلمين من جراح، وما لحق بالرسول ﷺ من أذى، فقد استمر القتال بين الطرفين وأجهد الجانبين.

وقد بدأ الرسول ﷺ بالانسحاب نحو شعاب أحد، وقد لحق به المسلمون، حتى صعد في أحد شعابه، وتمكن المسلمون من صد المشركين عنه، وقد ثبت أن الله تعالى أرسل جبريل وميكائيل من الملائكة ليقاتلا دفاعًا عنه، لأن الله تعالى تكفل بعصمته من الناس[٥]. ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال. وإن وعدهم الله تعالى أن يمدهم، لأنه جعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣/ ٣٢ بإسناد منقطع. ومغازي الواقدي ١/ ٢٦٨ وهو ضعيف جدًا.
(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٢٩٢ وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن.
(٣) فتح الباري ٧/ ٣٦٦.
(٤) فتح الباري ٦/ ٧٨ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٨٩.
(٥) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٥٨ و ١٠/ ٢٨٢) وصحيح مسلم (٢/ ٣٢١).

هـذه الأمور فلم يحصل الإمداد[١]. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٢].

وكان المسلمون مغتمين لما أصاب الرسول ﷺ ولما أصابهم، فأنزل الله تعالى عليهم النعاس، فناموا يسيرًا، ثم أفاقوا وقد زال عنهم الخوف وامتلأت نفوسهم طمأنينة، قال أبو طلحة الأنصاري: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه ويسقط فآخذه»[٣]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾. وهـذه الطائفة التي أهمتها نفسها دون أن تفكر بمصاب المسلمين ومصير الإسلام هي المنافقون الذين قال قائلهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[٤].

ولا شك أن النعاس أعاد للمسلمين بعض طاقتهم، ونشطهم للدفاع عن أنفسهم خلال الانسحاب، وقد تبعهم بعض المشركين منهم أبي بن خلف الجمحي وقد حلف أن يقتل رسول الله ﷺ، فرماه الرسول بحربة فجرحه، فرجع إلى أصحابه ومات في طريق عودتهم من أحد[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٦٥).

(٤) تفسير الطبري ٧/ ٣٢٣ وتفسير ابن كثير ١/ ٤١٨.

(٥) الطبري: تفسير ٧/ ٢٥٤ وتاريخ ٤/ ٢٣ من مرسل السدي. وابن سعد: الطبقات ٢/ ٤٦ من مرسل سعيد بن المسيب ومراسيله قوية، ووصله الواحدي في أسباب النزول ص ٥٦. والخبر تواردته كتب السيرة. (سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥ - ٣٦ ومغازي الواقدي ١/ ٢٥٢.

وقد يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفوا عن مطاردة المسلمين في شعاب أحد، ولكن أبا سفيان تقدم من المسلمين وخاطبهم، فقال: «أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا.

فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك.

قال أبو سفيان: أعل هبل. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوا. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني»، وفي رواية أخرى قال عمر: «لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[1]. وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولا تصغيرا له، حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر، وردوا عليه بشجاعة.

ويقرر ابن إسحاق والواقدي أن أبا سفيان واعدهم لحرب أخرى بعد عام، وأنهم وافقوا على الموعد[2].

وذكر ابن إسحاق والسدي أن الرسول ﷺ أرسل عليًّا ليعرف وجهة قريش، وهل تنوي غزو المدينة أم العودة إلى مكة[3]، كما ذكر الواقدي أنه أرسل سعد بن أبي وقاص لهذا الاستطلاع[4]، والقول الأول أقوى. وعلى أي حال، فقد امتطت

---

(١) رواية البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٤٩). وأحمد: المسند ٤/ ٢١١، ٦/ ١٨١ بإسناد حسن.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩ ومغازي الواقدي ١/ ٢٩٧.
(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩ وتفسير الطبري ٧/ ٣١٩.
(٤) الواقدي: مغازي ١/ ٢٩٨.

قريش إبلها، ورضيت بما أحرزت من انتقام دون أن تتطلع إلى نصر حاسم بتعقب المسلمين في شعاب أحد، والقضاء عليهم قضاء مبرمًا أو بغزو المدينة.

وما إن غادرت قريش المكان حتى أمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيدًا[١]، ولم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد قتل منها اثنان وعشرون رجلاً سماهم ابن إسحاق[٢]. وأسر منهم أبو عزة الشاعر فقتل صبرًا، لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده، عندما منَّ عليه ببدر وأطلقه، فعاد فقاتل بأحد[٣].

وقد صح أن الرسول ﷺ جمع بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أكثرهم حفظًا للقرآن، وأمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)[٤].

وقد وردت روايات تفيد الصلاة على شهداء أحد، لكنها لا تقوى على معارضة أحاديث نفي الصلاة عليهم، فكلها متكلم فيها[٥]. وقد دفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد[٦]، وحمل بعض الشهداء أهلوهم ليدفنوهم في المدينة، فأمرهم الرسول ﷺ بدفنهم في أماكن استشهادهم بأحد[٧].

---

(١) ذكر منهم ابن إسحاق خمسة وستين بأسمائهم وأورد ابن هشام خمسة آخرين.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٠٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ١٠٤.

(٤) البخاري (فتح الباري ٣/ ٢٠٩، ٧/ ٣٧٤) وانظر رواية أبي داود من طريق صحابي آخر بإسناد رجاله ثقات (سنن ٢/ ١٧٤).

(٥) ابن إسحاق: سيرة ابن هشام ٣/ ٥٣ ومسند أحمد ٦/ ١٩١ وأبو داود: السنن ٣/ ١٩٦ والمراسيل ٤٦.

(٦) الترمذي: سنن (تحفة الأحوذي ٥/ ٣٧١ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وسيرة ابن هشام ٣/ ٥٤ - ٥٥.

(٧) أبو داود: سنن ٣/ ٢٠٢ والترمذي (تحفة الأحوذي ٥/ ٢٧٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ومسند أحمد بإسناد صحيح (الفتح الرباني ٨/ ١٤٩).

ولما انتهى من دفن الشهداء صف أصحابه وأثنى على ربه(١)، فقال: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة (أي الفاقة)، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق»(٢) ثم ركب فرسه ورجع المدينة.

وقد ظلت ذكرى شهداء أحد عميقة في نفسه عليه الصلاة والسلام، فقد تمنى أن يكون استشهد معهم، فكان إذا ذكروا يقول: «أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي نحص الجبل - أي سفحه -»(٣).

وكانت صور المقاتلين الشجعان تمر بمخيلته فيثني عليهم، ولما أعطى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيفه لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قائلا: «هاكِ السيف، فإنها قد شفتني» قال رسول

---

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٣.

(٢) أحمد: المسند ٣/ ٣٢٤ ط. المكتب الإسلامي. والحاكم: المستدرك ٣/ ٢٣ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) مسند أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٥٨) بإسناد حسن.

الله ﷺ: «لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاد سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأقلح والحارث بن الصمة»(٤).

وفي المدينة خرجت نسوة وأطفال يتطلعون في وجوه الجيش، ينشدون آباءهم وأزواجهم، وقد استعلت فيهم معاني الإيمان واحتمال المصاب، فلما أخبرت حمنة بنت جحش باستشهاد أخيها عبدالله بن جحش وخالها حمزة ابن عبدالمطلب استرجعت واستغفرت، ثم أخبرت باستشهاد زوجها مصعب فصاحت وولولت، فقال الرسول ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان. لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها(٥).

ومر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل - تعني صغيرة(٦)!!

وقد بشر رسول الله ﷺ المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقال لابنة عبدالله بن عمرو والد جابر: لِمَ تبكين؟! فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع(٧).

وقد سمع رسول الله لأهل المدينة نحيبًا وبكاءً على قتلاهم، فقال: لكن حمزة لا بواكي له. فبكته نسوة الأنصار، فقال لهن رسول الله ﷺ خيرا،

---

(٤) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وأقره الذهبي والهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٢٣ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٥) ابن إسحاق بإسناد عن أبيه عن أشياخ مجهولين من بني سلمة. وابن ماجة: سنن ١/ ٥٠٧ وفي إسناده عبد الله بن عمر العمري وقد ضُعِّف.

(٦) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٣/ ٥٧) بإسناد فيه عبد الواحد بن أبي عون المدني صدوق يخطئ.

(٧) صحيح مسلم ٣/ ٣٨٥.

ونهاهن عن النياحة أشد ما يكون النهي(١). وبذلك حرمت النياحة على الميت إلى الأبد، ولم يؤذن إلا بدمع العيون.

وقد نزل في شهداء أحد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٢)، وقال الجمهور: إن الشهداء أحياء حياة محققة، وإن أرواحهم في أجواف طير خضر، وإنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون(٣). وكذلك نزلت آيات القرآن الكريم تمسح جراحات المسلمين، وتزيل عنهم آثار أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٤).

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾(٥).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٦).

وكان المسلمون يواجهون في المدينة اليهود الشامتين والمنافقين المرجفين، ويواجهون في أطراف المدينة الأعراب المشركين الذين كانوا يتطلعون بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها. وكان ثمة احتمال أن تندم قريش

---

(١) مسند أحمد ٧/ ٩٨ وقال ابن كثير: على شرط مسلم. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. ومستدرك الحاكم ١/ ٣٨١ وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وطبقات ابن سعد ٣/ ١٦.

(٢) أحمد: المسند ٤/ ١٢٣ وأبو داود: السنن ٣/ ١٥ والحاكم: المستدرك ٣/ ٨٨ وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. والآية من سورة آل عمران ١٦٩.

(٣) الشوكاني: فتح القدير ١/ ٣٩٩.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

(٥) سورة آل عمران: آية ١٤٠.

(٦) سورة آل عمران: آية ١٤٢.

فتعود لمهاجمة المدينة، فكان لابد من التحرك السريع لاستعادة موقع المسلمين والاحتفاظ بمكانتهم، ومن هنا أمر الرسول ﷺ الجيش الذي شهد «أحدا» أن يخرج لمطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد[١] برغم إصابة الكثيرين منهم بالجراح، ولم يأذن لسواهم بالاشتراك في حملة المطاردة هذه[٢]، وقد سارع سبعون من الصحابة للاشتراك، ثم بقية الجيش فصار عددهم ست مئة وثلاثين.

وقد أثنى القرآن الكريم على مبادرتهم بالخروج. قالت عائشة رضي الله عنها لعروة ابن الزبير في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت: أبوك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: من يذهب في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلا»[٣].

ويذكر ابن إسحاق دون إسناد أن النبي ﷺ أقام بحمراء الأسد ثلاثة أيام هي الاثنين والثلاثاء والأربعاء وأن معبدًا الخزاعي مر به ثم لقي أبا سفيان والمشركين بالروحاء، وقد اعتزموا العودة لاستئصال المسلمين، فخذلهم وأخبرهم بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد، ونصحهم بالعودة إلى مكة[٤].

ولا شك أن حملة حمراء الأسد حققت الأهداف المرسومة بإظهار قدرة المسلمين على التصدي لخصومهم من الأعراب وقريش برغم ما أصابهم في أحد، فإنهم إذا كانوا قادرين على التحرك العسكري خارج المدينة فهم أقدر على مواجهة اليهود والمنافقين داخلها.

---

(١) تقع على بعد ٨ أميال من المدينة عل الطريق إلى مكة (سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢، ومعجم ما استعجم للبكري ٢/ ٤٦٨ ومعجم البلدان لياقوت ٢/ ٣٠١) وقال البلادي: تقع جنوب المدينة بعشرين كيلا (معجم المعالم الجغرافية ١٠٥).

(٢) سوى جابر بن عبد الله لما أخبره أن أباه خلفه عن أخواته، فلم يشهد أحدا.

(٣) من رواية البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٧٣) والآية من سورة آل عمران، ١٧٢.

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٦١.

في أعقاب أحد

وكان من نتائج غزوة أحد أن تجرأ الأعراب حول المدينة على المسلمين، وظهر ذلك في التجمعات التي قام بها بنو أسد بقيادة طليحة الأسدي وأخيه سليمة في نجد، وبنو هذيل بقيادة خالد بن سفيان الهذلي في عرفات، مستهدفين غزو المدينة، طمعًا في خيراتها، وانتصارًا لشركهم، ومظاهرةً لقريش وتقربًا إليها، وكان ذلك في شهر محرم من السنة الرابعة للهجرة(١).

وتحرك المسلمون قبل أن يستفحل الأمر، فأرسل الرسول ﷺ أبا سلمة ابن عبدالأسد بمئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى طليحة الأسدي، الذي تفرق عنه أتباعه، تاركين إبلهم وماشيتهم بيد المسلمين من هول المفاجأة(٢).

وأرسل عبدالله بن أنيس الجهني إلى خالد بن سفيان الهذلي فقتله، وهو يرتاد بماشيته في بطن عرنة(٣) - واد معروف قرب عرفات -.

وسعت هذيل للثأر لسفيان الهذلي، ولجأت إلى الغدر والخديعة، ففي صفر(٤) سنة أربع قدم وفد من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرسل جمعًا من أصحابه ليفقهوهم في الدين، فبعث عشرة من الصحابة - وقال ابن إسحاق: إنهم ستة، وقال موسى بن عقبة: إنهم سبعة، وذكرا أسماءهم - وجعل عليهم عاصم بن ثابت الأقلح أميرًا،

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٥٠ وزاد المعاد ٢/ ١٢١.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٥٠.

(٣) مسند أحمد ٣/ ٤٩٦ بإسناد حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وسنن أبي داود ١/ ٢٨٧ وقال ابن حجر: إسناده حسن (فتح الباري ٢/ ٤٣٧).

(٤) قال ابن حزم في نصف صفر (جوامع السيرة ١٧٦).

فلما وصل الوفد بين عسفان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان (من هذيل)، وهم قريب من مئتي مقاتل، فأحاطوا بهم وقد لجأ الوفد إلى مكان مرتفع، وأعطى الأعراب الأمان من القتل للوفد، لكن عاصم بن ثابت قال: «أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر» فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا وستة من أصحابه، وبقي ثلاثة فأعطاهم الأعراب الأمان من جديد فقبلوا، فلما نزلوا إليهم ربطوهم وغدروا بهم، فقاومهم عبدالله بن طارق فقتلوه، واقتادوا الاثنين إلى مكة، فباعوهما لقريش، وهما خبيب وزيد.

فأما خبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث، الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث، استحدّ بها فأعارته، وغفلت عن صبي لها فجلس على فخذه، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقامًا منهم. فقال خبيب: أتخشين أن أقتله! ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى. فكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللهم أحصهم.

ثم قال:

ما أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلوٍ مُمَزَّعِ

فقتل[1].

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٤٠ - ٤١ (ط. استانبول) ومسند أحمد ٢/ ٣١٠ - ٣١١. وسيرة ابن هشام ٣/ ١٦٥ - ١٦٧ من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة.

وأما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية وقتله بأبيه (أمية بن خلف الذي قتل ببدر)، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا[١].

ويرى الواقدي أن هذيلاً على اتفاق مع عضل والقارة في الترتيب لهذا الحادث[٢]، الذي عرف بحادثة الرجيع، نسبة إلى الماء الذي جرت عنده. وبرغم ما حدث في الرجيع فإن وفود المسلمين لدعوة الأعراب لم تنقطع، إذ لا بد من تبليغ دعوة الإسلام مهما غلت التضحيات.

فلما قدم أبو براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة على المدينة دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم ولم يَبْعُدْ، ووعد بإجارة وفد يرسله النبي ﷺ لدعوة الأعراب في نجد، فأرسل الرسول ﷺ وفدًا برئاسة المنذر ابن عمرو الخزرجي[٣] في شهر صفر من سنة أربع[٤] ومعه سبعون من القراء - وقال ابن إسحاق: إنهم أربعون فقط - فلما وصلوا بئر معونة من نجد على

(١) رواه ابن إسحاق من مرسل شيخه عاصم بن عمر بن قتادة، وقد صرح بالسماع منه، فتبقى علة الإرسال (سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٠.

(٣) ابن إسحاق من مرسل عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، وهما ثقتان (تاريخ خليفة بن خياط ٧٦ وسيرة ابن هشام ٢/ ١٧٤) وأخرجه موسى بن عقبة من مرسل عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، ورواها الطبري من حديث كعب بن مالك (تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٣٠ - ٣١).

(٤) أرخ ابن حزم حادثة بئر معونة لعشرين بقين من صفر (جوامع السيرة ١٨٠)، فيكون قد أرخ لها قبل الرجيع، لأنه ذكر أن الرجيع في نصف صفر - مع أنه سرد حادثة الرجيع قبل بئر معونة متابعا ابن إسحاق.

بعد ١٦٠ كيلاً عن المدينة[١] غدر بهم عامر بن الطفيل[٢]، فقتل رسولهم إليه حرام بن ملحان طعنه رجل بأمره في ظهره برمح فصاح: «الله أكبر! فزت ورب الكعبة»!! وأحاط بهم الأعراب من رعل وذكوان (من بني سليم)، ودافع القراء عن أنفسهم فاستشهدوا، سوى عمرو بن أمية الضمري كان قد تأخر عنهم، فعاد وأخبر الرسول ﷺ الخبر. فمكث يدعو على رعل وذكوان شهرًا في صلاة الغداة، وذلك بدء تشريع القنوت. وكان القراء السبعون هؤلاء من خيار المسلمين، يحتطبون بالنهار، ويتصدقون به على أهل الصفة، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن[٣].

وهكذا فقد المسلمون في شهر صفر من سنة أربع ثمانين من خيرة الدعاة، فلم يكن تبليغ الدعوة الإسلامية سهلاً مأمونًا في بوادي الأعراب، بل كان محفوفًا بالأخطار والموت، ولكن لم يحل شيء دون الدعاة وتبليغ دعوة الله.

وكان لابد من تأديب الأعراب الغادرين، فقاد الرسول ﷺ جيشًا إلى بني لحيان - الذين قتلوا القراء في الرجيع - في جمادي الأولى من سنة أربع، فعلموا به، وتفرقوا في الجبال، وهذه رواية المدائني[٤]. وأما ابن إسحاق فذكر أنها كانت سنة ست[٥]. ولعلهما يشيران إلى حادثتين مختلفتين.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٥/ ١٥٩ لكنه قدر المسافة بأربع مراحل، والمرحلة أربعون كيلا (كيلو مترا).

(٢) هو ابن أخي أبي البراء عامر بن مالك (فتح الباري ٧/ ٣٨٧).

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤١ - ٤٤ وهي عدة أحاديث عن أنس بن مالك. وفتح الباري ٧/ ٣٨٦ - ٣٨٨.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ٧٧ من رواية علي بن محمد المدائني.

(٥) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢١. والبداية والنهاية ٤/ ٨١

غزوة بدر الموعد:

وفي ذي القعدة من سنة أربع خرج الرسول ﷺ بألف وخمس مئة من أصحابه إلى بدر، ومعه عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وذلك في انتظار قدوم قريش حسب الموعد المحدد منذ وقعة أحد مع أبي سفيان زعيم قريش. وانتظر المسلمون ثمانية أيام ببدر دون أن تقدم قريش، وكان أبو سفيان قد خرج بألفين ومعهم خمسون فرسًا، فلما وصلوا مر الظهران على أربعين كيلاً من مكة عادوا بحجة أن العام عام جدب، وكان لإخلافهم الموعد أثر في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم(١).

وقد واصل المسلمون إرسال سراياهم إلى الأنحاء المختلفة من نجد والحجاز لتأديب الأعراب، فقاد أبو عبيدة بن الجراح سرية إلى طيء وأسد بنجد، فتفرقوا في الجبال دون أن يقع قتال(٢).

وقاد الرسول ﷺ جيشًا من ألف مقاتل في شهر ربيع الأول من سنة خمس باتجاه دومة الجندل، وقد بلغه وجود تجمع للمشركين بها، ولكن الجمع تفرق عندما علموا بقدوم المسلمين، الذين أقاموا أيامًا في المنطقة، بثوا خلالها السرايا، فلم يلقوا مقاومة، ورجعوا إلى المدينة بعد أن وادع في العودة عيينة بن حصن الفزاري(٣).

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٥٩ وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ١٢٠ وابن كثير البداية والنهاية ٤/ ٨٧.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ٧٧ - ٧٨ من رواية المدائني دون إسناد، وذلك في حوادث سنة خمس.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٣ ويقرر ابن إسحاق عدم وصوله ﷺ إلى الدومة. وابن القيم: زاد المعاد: ٢/ ١٢٥.

من تاريخ التشريع:

وفي سنة أربع من الهجرة حرمت الخمر في قول البلاذري[١].

وفي ذي القعدة من سنة أربع للهجرة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية، وفي حادثة زواجها نزل فرض الحجاب، وقد لخص الحافظ ابن حجر الأقوال في تاريخ نزول الحجاب بقوله: «كان في قول أبي عبيدة وطائفة في ذي القعدة من سنة ثلاث، وعند آخرين فيها سنة أربع، وصححه الدمياطي. وقيل: فيها سنة خمس»[٢].

فأما القول: إنه نزل سنة ثلاث، فلا يعقل أن يقوم المسلمون بغزو بني المصطلق بعد أسابيع من أحد - التي وقعت في النصف من شوال سنة ثلاث - ولمّا تندمل جراحاتهم بعد!!.

وأما القول: إنه نزل في الخامسة فلا يمكن، لأن ذا القعدة من السنة الخامسة يقع بعد حادثة الإفك، التي جرت في شعبان من السنة الخامسة، ومن الثابت أن تشريع الحجاب نزل قبلها، فلا يبقى إلا سنة أربع».

*****

(١) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٢.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٦٢.

obeikandi.com

غزوة بني المصطلق (المريسيع)

بنـو المصطلق بطن من قبيلـة خزاعة الأزدية اليمانية[١]، وكانوا يسـكنون قديـدًا[٢] وعسـفان[٣] على الطريق مـن المدينة إلى مكة، فقديـد تبعد عن مكة ١٢٠ كيلا، وعسـفان تبعد ٨٠ كيلاً، فيكون بينهما أربعون كيلاً. في حين تنتشر ديـار خزاعـة على الطريق مـن المدينة إلـى مكة ما بيـن مر الظهـران التي تبعد عـن مكة ٣٠ كيلاً وبين الأبواء (شـرق مسـتورة بثلاثة أكيـال)[٤] التي تبعد عن مكـة ٢٤٠ كيلاً[٥]، وبذلك يتوسـط بنو المصطلق ديـار خزاعة، وموقعهم مهم بالنسـبة للصراع بين المسـلمين وقريش، وقد عرفت خزاعة بموقفها المسـالم للمسلمين، وربما كان لصلات النسب والمصالح مع الأنصار تأثير في تحسين العلاقـات[٦]، برغـم المحالفـات القديمـة بينهـا وبيـن قريـش ذات المصالح الكبرى في الطريق التجارية على الشـام، وبرغـم سـيادة الشرك في ديار خزاعة، حيـث كانت هضبة المشـلل التي كانـت بها «مناة» في قديـد. وبرغم أن ديارها كانت أقرب إلى مكة منها إلى المدينة.

---

(١) القلقشـندي: قلائـد الجمـان ٩٣ وانظر التقاء نسـبهم مع الأنصـار (الأوس والخزرج) في عمـرو بـن عامر وهو الجـد الثاني للأوس والخـزرج والرابع للمصطلـق (تاريخ خليفة بن خياط ص ٧٦، ١٠٧).

(٢) الحربي: كتاب المناسك ٤٥٨ – ٤٦٠.

(٣) الحربي: كتاب المناسك ٤٦٣.

(٤) عبد الله آل بسام: تيسير العلام شرح عمدة الأحكام ١/ ٥٨٤.

(٥) إبراهيم القريبي: مرويات غزوة بني المصطلق ٥٤ – ٥٨.

(٦) راجـع موقـف معبد الخزاعي فـي نصحه لقريش بعدم العودة لمهاجمـة المدينة بعد غزوة أحد ص ٨٦.

ولعل هذه العوامل أعاقت - في الوقت نفسه - انتشار الإسلام في خزاعة عامة وبني المصطلق خاصة الذين يستفيدون إلى جانب الموقع التجاري بوجود مناة الطاغية في ديارهم معنويًّا وماديًّا، حيث يحج إليها العرب.

وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم ضمن الأحابيش في جيش قريش في غزوة أحد[١].

وقد تجرأت بنو المصطلق على المسلمين نتيجة لغزوة أحد، كما تجرأت القبائل الأخرى المحيطة بالمدينة، ولعلها كانت تخشى انتقام المسلمين منها لدورها في غزوة أحد، وكذلك كانت ترغب في أن يبقى الطريق التجاري مفتوحاً أمام قريش، لا يهدده أحد، لما في ذلك من مصالح لها محققة، فكانت - بزعامة الحارث بن أبي ضرار - تتهيأ للأمر بجمع الرجال والسلاح وتأليب القبائل المجاورة ضد المسلمين.

وقد أرسل الرسول ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي للاطلاع على أحوالهم، فأظهر أنه جاء لعونهم، وعرف نيتهم في الهجوم على المدينة، فعاد وأخبر الرسول ﷺ بما يبيتون[٢].

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة خرج الرسول ﷺ بجيشه من المدينة نحو ديار بني المصطلق، وهذا هو

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦١ ومغازي الواقدي ١/ ٢٠٠.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣، وقد جمع الأسانيد في أول الكتاب، وفي أول هذه المجلدة، وأحال عليها في هذه الصفحة، بلفظ «قالوا»، وهي من طريق الواقدي وأبي معشر السندي وموسى ابن عقبة، دخل حديث بعضهم في حديث بعض. ومثل هذا الجمع للأسانيد معيب لاختلاط كلام الضعفاء والثقات ببعضه وصعوبة تخليصه. ومغازي الواقدي ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥. وشرح المواهب اللدنية ٢/ ٩٦.

الراجح، وهو قول موسى بن عقبة الصحيح، حكاه عن الزهري وعن عروة[١]. وتابعه أبو معشر السندي والواقدي وابن سعد[٢]، ومن المتأخرين ابن القيم والذهبي[٣]، أما ابن إسحاق فذهب إلى أنها في شعبان سنة ست، ويعارض ذلك ما في صحيحي البخاري ومسلم من اشتراك سعد بن معاذ في غزوة بني المصطلق مع استشهاده في غزوة بني قريظة عقب الخندق مباشرة، فلا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق إلا قبل الخندق[٤].

ولا توجد روايات صحيحة تبين عدد الجيش الذي خرج إلى ديار بني المصطلق أو عدته، ولكن الذهبي قال: إنهم سبع مئة مقاتل[٥] وقال الواقدي: إن معهم ثلاثين فرسًا، للمهاجرين عشرة وللأنصار عشرون[٦].

وقد وردت روايتان مهمتان عما حدث عند المريسيع، وهو ماء في ديار بني المصطلق بقديد. فالبخاري ومسلم يذكران عن عبدالله بن عمر - وهو شاهد عيان حضر الغزوة - أن النبي ﷺ «أغار على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية»[٧] ولفظ مسلم «كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فكتب:

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٤٢ و٤/ ٢١٥٦. والبيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٥٤ وفي إسناده ابن لهيعة خلط بعد احتراق كتبه سنة ١٧١ هـ. والرواية هنا ليست من طريق العبادلة عنه، وفي الإسناد أيضا محمد بن فليح صدوق يهم. ولكن قول موسى بن عقبة أخرجه الحاكم وأبو سعيد عبد الله بن محمد النيسابوري والبيهقي في الدلائل، وأما نقل البخاري عن موسى بن عقبة أنها سنة أربع فكأنه سبق قلم (انظر ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٤٣٠).

(٢) فتح الباري ٧/ ٤٣٠ ومغازي الواقدي ١/ ٤٠٤ وطبقات ابن سعد ٢/ ٦٣.

(٣) زاد المعاد ٣/ ١٢٥ والذهبي: تاريخ الإسلام ٢/ ٢٧٥.

(٤) صحيح مسلم ٨/ ١١٥ وفتح الباري ٨/ ٤٧١ - ٤٧٢.

(٥) تاريخ الإسلام (المغازي) ١/ ٢٣٠.

(٦) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٤.

(٧) صحيح البخاري ٣/ ١٢٩ واللفظ له.

إنما كان ذلك في أول الإسلام، وقد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون...»[١] ورواية مسلم صريحة في أن الغارة وقعت دون إنذار[٢] لبني المصطلق، لأنهم ممن بلغتهم دعوة الإسلام، وقد كانوا يعتبرون في حرب مع المسلمين منذ اشتراكهم مع قريش في غزوة أحد، كما كانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فبوغتوا واضطربوا ولم يتمكنوا من المقاومة طويلاً، بل إن رواية الصحيحين لا تشير إلى المقاومة، ولكن ابن إسحاق ذكر وقوع قتال على ماء المريسيع ثم انهزم بنو المصطلق وقتل بعضهم، وأخذ المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فتمت قسمة ذلك بينهم[٣].

ولم تصح رواية في عدد القتلى ومقدار السبي والأموال، سوى ما ذكره ابن إسحاق من عتق «مئة أهل بيت من بني المصطلق»[٤]، ولكن الواقدي يذكر أنه قتل عشرة من بني المصطلق وأسر سائرهم، «فما أفلت منهم إنسان»[٥]، ويذكر أيضًا أن الغنائم كانت ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة، وأن السبي كان مئتي أهل بيت[٦]. وروي أن السبي أكثر من سبع مئة[٧].

(١) صحيح مسلم ٥/ ١٣٩.

(٢) خالف الواقدي فذكر أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب أن ينادي بني المصطلق يدعوهم إلى الإسلام، ولا عبرة بقول الواقدي إذا انفرد (مغازي الواقدي ١/ ٤٠٤ - ٤٠٧).

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣ - من مراسيل ثلاثة من شيوخه الثقات، ولم يميز كلام بعضهم عن بعض، لتقوى بالتعدد، بل جمع كلامهم وألف بينه.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٤ و ٦٤٥ وسيرة ابن إسحاق ١/ ٢٤٥ بإسناد رجاله ثقات.

(٥) لعله يريد من حضر الوقعة، وإلا فإن الحارث بن ضرار قائدهم لم يؤسر.

(٦) الواقدي: المغازي ١/ ١٤٠ وابن سعد: الطبقات ٢/ ٦٤ وقوله «مئتي أهل بيت» أي كل واحدة منهم أهل بيت، ومعها أهل بيتها، فلا تعارض بين قوله والرواية التي تقول: إنهم أكثر من سبع مئة.

(٧) الزرقاني: شرح المواهب اللدنية ٣/ ٢٤٥.

وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة لهلال رمضان بعد أن غاب عنها شهرًا إلا ليلتين(١).

وعند ماء المريسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصرًا جديدًا ازدادوا غيظًا على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمون لتشفى من الغل، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، فلما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حربًا نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلقوها.

ولندع الصحابي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول يحكي خبر ذلك، قال: «كنت في غزاة(٢) فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي(٣) - أو لعمر - فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذَّبَكَ

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٤٠٤.

(٢) صرحت الروايات الأخرى بأنها غزوة بني المصطلق (انظر مسند أحمد ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣ بإسناد صحيح، وفتح الباري ٨/ ٦٤٩ من مستخرج الإسماعيلي بزيادة صحيحة، والترمذي: سنن ٥/ ٩٠ وقال: هذا حديث حسن صحيح).

(٣) يريد بعمه سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج، وليس عمه حقيقة، وأما عمر فهو ابن الخطاب (فتح الباري ٨/ ٦٤٥).

رسول الله ﷺ ومقتَكَ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[١]، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقرأ، فقال: «إن الله قد صدقك يا زيد»[٢].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبدالله الأنصاري ما حدث عند ماء المريسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: «كنا في غزاة فكسع[٣] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبدالله ابن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[٤].

وقد وردت روايات قوية[٥] أخرى تعارض هذه، ومفادها أن عبدالله بن أبي قال هذه الكلمات في غزوة تبوك، وهو وهم، والصحيح أنه لم يشهد غزوة تبوك[٦].

---

(١) سورة المنافقون: آية ١، وكان نزولها في طريق العودة من الغزوة (الترمذي: سنن حديث رقم ٣٣١٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح).

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٦٣ ط استانبول وصحيح مسلم ٨/ ١١٩.

(٣) أي ضربه برجله.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٤٦ و ٦/ ١٢٨ وصحيح مسلم ٨/ ١٩.

(٥) سنن الترمذي حديث رقم ٣٣١٤ (ط. دار إحياء التراث العربي بيروت).

(٦) ابن كثير: تفسير ٤/ ٣٦٩ وفتح الباري ٨/ ٦٤٤، ٦٥٠.

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاوي الجاهلية، وقال: «لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره»[1]. فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهلي لـ (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا).

ويلاحظ اهتمامه بسمعة المسلمين في أوساط القبائل بترك معاقبة المنافق عبدالله بن أبي لما في ذلك من مصلحة تأليف القبائل، ومنع الدعاية التي قد تنفر من الإسلام. ولم يقتصر الرسول ﷺ على معالجة الموقف بالبيان، وإنما أمر الجيش بالرحيل طيلة اليوم حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، ليشغل الناس عن الحديث في الفتنة.

وقد ضعف مركز عبدالله بن أبي ابن سلول في قومه، فكانوا يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ[2]. بل إن ابنه عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول استأذن الرسول ﷺ في قتل أبيه، فنهاه فقال: «لا» ولكن بر أباك، وأحسن صحبته»[3]، ومنع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها[4]. مع شدة بره بأبيه وهيبته له[5]، وهو من أعجب المواقف التي تدل على صفاء عقيدة

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣ من طريق ابن إسحاق عن ثلاثة من شيوخه الثقات مرسلا، ويؤيده مرسل جيد من مراسيل عروة بن الزبير (فتح الباري ٨/ ٦٤٩) وأصله في الصحيحين (البخاري ٦/ ١٢٧ ومسلم ٨/ ١١٩).

(٣) الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/ ٣١٨ من رواية البزار، وقال: رجاله ثقات، وانظر رواية الطبراني من مراسيل عروة، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٩/ ٣١٨).

(٤) الترمذي: سنن ٥/ ٩٠ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٣.

obeikandl.com

الابـن، وتخلصـه من عصبية الجاهلية برغم قرب عهده بهـا، مما يبين قوة تأثير الإسـلام في أتباعه، وإحداثه التغيير العميق في مقاييسهم وسلوكهم. وقد علل الرسول ﷺ منعه لعبدالله من قتل أبيه بالحرص على سمعة الإسلام، فقال: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه(١).

وبعد فشـل محاولة المنافقين في إثارة العصبيـة الجاهلية أعماهم الغضب، وقد واتتهم الفرصة لإيذاء الرسـول ﷺ في نفسـه وأهل بيته، وكانت عائشـة رضي الله عنها أم المؤمنيـن قـد خرجـت معه إلى غـزوة بني المصطلـق، وذلك بعدما شـرع الله الحجاب للنسـاء، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسـلمون من المدينة نزلت مـن هـودج البعير لبعض شـأنها، فلما عـادت افتقدت عقدًا لهـا، فرجعت تبحث عنه، فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير، وهم يحسـبونها فيه - إذ كانت صغيرة خفيفة - ومضى المسـلمون إلى المدينة تاركيهـا في البيداء، وقد وجدت عقدهـا وفقـدت الركـب، فمكثت في مكانهـا تنتظـر أن يعرفوا بخبرهـا ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي، وهو من خيرة الصحابة، فحملها على بعيره، وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسـول ﷺ، وقد استغل المنافقـون هذا الحادث ونسـجوا حوله، وتولى ذلك عبدالله بن أبي ابن سـلول، وأغرى بالكلام مسـطح بن أثاثة وحسـان بن ثابت وحمنـة بنت جحش، فاتهمت عائشة أم المؤمنين بالإفك.

وضاق الرسـول ﷺ ذرعًا بدعايات المنافقين، وصرح بذلك للمسلمين، وهم مجتمعـون في المسـجد، معلنًـا ثقته بزوجتـه وبالصحابي صفوان بـن المعطل، وقد أبدى سـعد بن معاذ اسـتعداده لقتل من يروج ذلك إن كان من الأوس، فأظهر سـعد ابن عبادة معارضته لسـعد بن معاذ، لأن عبدالله بن أبي من الخزرج، حتى كادت تقع الفتنة بين الأوس والخزرج، لولا أن الرسول ﷺ هدَّأهم.

(١) ابن حجر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسـانيد العشـرة حديث ١٧٢ نقلا عن البزار بسـند رجاله ثقات.

ومرضت عائشة فاستأذنت النبي في الذهاب إلى بيت أبيها فأذن، ثم علمت بخبر الإفك، فكانت «لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم»، وهي تنتظر أن يعلم الله نبيه ببراءتها برؤيا صادقة، وقد انقطع الوحي شهرًا، عانى خلاله الرسول ﷺ أشد المعاناة فقد طعنه المنافقون في عرضه وآذوه في زوجه، ولا شك أنه كان يتطلع إلى الوحي، وهو في أشد الحاجة إليه لتطمئن نفسه، ويخرس ألسن النفاق، ويذب عن زوجه الحبيبة، وأبيها الذي كان أحب الناس إليه. ثم نزل الوحي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾(١).

وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على قريبه مسطح، فحلف أن لا ينفق عليه، فنزلت الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٢)؟! فعاد أبو بكر إلى النفقة عليه(٣).

ولا شك أن المسلمين الثلاثة اشتركوا في إشاعة الإفك، ولكن الدور الكبير كان للمنافقين أتباع عبدالله بن أبي ابن سلول، وإنما ذكرت أسماء الثلاثة لأنهم مسلمون، وما كان ينبغي أن يقعوا في حبائل المنافقين، وقد عاتبهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٤)

وكان كثير من المؤمنين على يقظة كاملة وثقة كبيرة بآل بيت النبوة، فلما سمع أبو أيوب الأنصاري بإشاعات المنافقين، قال: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾(٥).

---

(١) سورة النور: الآيات ١١ - ٢٢.
(٢) سورة النور: آية ٢٢.
(٣) صحيح مسلم ٨/ ١١٢ - ١١٨ والبخاري ٩/ ٨٩ وتفسير الطبري ١٨/ ٨٩.
(٤) سورة النور: آية ١٢.
(٥) البخاري ٩/ ٩٢ وفتح الباري ١٣/ ٣٤٤. والآية من سورة النور ١٦ تشير إلى ذلك.

وقـد أمـر النبي ﷺ بإقامة حـد القذف على مسـطح وحسـان وحمنة[١]، أمـا عبدالله بن أبي ابن سـلول الـذي تولى كبر الإفك وقاد حملـة الدعاية فلم يقـم عليه الحد، ولعل ذلك لأن إقامة الحدود فيها كفارة عن الجناة، وهو ممن توعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فليس أهلا لإقامة الحد عليه، وقيل لأن هـذا المنافق كان لا يترك دليلاً ضـده، فلا يتكلم بالإفك أمام المؤمنين[٢]. وقد وردت أحاديث ضعيفة تفيد إقامة الحد عليه أيضًا[٣].

والحـق أن حادثة الإفك كادت تشـعل نار العصبيـة من جديد بين الأوس والخـزرج هذه المرة، حيث تجادل زعماؤهم بغضب في المسـجد، وكان هذا هـو مقصد المنافقين أن يهدموا وحدة المسـلمين، ويزعزعـوا ثقتهم بقيادتهم، ويشـعلوا نـار الفتنـة. بينهـم، ولكن الله سـلم، وتمكن الرسـول عليـه الصلاة والسـلام من تهدئة الجميع، والحفاظ على وحدتهـم، والخروج من الامتحان الصعب بنجاح.

وقد نالت عائشـة رضي الله عنها تعويضًـا عن محنتها وصبرها وحسـن توكلها على الله، فنزل في براءتها قرآن يتعبد به الناس على مر الدهور.

وما إن رجع الرسول ﷺ إلى المدينة حتى جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار تسـتعينه في عتق نفسـها من ثابت بن قيس بن الشـماس الذي وقعت في سـهمه، وكانت قـد كاتبته، وقد ذكرت للرسـول مكانها فـي قومها، فقضى عنهـا كتابهـا وتزوجها، فلمـا علم النـاس بذلك أطلقوا سـائر السـبي، وقالوا:

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد ٩/ ٢٣٠ من رواية البزار بإسـناد حسـن. والبيهقي: السنن ٨/ ٢٥٠ بإسناد حسن.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٢٧ – ١٢٨.

(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٢٣٧ – ٢٤٠، وفتح الباري ٨/ ٤٧٩ – ٤٨١.

أصهار رسول الله ﷺ، فأعتق مئة أهل بيت، «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها»(١) فكان عتقها صداقها.

وقد جاء الحارث بن أبي ضرار إلى المدينة، وطلب من الرسول ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فلما خيرها اختارت البقاء مع رسول الله ﷺ(٢). وقد أسلم الحارث بن أبي ضرار وقومه، وجعله الرسول ﷺ يلي صدقات قومه(٣).

وكان لزواج الرسول ﷺ من جويرية وإطلاق السبي أثر بالغ في تأليف قلوبهم، فبدأوا عهدًا جديدًا من المشاركة في الجهاد، ذودًا عن الإسلام، ومن الطاعة لله والانقياد لأحكامه، حتى إذا تأخر مصدق الرسول ﷺ مرة عن موعد دفع الزكاة قلق الحارث بن أبي ضرار وقومه، واعتزموا المضي إلى رسول الله ﷺ لمعرفة السبب، وكان الرسول ﷺ قد أرسل الوليد بن عقبة ليقبض صدقاتهم، فمضى بعض الطريق ثم خافهم فرجع، وزعم أنهم منعوه الزكاة وأرادوا قتله، فأرسل الرسول ﷺ سرية إليهم، فحلف لهم أنه ما رأى الوليد، ومضى معهم إلى الرسول ﷺ، فوضَّح موقفه، فنزلت بحقه الآية الكريمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾(٤)(٥) وهو من

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٤، ٦٤٥ بإسناد صحيح وسنن أبي داود ٢/ ٣٤٧.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ٨٠ بإسناد رجاله ثقات، لكنه من مراسيل أبي قلابة الجرمي.

(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٧٩ بإسناد فيه دينار الكوفي وهو مقبول، وحديثه يقوى بالمتابعات والشواهد، وله شواهد (انظر الطبري: تفسير ٢٦/ ٤٧٦ بإسناد حسن من مرسل قتادة).

(٤) سورة الحجرات: آية ٦.

(٥) مسند أحمد ٤/ ٢٧٩ ومجمع الزوائد ٧/ ١٠٨ من رواية أحمد والطبراني، وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، والحق أن في إسناد أحمد دينار الكوفي والد عيسى مقبول، تحتاج روايته إلى متابع لتقوى إلى الحسن، وقد وجدت له شواهد تجعله حسنًا لغيره، منها مرسل قتادة بإسناد حسن (الطبري: تفسير ٢٦/ ١٢٤)، ومرسل يزيد بن رومان (سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٦) وحديث أم سلمة وفيه موسى بن عبيدة الربذي ضعيف (تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٣)، ومرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى بإسناد رجاله ثقات (تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٣ - ١٢٤)، وقد تقوت هذه المراسيل لتعدد مخارجها إلى الحسن لغيره.

أحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية، كما قال ابن كثير[١]. وقد حدثت هذه الحادثة بعد إسلام الوليد بن عقبة في فتح مكة[٢]. مما يشير إلى توطد الإسلام في بني المصطلق وحسن إسلامهم بعد غزوة بني المصطلق بسنوات قليلة.

ومن الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار. أما من لم تبلغهم دعوة الإسلام، فتجب دعوتهم أولا قبل قتالهم.

ومنها صحة جعل العتق صداقًا، كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة، وكما فعل مع صفية بنت حيي بن أخطب في غزوة خيبر[٣] - فيما بعد.

ومنها مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، كما فعل الرسول ﷺ في هذه الغزوة، حيث أصابت القرعة عائشة فخرج بها[٤]. وقد ذكر الواقدي خروج أم سلمة أيضا في هذه الغزوة ولم يثبت[٥]. وخروج عائشة يدل على جواز خروج النساء في الغزو، وقد تقدم في غزوة أحد ذكر ذلك وبيان حدوده.

ومن الأحكام ثبوت إقامة الحد على القاذفين.

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٥/ ٦٠، ٦٢

(٢) الإصابة: ٢/ ٦١٦.

(٣) البخاري ٧/ ٧ ومسلم ٤/ ١٤٦.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧ والهيثمي: مجمع الزوائد ٩/ ٢٣٠ من رواية البزار بإسناد حسن، كما ذكر الهيثمي ووافقه السيوطي (الدر المنثور ٥/ ٢٧). وأما البخاري فقد خرج ذلك دون التصريح باسم الغزوة (البخاري ٤/ ٢٧) وانظر فتح الباري ٦/ ٧٨.

(٥) مغازي الواقدي ٢/ ٤٢٦.

ومنها جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء(١).

وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن، ورماها بما اتهمت به فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن(٢).

ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء، حيث سأل الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة»(٣). فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها(٤).

وفي حادثة الإفك توضيح دقيق لبشرية الرسول ﷺ، فقد تأثر أبلغ التأثر لرمي المنافقين زوجه. ومع حرصه عليها وحبه لها ولأبيها، فإنه لم يتمكن من الكشف عن الغيب أو استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهرًا، ليجري عليه الابتلاء والامتحان. فلو كان الوحي إلهامًا أو تألقاً عقليًا - أي انبثاقًا من فكره - فإن الحوافز الكثيرة التي أثرت في كيانه وأقلقت فكره وحفزت عاطفته كانت كفيلة بانطلاق الوحي، لإنهاء الصراع والقلق والألم في نفسه عليه الصلاة والسلام، ولكن الرسول كما حكى القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(٥)، ولا سلطان له على الوحي، ولا يقدر على استحضاره ولا الإضافة

---

(١) فتح الباري ٥/ ١٧٠ والشافعي: كتاب الأم ٤/ ١٨٦، ومجد الدين ابن تيمية: منتقى الأخبار ٧/ ٢٤٥ و٨/ ٤ (مع نيل الأوطار)

(٢) ابن كثير: تفسير ٣/ ٢٧٦ وشرح صحيح مسلم للنووي ٥/ ٦٤٣.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٩، ٥/ ٩٦، ٧/ ٢٩، ٨/ ١٠٤.

(٤) الطحاوي: معاني الآثار ٣/ ٣٠ - ٣٥ والشوكاني: نيل الأوطار ٦/ ٢٢٢ - ٢٢٤.

(٥) سورة الكهف: آية ١١٠.

إليه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1].

ولا شك أن حركات المسلمين العسكرية في أنحاء شبه الجزيرة العربية وتحديهم لقريش في بدر الموعد، واستمرارهم في الضغط على اقتصاد مكة بالسيطرة على الطرق التجارية كل ذلك كان يهيئ ظرفًا مناسبًا لتحالف المشركين مع يهود الذين أجلى المسلمون منهم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، وبقيت قريظة ظاهرها احترام الحلف بينها وبين المسلمين وباطنها الحقد والرغبة في الانتقاض والانتقام وقد تكشفت حقيقة ذلك فيما حدث في غزوة الأحزاب.

*****

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٧.

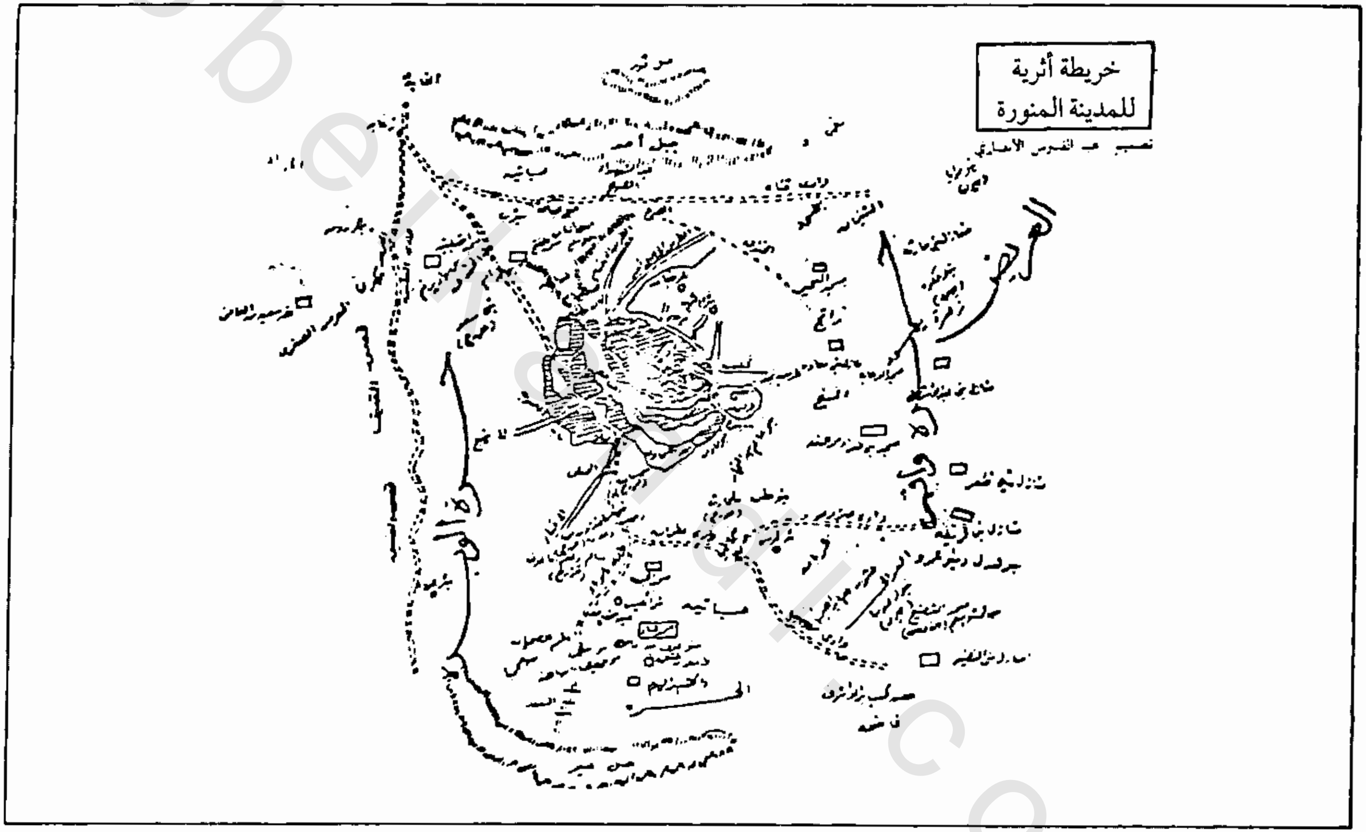

خريطة أثرية
للمدينة المنورة

تصميم عبد القدوس الأنصاري

obeikandl.com

غزوة الخندق (الأحزاب)

وقد جرت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس، وهو قول جمهور العلماء، ومنهم ابن إسحاق والواقدي ومن تابعهم[١]، ونُقِلَ عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها سنة أربع[٢]، ولا اختلاف بين القولين في الحقيقة، لأن القائلين إنها سنة أربع كانوا يعدون التاريخ من المحرم، الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، فتكون غزوة بدر عندهم في السنة الأولى، وأحد في الثانية، والخندق في الرابعة، وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة[٣]. فإذا لا اختلاف بين المؤرخين في أن الخندق في السنة الخامسة. وقد شذ ابن حزم بقوله: إنه لم يكن بين أحد والخندق سوى سنة واحدة[٤]، وبنى رأيه على ظاهر حديث عبدالله بن عمر بأن الرسول ﷺ رده يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة، وأجازه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة[٥]. ولكن البيهقي وابن القيم والذهبي وابن حجر فسَّروا ذلك بأن ابن عمر كان يوم أحد في بداية الرابعة عشرة، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة[٦]. وهو الموافق لقول جمهور علماء السيرة.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٩٣؛ ومغازي الواقدي ٢/ ٤٤٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٩٣؛ وصحيح البخاري ٥/ ٤٤، حيث نقل قول موسى بن عقبة. والفسوي: المعرفة والتاريخ ٣/ ٢٥٨

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٣٩٣. وقد وضع عمر رضي الله عنه التقويم الهجري سنة سبع عشرة للهجرة (السخاوي: الإعلان بالتوبيخ ١٤١).

(٤) جوامع السيرة ١٨٥.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٨٩.

(٦) البيهقي: دلائل النبوة ١٢٢ ب؛ وفتح الباري ٥/ ٢٧٨.

وتعد غـزوة الأحزاب للمدينة حلقة من حلقات الصراع العسكري بين المسلمين وقريش، فالحرب معلنة بين الطرفين، ولا حاجة لتلمس الأسباب الرئيسية لوقوع القتال، ولكن ثمة عوامل مباشرة في التأثير يمكن بيانها، فغزوة الأحزاب جاءت على إثر إخفاق قريش في تحرير طريق تجارتها إلى الشام في غزوة أحد، فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد، لكنهم عجزوا عن القضاء عليهم أو دخول بلدتهم، وظلت طرق التجارة القرشية مهددة، ونشطت سرايا المسلمين وغزواتهم بعد أحد، حتى محت آثار أحد في المدينة والبوادي معًا، فكانت قريش تفكر بالقيام بعمل عسكري، يحسم الموقف لصالحها بالقضاء على المسلمين في المدينة قضاء مبرمًا، ونظرًا إلى أن قوة قريش وحدها لا تكفي لإنجاز المهمة، فقد سعت قريش إلى التحالف مع الآخرين لحرب المسلمين، وجاءت الفرصة المواتية عندما أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير من المدينة، فذهب عدد من زعمائهم الموتورين إلى خيبر، ومن هناك بدأوا اتصالاتهم بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والعودة إلى أرضهم وأموالهم في المدينة، وهكذا خرج وفد منهم إلى مكة فيهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري، فدعوا قريشًا إلى حرب المسلمين، ووعدوهم أن يقاتلوا معهم، وشهدوا بأن الشرك خير من الإسلام، وقد نزلت في ذلك الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[1]، ثم خرجوا من مكة إلى نجد، حيث حالفوا قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، وهكذا تحالف الأحزاب بجهود

---

(١) سورة النساء: آية (٥١).

مـن يهود بنـي النضير[١]. ويذكر موسـى بن عقبة أن وفد اليهـود وعد غطفان بنصف ثمر خيبر لإغرائها بالمشاركة في التحالف[٢].

وكان مكان تجمع جيش قريش وحلفائها في مر الظهران التي تبعد أربعين كيـلاً عن مكة، حيـث وافاهم حلفاؤهم من بني سـليم[٣] وكنانـة وأهل تهامة. والأحابيش، ثم تحركوا نحو المدينة حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجـرف وزغابـة. أما غطفان وبنو أسـد فنزلوا بذنب نقمي إلـى جانب أحد[٤]. وقد سـمى السيوطي القبائل النجدية المشاركة - ومعظمها فروع من غطفان - وهي: غطفان وبنو سليم وبنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة[٥].

ومـا أن علـم المسـلمون بخبـر تجمـع الأحـزاب لغزوهـم، حتـى بـدأ الرسول ﷺ باستشارتهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف، وكان هذا دأبه في المواقـف كلهـا، تأليفًا لقلوب أصحابه وليقتدي به من بعده، وليسـتخرج منهم الـرأي فيمـا لم ينزل فيه وحـي من أمر الحـرب و الأمور الجزئيـة الأخرى[٦]، وتدريبـاً لهـم على التفكير بالمشـكلات التي تواجه المجتمـع والدولة، فيظهر فيهم القادة النابهون والساسة المتمرسون، وليشعروا بمسئوليتهم تجاه القضايا العامة ومشاركتهم فيها.

---

(١) سـيرة ابن هشـام ٣/ ٢١٤، بإسناد صحيح إلى عروة، لكنه من مرسل عروة، وابن كثير: تفسير ١/ ٥١٣ من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن إلى ابن عباس.

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٣.

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٩٣ من رواية موسى بن عقبة دون إسناد.

(٤) سـيرة ابن هشـام ٢/ ٢١٩، ٢٢٠ من رواية ابن إسـحاق دون إسـناد وذكر بني أسـد من رواية موسى بن عقبة (فتح الباري ٧/ ٣٩٣).

(٥) الخصائص الكبرى ١/ ٥٦٥.

(٦) ابن تيمية: السياسة الشرعية ١٣٤.

وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق[١] في المنطقة الشمالية من المدينة، ليربط بين طرفي حرة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل، وتحيطها الحرَّات، التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها[٢].

ولم يعترض أحد على خطة الدفاع عن المدينة، فقد كانت جموع الأحزاب كبيرة، وكانت دروس أحد ماثلة قريبة، والخندق يشكل حاجزًا يمنع الالتحام المباشر بين الغزاة والمسلمين، ويمنع اقتحام المدينة، ويوفر للمسلمين موقعًا دفاعيًّا جيدًا، فيكبدون الغزاة الخسائر برشقهم بالسهام من رواء الخندق.

وشرع المسلمون بحفر الخندق، وكان يمتد من أم الشيخين طرف بني حارثة شرقًا حتى المذاد غربًا[٣]، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعًا[٤]. وقد تولى المهاجرون الحفر من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب[٥].

---

(١) أقدم من أشار إلى ذلك أبو معشر السندي (ت ١٧١ هـ) دون إسناد (فتح الباري ٧/ ٣٩٣) والواقدي: مغازي ٢/ ٤٤٥، دون إسناد، وابن هشام: السيرة ٢/ ٢٢٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٦٦ - ٦٧.

(٣) لم تثبت في ذلك رواية صحيحة من الناحية الحديثية، ولكن وردت آثار ضعيفة يمكن الإفادة منها في مثل هذه الموضوعات (مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ١٣٠؛ والطبري: تفسير ٢١/ ٣٣؛ وفتح الباري ٧/ ٣٩٧)، ومدار هذه الروايات على كثير بن عبد الله بن عمرو المزني وهو ضعيف.

(٤) مصادر الحاشية السابقة نفسها.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٦٦ - ٦٧؛ وشرح ثلاثيات مسند أحمد ١/ ٩٩١ - ٢٠٠.

وقد تم الحفر بسرعة برغم الجو البارد والمجاعة، التي أصابت المدينة في ذلك الوقت[١]. فكان طعام الجيش قليلاً من الشعير يخلط بدهن سنخ (متغير الرائحة لقدمه)، ويطبخ فيأكلونه برغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة، لفرط الجوع[٢].

وأحيانًا لا يجدون سوى التمر[٣]، وقد يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا[٤].

ولكن حرارة الإيمان طغت على آثار البرد والجوع القارصين، فكان المسلمون يعملون بقوة، ويحملون التراب على أكتافهم، وفيهم من كان لا يخدم نفسه من التجار والزعماء، وقد استووا جميعًا في الحفر وحمل الأتربة، وهم في غاية الحماس يرددون الأهازيج، والرسول ﷺ يحفر معهم، وينقل التراب حتى اغبر بطنه، وواري التراب جلده، وقد شد على بطنه حجرًا لفرط الجوع[٥]، وكان الصحابة يلجأون إليه إذا عرضت لهم الصخرة الكبيرة، فيأخذ المعول ويفتت الصخرة[٦].

وكان يردد معهم الأهازيج والأرجاز، مشاركة لهم وتواضعًا، ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

(١) صحيح البخاري ٥/ ٤٥؛ وفتح الباري ٧/ ٣٩٥.
(٢) فتح الباري ٧/ ٣٩٢ - ٣٩٣ من متن صحيح البخاري.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٩٩، وقال: «رواه ابن إسحاق وفيه انقطاع».
(٤) فتح الباري ٧/ ٣٩٥ من صحيح البخاري.
(٥) صحيح البخاري ٥/ ٤٧، وصحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠، وفتح الباري ٧/ ٣٩٥.
(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٩٥).

obeikandi.com

وكان يمد صوته بآخرها[١].

وكان المسلمون يقولون وهم يحفرون وينقلون التراب:

نحن الذين بايعوا محمدا على الإسلام ما بقينا أبدا

فكان يجيبهم بقوله:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة»[٢]، وربما يبدؤهم بقوله، فيردون عليه بقولهم[٣].

وكان لمشاركته ﷺ بصورة فعلية - وليست رمزية - أثر كبير في الروح التي سادت موقع العمل، وقد تمكن المسلمون من إنجاز الخندق في ستة أيام فقط[٤]. وبذلك نفذوا متطلبات خطة الدفاع عن المدينة قبل وصول الأحزاب.

وقد حدثت معجزات عدة للنبي ﷺ في أثناء حفر الخندق، منها تكثير الطعام، فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبدالله ما أصاب الرسول ﷺ من الجوع الشديد، فطلب من زوجته أن تصنع له طعامًا، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعًا من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام، وسارَّه بكمية الطعام، فصاح النبي بالمسلمين، ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأسقط في يد جابر وأهله، لكن النبي ﷺ بارك في البرمة، فأكل منها الجميع حتى شبعوا، وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه[٥].

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٤٧، والفتح ٧/ ٣٩٩.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤٥، وفيه «الجهاد» بدل «الإسلام».

(٤) السمهودي: وفاء الوفا ٤/ ١٢٠٨ - ١٢٠٩، وينقل ذلك عن ابن سعد وابن الجوزي: الوفا بأخبار المصطفى، ص ٦٩٣، وتلقيح فهوم أهل الأثر، ص٥٩.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٤٦، وصحيح مسلم ٣/ ١٦١٠.

ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر وهو يحفر بأمر غيبي، حيث قال له: «تقتلك الفئة الباغية»، فكان أن قتل في صفين[١].

وعندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها في أثناء الحفر ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات ففتتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر! أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة[٢].

وهكذا بشرهم بما سيكون من فتوح لهذه البلدان، وهم محصورون في خندق يقرصهم البرد والجوع! فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[٣]. وأما المنافقون فقد سخروا من هذه البشارة، وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[٤]. وموقف المنافقين كان يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٣٥.

(٢) من رواية أحمد والنسائي، وقال الحافظ ابن حجر: إن إسنادها حسن إلى البراء بن عازب - أحد شهود العيان - (فتح الباري ٧/ ٣٩٧) وأورده الطبراني (المعجم الكبير ١١/ ٣٧٦) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد ونعيم العنبري (مجمع الزوائد ٦/ ١٣١)، وعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل ثقة، وأما نعيم فهو نعيم بن المورع العنبري ضعيف يسرق الحديث (الكامل ٧/ ١٥ والثقات ٩/ ٢١٨ والمجروحين ٣/ ٥٧). وانظر: مسند أحمد ٤/ ٣٠٣، وفي إسناده ميمون البصري ضعيف، ولكن قد حسّن الحافظ ابن حجر هذا الإسناد.

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٢٢).

(٤) سورة الأحزاب: الآية (١٢).

ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل[١]، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير، والآيات هي:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٧٦، وفيه نعيم العنبري ضعيف يسرق الحديث (الكامل ٧/ ١٥ والثقات ٩/ ٢١٨ والمجروحين ٣/ ٥٧). (مجمع الزوائد ٦/ ١٣١)، وتفسير الطبري ٢١/ ١٣١) من مرسل أسامة بن زيد وهو ضعيف، والبيهقي: دلائل النبوة، ص ١٢٦ ب، من مرسل محمد بن فليح وهو ضعيف. والسيوطي: الدر المنثور ٥/ ١٨٥، من طرق مدارها على كثير بن عبد الله وهو ضعيف.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١)].

والآيات تشير إلى حالة النفاق، وما تولده من القلق في النفوس والجبن في القلوب وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى، بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد، بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية، زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت، لضعف معتقدهم، وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام.

وبرغم كل تخذيل المنافقين وإرجافهم وظروف المجاعة وشدة البرد، فقد مضى المسلمون في تنفيذ مهامهم وإكمال خطة الدفاع عن المدينة، فلما أنجز الخندق، وضع الرسول ﷺ النساء والأطفال في حصن فارع[(٢)]، وهو أقوى حصون المسلمين، وهو لبني حارثة[(٣)].

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات (١٣ - ٢٠).

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٧٩.

(٣) رواه الطبراني (الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٢٣ وقال: رجاله ثقات) وفيه شيخ الطبراني وشيخ شيخه لم أقف لهما على ترجمة وفيه هرير الأنصاري مقبول، فالإسناد ضعيف، لكن المسألة تتعلق بوصف الحصن فيتساهل فيها، وقد ذكر ابن إسحاق (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٥٧٠ - ٥٧١).

وقد رتب النبي ﷺ جيشه، فأسند ظهرهم إلى جبل سلع داخل المدينة[١]، ووجوههم إلى الخندق، الذي يفصل بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بين الجرف والغابة ونقمى[٢].

وكان تفوق المشركين العددي كبيرًا فقد بلغوا عشرة آلاف مقاتل[٣]، وذكر ابن سعد أن قريشاً وأحابيشها ومن قدم معها من العرب كانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاث مئة فرس وألف وخمس مئة بعير، ثم التحق بهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبع مئة[٤].

وأضاف ابن الجوزي أن فزارة كانوا ألف رجل، وأشجع كانوا أربع مئة رجل وبنو مرة كانوا أربع مئة[٥]. وبذلك يكون جملة العدد ستة آلاف وخمس مئة مقاتل، وتكون بقية العشرة آلاف مقاتل من بني أسد وبقية غطفان.

وأما جيش المسلمين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم ثلاثة آلاف مقاتل[٦]. وتابعه جمهور علماء السيرة. وجزم ابن حزم أنهم سبع مئة فقط[٧]، وقد بنى ذلك على أساس أن المسلمين كانوا سبع مئة بأحد وبينها وبين الخندق في رأيه سنة واحدة فمن أين صار للمسلمين ثلاثة آلاف مقاتل!!.

---

(١) السفاريني: شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ١/ ١٩٩ - ٢٠٠ وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠ والفيروز آبادي: المغانم المطابة ١٣٤. ولا يتعارض مع قول ابن إسحاق «زغابة» بدل «الغابة» فإن الغابة شمال زغابة وقريبة منها (سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٥).

(٢) الطبري: تفسير ٢١/ ١٢٩ - ١٣٠ من مرسل عروة وغيره.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٥ دون إسناد، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٩ - ١٣٠ من مرسل عروة وغيره، وفتح الباري ٧/ ٣٩٣ من طريق ابن إسحاق بأسانيده.

(٤) الطبقات الكبرى ٢/ ٦٦.

(٥) الوفا بأخبار المصطفى ٦٩٢.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠ دون إسناد.

(٧) جوامع السيرة ١٨٧.

ورأي ابن حزم الذي جزم بصحته لا يصح، فالذين شهدوا الوليمة وحدهم في بيت جابر بن عبدالله كانوا ألفًا، كما في الحديث الصحيح. والذين كانوا يقومون بالدوريات لحراسة المدينة كانوا خمس مئة[1]، فكيف يكون سائر الجيش تسع مئة!!. وما بين أحد والخندق سنتان، وقد كبر من الصبيان عدد ممن لم يشهدوا أحدًا لصغر سنهم، وقام المسلمون بنشاط كبير في الدعوة إلى الإسلام برغم الأخطار، وكانت الهجرة إلى المدينة تعقب دخول الإسلام، فلا غرابة إذا ما زاد عدد جيش المسلمين.

ولما رأى الرسول ﷺ كثرة الأحزاب، رأى أن يخفف الضغط على المدينة، وأن يصالح غطفان بأن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لعام، لكنه لما شاور سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج قالا: «لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام». وفي رواية الطبراني أنهما قالا: يا رسول الله أوحيٌ من السماء؟ فالتسليم لأمر الله أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فو الله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى. فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب. وكان يمثلهم الحارث الغطفاني قائد بني مرة[2].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٦٧.

(٢) كشف الأستار ١/ ٣٣٢ وقد رواه البزار بإسناد حسن من حديث أبي هريرة، وساقه الطبراني أيضا بإسناد حسن فيه محمد بن عمرو الليثي صدوق له أوهام، ومدار الروايتين عليه. وقد جاء في متن الطبراني ذكر السعود وهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وقد اتفقت الروايتان عليهما، وذكر سعد بن الربيع وسعد بن خيثمة وسعد بن مسعود وهو خطأ، لأن ابن الربيع استشهد في أحد، وابن خيثمة استشهد في بدر. وأما ابن مسعود فلا مانع من مشاورته إذا صحت الرواية (الإصابة ٢/ ٣٦).

وقد اشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة قد نكثوا العهد وغدروا بهم، وكانت ديار بني قريظة في العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور، فكان موقعهم يمكنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف. وقد أرسل الرسول ﷺ الزبير بن العوام إلى بني قريظة للاستطلاع، فلما رجع قال له: فداك أبي وأمي، وقال: إن لكل نبي حواريًّا وحواريِّ الزبير[1]. ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فمضيا إلى بني قريظة، فوجداها قد نقضت العهد ومزقت الصحيفة، إلا بني سعنة فإنهم خرجوا من الحصون إلى المسلمين وفاء بالعهد. وكان ذلك على إثر سفارة حيي ابن أخطب النضري الذي أقنع كعب بن أسد القرظي بنقض العهد مع المسلمين، مبيناً له قوة الأحزاب، وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين، مواعدًا له إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معه حصنه، فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة[2].

وقد وصف القرآن الكريم البلاء الذي أصاب المسلمين في الآية﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[3].

فالأحزاب جاءوا من فوقهم، وبنو قريظة من أسفل منهم، والمنافقون ظنوا بالله الظنونا، فأصاب المسلمين زلزال شديد وبلاء عظيم، ولكن الإيمان العميق والتربية الدقيقة جعلت المسلمين يصمدون أمام سائر هذه الأخطار.

---

(١) فتح الباري ٧/ ٨٠، ٦/ ٥٢ من متن البخاري.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١٠٣ من رواية محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة دون أسانيد والقدر الثابت هو غدر بني قريظة.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ١٠ - ١١.

وقد نظمت الدورات لحراسة المدينة، فكان سلمة بن أسلم الأوسي يقود مئتي رجل، وزيد بن حارثة يقود ثلاث مئة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير لإشعار بني قريظة بيقظتهم ووجودهم، خوفًا منها على النساء والأطفال في الحصون[(١)].

وقد فوجئت قريش برؤية الخندق، واحتاروا في كيفية اقتحامه، إذ كلما هموا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام، واشتد الحصار وطال أربعا وعشرين ليلة[(٢)]. لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال، وقال قتادة: إن الحصار دام شهرًا[(٣)]، وقال موسى بن عقبة: دام عشرين ليلة[(٤)].

وقد أورد ابن إسحاق وابن سعد روايات دون أسانيد تفيد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وذكرا أسماء خمسة منهم، وأن عليًّا بارز عمرو ابن عبد ود فارس قريش وقتله، وأن الزبير قتل نوفل المخزومي، وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم[(٥)]. ولكن هجمات المشركين لم تنقطع، حتى إن

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٦٧ دون إسناد.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٧٣ بإسناد رجاله ثقات، من مراسيل سعيد بن المسيب، ومراسيله قوية. وهو أقوى ما ورد حول مدة الحصار. وبه قال ابن إسحاق (السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٢٤ بضعًا وعشرين ليلة دون تحديد البضع).

(٣) الطبري: تفسير ٢١/ ١٢٨ بإسناد حسن، لكنه من مراسيل قتادة، وبه أخذ ابن القيم (زاد المعاد ٢/ ١٣١).

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٣٩٣ دون إسناد.

(٥) السيرة النبوية ٢/ ٢٢٤ والطبقات الكبرى ٢/ ٦٨، وأورد الطبري مبارزة علي لعمرو بن عبد ود من مرسل الزهري، ومراسيله ضعيفة، ومن مرسل عكرمة بإسناد رجاله ثقات (تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٤٨ وكنز العمال ١٠/ ٤٥٥). ولكن لا يحتاج لإثبات صحة المبارزة إلى درجة الصحة الحديثية، لأن مثل هذه الأخبار تشتهر وتعرف بين الناس، وقد شاهد المعركة ألوف المقاتلين.

الرسول ﷺ والمسلمين لم يتمكنوا من أداء صلاة العصر - في أحد الأيام - في وقتها، بل صلوها بعدما غربت الشمس[١]. ولم تكن صلاة الخوف قد شرعت بعد، لأنها إنما شرعت بعد ذلك في غزوة ذات الرقاع[٢].

وبرغم طول مدة الحصار فقد استشهد من المسلمين ثمانية[٣]، منهم سعد بن معاذ زعيم الأوس، أصيب في أكحله[٤]، فضرب له النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حيث انتقض جرحه[٥]. وكان من خيرة الصحابة، وله مناقب كثيرة، وتضحيات عظيمة من أجل قضية الإسلام[٦]. وقتل من المشركين أربعة، فكانت غزوة الخندق أقل الغزوات قتلى برغم كثرة أعداد المشتركين فيها من الجانبين، إذ لم يقع التحام مباشر بينهم، حيث حال الخندق دون ذلك.

وكان طول الحصار سببًا في إضعاف معنوية الأحزاب، خاصة إن أهدافهم لم تكن واحدة، فقريش تريد القضاء على المسلمين لتحرير طرق تجارتها، وللانتصار لوثنيتها، والأعراب يريدون نصرًا سريعًا لنهب المدينة، ويهود مترددة، بحيث لم تدخل القتال برغم نقضها للعهد، خوفًا من ترك الأحزاب للحصار، وجعلها تقف وحدها وجهًا لوجه أمام المسلمين، فهي تريد رهائن قبل اشتراكها في القتال.

---

(١) فتح الباري ٢/ ٦٨، ١٢٣، ٧٢، ٤٣٤، ٥/ ٩٢.
(٢) فتح الباري ٧/ ٤٢١ - ٤٢٤.
(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥٣ والطبقات الكبرى ٢/ ٦٨ - ٧٠.
(٤) عرق في وسط الذراع.
(٥) صحيح البخاري ٥/ ٥١.
(٦) تحرك العرش لموته، ومناديله في الجنة أفضل من الحرير (صحيح البخاري: مناقب الأنصار ١٢ وصحيح مسلم ٤/ ١٩١٥، ١٩١٦).

وقد ساق ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي أخبارًا وحكايات حول دور نعيم بن مسعود الغطفاني، وأنه كان مسلمًا جديدًا لا تعرف قريش ويهود والأعراب بإسلامه، فقام بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش، لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش: إن يهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، وهذه الروايات لا تثبت من الناحية الحديثية، ولكنها اشتهرت في كتب السيرة[١]. وهي لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة[٢].

وأيا كان فإن معنوية الأحزاب انهارت لطول الحصار من ناحية، ولهبوب العواصف الشديدة الباردة، فقد نصر الله المسلمين بريح الصبا[٣]. فاقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، ودفنت رحالهم، فنادى فيهم أبو سفيان بالرحيل[٤]. وما نالهم من الغزوة سوى التعب وخسارة النفقات. وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٥].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠ من رواية ابن إسحاق دون إسناد، والواقدي: المغازي ٢/ ٤٨١ - ٤٨٢، ٤٨٥ وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١١٣.

(٢) صحيح البخاري: الجهاد ١٥٧ وصحيح مسلم: الجهاد ١٨.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٤٧ وصحيح مسلم ٢/ ٦١٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى من مرسل سعيد بن جبير (٢/ ٧١) ودلائل النبوة للبيهقي ١٤٨ ب وفتح الباري ٧/ ٤٠٠.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٩.

ولنترك الحديث لشاهد عيان هو حذيفة بن اليمان، الذي أرسله الرسول ﷺ لاستطلاع حال الأحزاب، قال: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم كرر قوله مرتين، فلم يجبه أحد، «فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم». فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: «اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ»، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تذعرهم عليَّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت قررت[1]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان»[2].

وفي رواية البزار: لما رجع حذيفة إلى الرسول ﷺ قال: يا رسول الله تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلاّ في عصبة، يوقد النار، وقد صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون[3].

وهكذا انفض الأحزاب عن المدينة، فتنفس المسلمون الصعداء ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا

---

(١) أي عاد إليه البرد.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤ - ١٤١٥ وقوله «ولا تذعرهم» أي (لا تهيّجهم)، و«أمشي في حمام» أي زال شعوره بالبرد، و«قررت» أي (بردت).

(٣) كشف الأستار ٢/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

عَزِيزًا ﴾(١). واستجاب الله لدعاء نبيه خلال الحصار: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»(٢). وقد عبر الرسول ﷺ عن الآثار الخطيرة التي ترتبت على فشل الأحزاب في غزوة المدينة برغم ما حشدوه من طاقاتهم- وهو أقصى ما يستطيعون- بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»(٣) مما يدل على تغير الإستراتيجية الإسلامية من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى مرحلة الهجوم، ومما يوضح ذلك أن مسرح الأحداث انتقل من المدينة وما حولها إلى مكة والطائف، ثم تبوك بعيدًا عن عاصمة الإسلام «المدينة المنورة».

*****

(١) سورة الأحزاب. ٢٥.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٣

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤٨.

obeikandl.com

في أعقاب غزوة الخندق

سرية الخبط (سرية سيف البحر)

استثمر المسلمون ما أصاب الأحزاب من فشل، وضيقوا على قريش الخناق الاقتصادي من جديد، فأرسل النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاث مئة رجل من المهاجرين والأنصار. لرصد قافلة الجيش قرب ساحل البحر، فأصابهم الجوع حتى أكلوا الخبط، فسمي جيش الخبط، وقد نحروا بعض الإبل، ثم نهاهم أبو عبيدة لحاجتهم إليها إذا لقوا عدوهم، فألقى إليهم البحر بحوت عظيمة، فأكلوا منها نصف شهر، وحملوا بعضها إلى النبي ﷺ فأكل منها(١).

ولعل هذه السرية آخر ما أرسل من سرايا وبعوث لتهديد تجارة مكة، حيث توقف ذلك تطبيقًا لمعاهدة صلح الحديبية بعد أن أجهدت اقتصاد مكة، حيث عبر أبو سفيان عن ذلك بقوله: «وكانت الحرب قد حصبتنا»(٢).

*****

(١) صحيح البخاري ومسلم (زاد المعاد ٢/ ١٥٨) وقد أوضح ابن القيم خطأ ابن سيد الناس في تاريخ السرية في رجب سنة ثمان، حيث لم يَغْزُ ولم يبعث سرية في الشهر الحرام. ثم إن صلح الحديبية يمنع اعتراض المسلمين لقافلة قريش، فلابد أن تكون سرية الخبط قبل الصلح. فلعلها كانت في أعقاب الخندق كما أثبتها.

(٢) فتح الباري ١/ ٣٤ وذكر في ٨/ ٧٩ احتمالاً آخر هو أنهم لم يخرجوا لأخذ القافلة، بل لحمايتها من جهينة. ولم آخذ بهذا الاحتمال، فإن جهينة كانت قد أسلمت مبكرًا، والتزمت بالصلح مع المسلمين، وقبل إسلامها لم تكن تتعرض لقوافل قريش، بل كانت موادعة للمسلمين ولقريش معًا، حرصا على مصالحها مع الطرفين (انظر مسند أحمد ١ / ١٧٨ وسيرة ابن هشام ١ / ٥٩٥ ثم إن الحافظ صرح بأنها كانت قبل فتح مكة بمدة (فتح الباري ٨ / ٩٧).

غزوة الحديبية

الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وفيها حدائق الحديبية ومسجد الرضوان[(١)]. وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي، ومعظمها من الحِل خارجه[(٢)]. وقد سميت الغزوة بها، لأن قريشًا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية.

وكان خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية في يوم الإثنين مستهل ذي القعدة من السنة السادسة[(٣)]. وقد قصد بخروجه العمرة[(٤)]، وفي ذلك إظهار لحقيقة مشاعر المسلمين نحو البيت العتيق وتعظيمهم له، وإبطال لدعاية قريش المعادية التي تريد إظهارهم وكأنهم لا يعترفون بحرمة الكعبة.

ولا يخفى أن هذه التظاهرة الإسلامية تبرز قوة المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية، خاصة بعد فشل غزوة الأحزاب، وكانت قريش تفطن لهذه المعاني، عندما منعت المسلمين من دخول مكة وأداء العمرة. وكان الرسول ﷺ يتوقع أن تصده قريش وقد تقاتله، لذلك أراد أن يخرج بأكبر عدد من المسلمين، فاستنفر أهل البوادي من الأعراب، فأبطأوا عليه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وقد سجل القرآن الكريم على الأعراب هذا الموقف الضعيف: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا

---

(١) نسب حرب، ص ٣٥٠.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٣٨٠.

(٣) البيهقي: دلائل النبوة ٢/ ق ٢١٢، من رواية يعقوب بن سفيان بإسناد حسن، لكنه من مراسيل نافع مولى ابن عمر، وقد أجمع أهل العلم على تاريخها بلا خلاف (النووي: المجموع ٧/ ٧٨، وابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ١٦٤، وابن حجر: التلخيص الحبير ٤/ ٩٠. وأما التحديد بيوم الإثنين فأول من صرح به الواقدي وتلميذه ابن سعد (مغازي الواقدي ٢ / ٥٧٣ والطبقات الكبرى ٢/ ٩٥).

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري، ص ١٧٧٨)

فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[١].

وقد ذكر مجاهد: أن المراد بالآية أعراب المدينة جهينة ومزينة[٢].

ونظرًا لتوقع الشر من قريش، فإن المسلمين أخذوا معهم سلاحهم، فكانوا مستعدين للقتال[٣]. خلافًا لما ذكر الواقدي من كونهم لم يحملوا السلاح[٤].

وبلغ عدد المسلمين في الحديبية ألفًا وأربع مئة رجل، ذكر ذلك شهود العيان من الصحابة، وهم جابر بن عبدالله والبراء بن عازب ومعقل بن يسار وسلمة بن الأكوع[٥] والمسيب بن حزن[٦]. وقال جابر في رواية: إنهم ألف وخمس مئة[٧]. وقال الصحابي عبدالله بن أبي أوفى: إنهم ألف وثلاث مئة[٨]. واتفاق خمسة من شهود العيان على أنهم ألف وأربع مئة أولى من سواه من الأقوال، فهو أصح الصحيح، وإن كان الجمع ليس بمتعذر، والاختلاف ليس بكبير.

---

(١) سورة الفتح: الآيتان ١١ - ١٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٦/ ٧٧، بإسناد حسن إلى مجاهد وهو مرسل.

(٣) صحيح البخاري فتح الباري حديث رقم ٤١٧٩.

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٥٧٣.

(٥) صحيح البخاري فتح الباري رقم الحديث ٤١٥١، ٤١٥٤ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة ٧٤، ٧٦ كتاب الجهاد والسير، ١٣٢.

(٦) تاريخ يحيى بن معين ١/ ٣٢١، والبيهقي: دلائل النبوة ٢/ ق ٤ ٢١، وفيه عنعنة قتادة ولا تضره، لأن أصله في الصحيح.

(٧) صحيح البخاري: فتح الباري رقم الحديث ١٤٥٣، ٣٥٧٦ وصحيح مسلم: كتاب الإمارة ٧٣.

(٨) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، ٧٥.

وقد صلى المسلمون بذي الحليفة، وأحرموا بالعمرة[١]، وساقوا الهدي سبعين بدنة[٢]، وبعث الرسول ﷺ عينًا إلى مكة هو بسر بن سفيان الخزاعي الكعبي[٣].

ولما بلغ المسلمون الروحاء على بعد ٧٣ كيلاً عن المدينة، أرسل أبا قتادة الأنصاري - ولم يكن محرمًا بالعمرة - مع جمع من الصحابة إلى غيقة على ساحل البحر الأحمر، حيث بلغه وجود بعض المشركين الذين يخشى من مباغتتهم للمسلمين، وقد اصطاد لهم أبو قتادة حمارًا وحشيًّا وهم حرم، فأكلوا منه ثم شكوا في حل ذلك، فالتقوا بالرسول ﷺ في السقيا على بعد ١٨٠ كيلاً عن المدينة، فسألوه، فأذن لأصحابه بأكل اللحم، ما داموا لم يعينوا على صيده[٤].

ومضى المسلمون إلى أن وصلوا عسفان على ثمانين كيلاً من مكة، فجاءهم بسر بن سفيان الكعبي بخبر قريش، وأنها سمعت بمسيرهم، وجمعت لهم الجموع لصدهم عن دخول مكة، وأن خالد بن الوليد خرج بخيلهم إلى كراع الغميم - على بعد ٦٤ كيلاً عن مكة - طليعة، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يغير على ديار الذين ناصروا قريشًا، واجتمعوا معها ليدعوا قريشًا،

---

(١) صحيح البخاري (الفتح حدبث رقم ١٦٩٤، ١٦٩٥)، وهو يشعر بتحديد الميقات قبل الغزوة.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣٢٣، بإسناد حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في سيرة ابن هشام

(٣) صحيح البخاري (الفتح الحديث رقم ٤١٧٩، ومسند أحمد ٤/ ٣٢٣ بإسناد رجاله ثقات، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وقد صرح بالتحديث كما في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري رقم الحديث ١٨٢١، ١٨٢٢، ١٨٢٤)، وأما ما رواه البزار بإسناد حسن من أن صيد حمار الوحش كان بعسفان، فقد عارض الصحيح، كما عارضه بأن إرسال أبي قتادة كان لجمع الصدقة. وما حاوله الكاندهلوي من التوفيق لا يصلح، وذلك للتعارض القوي مما يستلزم الترجيح (انظر: أوجز المسالك إلى موطأ مالك ٦/ ٣٥٢).

ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال: (أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله)(١). وكان رسول الله ﷺ كثير الاستشارة لأصحابه.

وقد صلى الرسول ﷺ بأصحابه بعسفان صلاة الخوف، وذلك عندما علم بقرب خيل المشركين منهم(٢)، فتكون أول صلاة خوف صلاها رسول الله ﷺ بعسفان في الحديبية(٣). على رأي من أخّر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد خيبر وهو الصحيح(٤). خلافًا لرأي ابن إسحاق والواقدي ومن تبعهما(٥)، لأن أبا موسى الأشعري وأبا هريرة قدما على النبي ﷺ بعد فتح خيبر، وليس

---

(١) صحيح البخاري (الفتح حديث ٤١٧٩) وقال «غدير الأشطاط» بدل «عسفان»، وهي قرية منها (فتح الباري ٥/ ٣٣٤). إلا ما يتعلق بذكر خالد بن الوليد فهو من مسند أحمد٤/ ٣٢٣ بإسناد حسن وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨ وعن موقع كراع الغميم (البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ٢٦٤).

(٢) سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة، ص ٢١٥ ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك٣/ ٣٣٨) وصححه البيهقي وابن كثير (السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٥٧، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٤٨) وقال عنه ابن حجر: سند جيد (الاصابة ٧/ ٢٩٤)، ولكن الحديث لم يحدد الغزوة، وقد رجح ابن حجر أنها غزوة الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٢٣) ويؤيده أن خالد بن الوليد ذكر وجوده قرب عسفان، وكان ذلك في غزوة الحديبية.

(٣) حافظ محمد الحكمي: مرويات غزوة الحديبية ص ١١٥ - ١٣٣.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري حديث رقم ٤١٢٥، ٤١٢٨) وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٢٥٣، وابن كثير. البداية والنهاية ٤/ ٨٣، وابن حجر: فتح الباري ٧/ ٤١٩ - ٤٢٠.

(٥) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٣، ٣٠٤ ومغازي الواقدي ١/ ٣٩٦.

قبل ذلك التاريخ، وقد اشتركا في غزوة ذات الرقاع[١]، فلزم أن تتأخر عن خيبر، ولزم أن تكون الصلاة بعسفان في الحديبية، إذ أعقبها الصلح ولم يجر قتال في مكة وما حولها حتى كان الفتح.

وسلك رسول الله ﷺ طريقًا وعرة عبر ثنية المرار، وهي مهبط الحديبية، وقال: «من يصعد الثنية ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل»، فكان أول من صعدها خيل الخزرج[٢].

وقد غيَّر الرسول ﷺ طريق جيشه، تجنبًا للقتال مع خالد بن الوليد وخيالة المشركين، فلما أحس خالد بذلك رجع إلى مكة، فخرجت قريش فعسكرت ببلدح[٣]، فنزلوا على الماء، وسبقوا المسلمين إليه. حتى إذا اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته، فقالوا: خلأت القصواء. فقال النبي : «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال:

«والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[٤]. ثم عدل عن دخول مكة إلى أقصى الحديبية، فنزل على بئر قليلة الماء، فاشتكى المسلمون العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن

---

(١) فتح الباري حديث رقم ٤١٢٨، ٤١٢٣! وسنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة. ص ١٢٤٠، ١٢٤١، ومسند أحمد ٢/ ٣٤٥ بإسناد حسن.

(٢) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ص ١٢.

(٣) بلدح واد بمكة، أعلاه في وادي العُشَر، وأوسطه منطقة الزاهر اليوم، ومصبه في مر الظهران شمال الحديبية (البلادي.:معجم المعالم الجغرافية، ص ٤٩). وخروج قريش إلى بلدح لم يثبت من طريق صحيحة، بل ورد في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ق ٢١٩ - ٢٢٠، من مرسل عروة بإسناد ضعيف إليه، وذكر ذلك الواقدي (مغازي ٢/ ٥٨٢)، وابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/ ٩٥).

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٥/ ٣٢٩ حديث رقم ٢٧٣١).

يجعلوه فيها، فمازال يجيش بالري حتى صدروا عنه[١]، فكان تكثير الماء من معجزاته عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة.

وكان الرسول ﷺ يحرص على الاستبقاء على حياة قريش، ويأمل إسلامهم وإفادة الدعوة منهم، فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وقريش من أكثر العرب فصاحة وذكاء وخبرة ومكانة، واستبقاؤها للإسلام فيه خير عظيم للدولة والدعوة، كما برهنت الأيام. وها هو الرسول ﷺ يتحسر لعناد قريش وفنائها في الحرب مع المسلمين، فيقول: «يا ويح قريش أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[٢].

وقد بين الرسول ﷺ لقريش عن طريق رجال محايدين أحيانًا، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض أحيانًا أخرى: أنه لا يريد حرب أحد، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وقد قدم عليه بديل بن ورقاء الخزاعي، وبيّن أن قريشًا تعتزم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح له الرسول ﷺ موقفه، فقام بتوضيحه لقريش[٣]، فأجابته قريش: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها أبدًا علينا، ولا تتحدث بذلك العرب[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه. وفي رواية أنه ﷺ دعا بماء فمضمض ومج في البئر (صحيح البخاري: فتح الباري، حديث رقم ٣٥٧٧) ولا مانع من الجمع بينهما بأنه فعل الأمرين.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣٢٣، بإسناد حسن، وصرح ابن إسحاق بالتحديث في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨.

(٣) صحيح البخاري (الفتح الحديث رقم ١ ٢٧٣، ٢٧٣٢).

(٤) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤، وسيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨، وإسناده حسن.

والحق أن المسلمين كسبوا الموقف سياسيًّا، سواء دخلوا مكة وتحدثت العرب عن ذلك، أو لم يدخلوا فتحدثت العرب عن صد قريش لمن قصدوا تعظيم البيت العتيق، بعد أن كانت قريش تدعي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات. وقد سعى الرسول ﷺ لبيان موقفه أمام الناس جميعًا، فأرسل رسله تترى إلى قريش يعلنون مقصدهم، فأرسل خراش بن أمية الخزاعي فأرادت قريش قتله، لولا أن منعهم الأحابيش[١]. وأراد أن يرسل عمر بن الخطاب ثم عدل عنه إلى عثمان بن عفان عندما بين عمر شديد عداوته لقريش وأنها تعلم ذلك، وأن بني عدي قومه لا يحمونه[٢]. فذهب عثمان إلى قريش، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص، حتى أبلغهم رسالة النبي ﷺ. وقد سمحت له قريش بالطواف، فأبى أن يسبق الرسول ﷺ بالطواف، وقد أخرته قريش، فحسب المسلمون أنها قتلته[٣].

فدعا رسول الله ﷺ أصحابه للبيعة تحت شجرة سمرة، فبايعوه جميعًا سوى الجد بن قيس – وكان منافقًا[٤] – وكانت البيعة على الموت[٥]. وفي روايات أخرى: أنهم بايعوه على ألا يفروا، وليس على الموت[٦]. أو أنهم بايعوه على الصبر، ولا تعارض في ذلك، لأن المراد بالمبايعة على الموت ألا يفروا[٧]. وأول من بادر إلى البيعة أبو سنان عبدالله بن وهب الأسدي[٨]. ثم

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤، بإسناد حسن وقد تقدم.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، ص ٦٩، من حديث جابر بن عبد الله وهو شاهد عيان.

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري حديث رقم ٤١٦٩) وصحيح مسلم. كتاب الإمارة ٨١.

(٦) صحيح مسلم: كتاب الإمارة ٧٦، ٦٧، ٦٨، وصحيح البخاري (الفتح رقم الحديث ٢٩٥٨.

(٧) فتح الباري ٦/ ١١٨.

(٨) الإصابة ١١/ ١٧١.

تتابع الأصحاب، وقد أثنى الرسول ﷺ على موقف الصحابة ومبادرتهم إلى البيعة، فقال: «أنتم خير أهل الأرض»[١]. وقال: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»[٢]. ولما كان عثمان محبوسًا في قريش، فقد قال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان»[٣]. فعد في المبايعين تحت الشجرة، ولكن عثمان رجع إلى المسلمين بعد بيعة الرضوان مباشرة.

وأرسلت قريش عددًا من الرسل للتفاوض، أولهم عروة بن مسعود الثقفي، وقد لاحظ تعظيم المسلمين للرسول ﷺ وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما رجع إلى قريش قال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا»[٤].

ثم أرسلت قريش الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلاً طلب من أصحابه أن يظهروا أمامه الإبل المشعرة، وأن يلبوا أمامه لأنه من قوم يعظمون ذلك، فلما رأى ذلك رجع إلى قريش، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت[٥]. فقالوا: أجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك[٦].

---

(١) صحيح البخاري (الفتح الحديث ٤١٥٤).

(٢) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢، حديث رقم ٢٤٩٦

(٣) صحيح البخاري (الفتح، حديث رقم ٣٦٩٨).

(٤) صحيح البخاري (الفتح الحديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢). وانظر مسند أحمد ٤/ ٣٢٤، بإسناد حسن من رواية ابن إسحاق.

(٥) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٦) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤، بإسناد حسن.

ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص وأعقبته بسهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ متفائلاً: «لقد سهل لكم أمركم»[١]. وقال: «لقد أراد القوم الصلح، حيث بعثوا هذا الرجل»، وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو ألا يكون في صلحه إلا أن يرجع المسلمون دون عمرة في ذلك العام. وقد جرت مفاوضة طويلة بين الرسول ﷺ وسهيل بن عمرو، وانتهت إلى عقد صلح الحديبية[٢].

وقد وقع اختلاف في مقدمة العقد، حيث أراد الرسول ﷺ إعطاءه صبغة إسلامية، فاعترض سهيل بن عمرو، وكان علي بن أبي طالب يكتب العقد[٣]، فقال النبي ﷺ اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال النبي ﷺ: اكتب: «باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله «فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبدالله» فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني»، اكتب: «محمد بن عبدالله» فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة[٤]. ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء

---

(١) صحيح البخاري (الفتح الحديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٤٣، بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، آخر من مرسل الزهري.

(٤) أي قهرًا.

مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف[١] في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. فقال: والله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا.

فقال النبي ﷺ: فأجِزْهُ لي[٢]. فقال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك[٣].

وقد تم الاتفاق على الأمور الآتية:

«على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض. على أنه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم، ومن أتى قريشًا ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

وأن بيننا عيبة[٤] مكفوفة.

وأنه لا إسلال ولا إغلال[٥].

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

---

(١) يتحامل بقيود رجليه.

(٢) أي يريد إمضاء فعله فيه، وهو أن يستثنيه من الشرط.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢). ويبدو أن قولة مكرز لم تحظ باحترام سهيل، فقد أعاد أبا جندل إلى مكة.

(٤) أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصلح (ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٢٧).

(٥) الإسلال السرقة، وقيل سل السيوف، والأغلال: الخيانة، وقيل لبس الدروع (النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٩٢، ٣/ ٣٨٠).

فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده.

وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك. وأقمت فيها ثلاثة معك سلاح الراكب، لا تدخلها بغير السيوف في القرب[(١)]»[(٢)].

وهكذا وقعت الهدنة لمدة عشر سنوات، على ألا يدخل المسلمون مكة إلا بعد مرور عام، فيقيموا بها ثلاثة أيام، معهم السيوف مغمودة فقط، ولا يقوم الطرفان بأي أعمال دعائية أو عدوانية، ويجوز للطرفين التحالف مع القبائل العربية على قدم المساواة، ويلتزم المسلمون برد الفارين من قريش إليها، ولا تلتزم قريش برد المسلمين الفارين إليها.

والواقع أن المسلمين تذمروا من هذه الاتفاقية، وضاقوا بها ذرعًا، خاصة بعد أن جرت التعديلات على الصياغة الإسلامية للعقد، فقد اعتذر علي بن أبي طالب عن مسح كلمة «رسول الله»، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب[(٣)]

(١) القرب: غمد السيوف.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن، حيث صرح بالسماع في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري حديث رقم ٢٦٩٩). وقال ابن إسحاق: «وليس يحسن يكتب - فكتب» (صحيح البخاري - فتح الباري حديث رقم ٤٢٥١). وفي رواية أخرى «فمحاه رسول الله بيده» (فتح الباري حديث رقم ٢٦٩٨ من متن صحيح البخاري) وفي كلتا الحالتين يكون الرسول ﷺ قد قرأ كلمة «رسول الله»، ولا يستدل بذلك على معرفة القراءة والكتابة، كما ذهب أبو وليد الباجي ومن تابعه خطأ، فإن معرفة رسم هذه الكلمات أو اسمه عليه الصلاة والسلام مما يتكرر رسمه أمامه كثيرًا من قِبَلِ كُتَّابه لا يخرجه عن كونه أميًّا، كما أخبر القرآن الكريم، وبذلك قامت الحجة، وذهب الجمهور إلى أن المراد من قوله «كتب» أي أمر بالكتابة. وهو الأحوط، منعا للشبهات والريب (راجع فتح الباري ٧/ ٥٠٤ ترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥).

ما أراد سهيل بن عمرو. وغضب المسلمون لرد المسلمين الفارين من قريش إليها، فقالوا: «يا رسول الله تكتب هذا؟ قال: نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»(١).

وظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب، فراجع الرسول ﷺ في ذلك، قال: «فأتيت نبي الله، فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى فأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به»(٢). لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكتف بذلك، بل أعاد الكلام أمام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمثل كلامه مع رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: «يا عمر إلزم غرزه(٣) حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد»(٤).

وقال عمر: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ، حتى رجوت أن يكون خيرًا»(٥).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يراجع الرسول ﷺ ليقف على الحكمة من موافقته على شروط الصلح، وكان يرغب في إذلال المشركين. فجميع ما صدر منه كان معذورًا فيه، بل هو مأجور، لأنه مجتهد فيه(٦).

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد ٩٣.

(٢) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٣) مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث في سيرة ابن هشام ٣/ ٣٠٨، وفيه أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تكلم أولاً مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أعاد الكلام مع الرسول ﷺ، والمراد بـ«إلزم غرزه» التمسك بأمره وترك المخالفة، له كالذي يمسك بركاب الفارس، فلا يفارقه؟ فتح الباري ٥/ ٣٤٦).

(٤) مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٥) المصدر السابق.

(٦) فتح الباري ٥/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

وكان المسلمون لا يشكون في دخول مكة، فلما جرى الصلح تألموا «حتى كادوا أن يهلكوا»، وخاصة عندما أعيد أبو جندل وهو يستنجد بهم، ويقول: «يا معشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني» والرسول ﷺ يقول: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»(١). وكان عمر يمشي بجنب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه، لكن أبا جندل لم يفعل فأعيد(٢).

ومما يعبر عن مشاعر المسلمين من إبرام الصلح قول سهل بن حنيف يوم صفين: اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته »(٣). ولا شك أن ندم عمر رضي الله عنه ومن كره الصلح إنما هو لإبداء رأي مخالف لرأي ارتضاه الرسول ﷺ، مع أن ما يقرره الرسول ﷺ نص لا مكان للرأي معه. لذلك لما علموا أنه أمر الله لم يكن منهم إلا التسليم ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(٤).

ويلاحظ أن قريشًا لم تكف عن التحرش بالمسلمين خلال المفاوضات لكتابة الصلح، بل وبعد إنجازه، وسواء أكان ذلك بعلم قادتها للضغط على المسلمين خلال المفاوضات، أم هو من تصرفات شبابها الطائشين، وقد احتمل المسلمون ذلك بانضباط دقيق، فقد أراد ثمانون رجلًا من أهل مكة أخذ معسكر المسلمين غرة، فأسروا وعفا عنهم الرسول ﷺ فأطلقهم(٥).

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٢) السابق نفسه.

(٣) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٣١٨١، ٤١٨٩).

(٤) سورة الأحزاب: آية ٣٦..

(٥) صحيح مسلم: كتاب الجهاد ١٣٣.

وخرج على معسكر المسلمين ثلاثون شابًّا من قريش في أثناء كتابة الصلح، فأسرهم المسلمون، وأطلق سراحهم النبي ﷺ[١]، وحتى بعد إبرام الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين كان أربعة من المشركين يقعون بالرسول ﷺ، فأخذهم سلمة بن الأكوع إلى الرسول ﷺ فعفا عنهم، كما عفا عن سبعين من المشركين آخرين أسرهم المسلمون بعد إبرام الصلح، وقد نزلت في ذلك الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٢][٣].

ولعل هذه الأحداث إضافة لتصور معظم المسلمين أن في شروط الصلح إجحافًا بهم، أدت إلى غضب المسلمين، حتى إذا أمرهم الرسول ﷺ بأن ينحروا الهدي ويحلقوا رءوسهم، وكرر ذلك ثلاث مرات، لم يقم منهم أحد، فكأنهم كانوا يأملون العودة عن الصلح، فلما رأوه قام - بمشورة من أم سلمة رضي الله عنها - فذبح بدنه وحلق رأسه، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[٤]!! فدعا رسول الله ﷺ لمن حلق منهم ثلاثًا ولمن قصر مرة[٥]. وكان عدد ما نحره المسلمون من الإبل سبعين[٦]. كل بدنة عن سبعة[٧].

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٨٦ بإسناد رجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٦/ ١٤٥) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين (المستدرك ٢/ ٤٦٠).

(٢) سورة الفتح: آية ٢٤.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الجهاد ١٣٢.

(٤) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) ومسند أحمد ٤/ ٣٢٦.

(٥) مسند أحمد ٢/ ٣٤، ١٥١ بإسناد صحيح.

(٦) مسند أحمد، ٤/ ٣٢٤ بإسناد حسن.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الحج ٣٥.

وقد نحر الرسول ﷺ جملاً كان لأبي جهل غنمه المسلمون ببدر ليغيظ بذلك المشركين[١]. وقد نحر الهدي في الحديبية في الحل[٢]، لكن بعض الهدي دخل به ناجية بن جندب منطقة الحرم فنحره[٣]. وهكذا تحلل المسلمون من عمرتهم، وشرع التحلل للمحصر، وأنه لا يلزمه القضاء.

ثم شرع الناس في التهيؤ للعودة إلى المدينة، بعد أن أقاموا بالحديبية عشرين يومًا[٤]. واستغرقت رحلتهم ذهابًا وإيابًا شهرًا ونصف الشهر[٥].

وفي غزوة الحديبية أذن النبي ﷺ لكعب بن عجرة - وكان محرمًا بالعمرة - أن يحلق رأسه لأذى أصابه على أن يقدم فدية؛ يذبح شاة أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستين مسكينًا. وقد نزلت فيه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ[٦]﴾[٧].

وفيها أذن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزلت المطر[٨].

---

(١) سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب المناسك ١٧٤٩. وصحيح ابن خزيمة ٤/ ٢٨٦ - ٢٨٧ والمستدرك للحاكم ١/ ٤٦٧ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٢٧٠١) وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ٩٧.

(٣) الطحاوي: شرح معاني الآثار ٢/ ٢٤٢ بإسناد صحيح.

(٤) الواقدي: مغازي ٢/ ٦١٦ وابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٩٨.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٢٣ من رواية ابن عائذ.

(٦) سورة البقرة: آية ١٩٦.

(٧) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨١٨، ٤١٩٠). وصحيح مسلم، كتاب الحج ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦).

(٨) ابن ماجة: سنن، إقامة الصلاة ٩٣٦ بإسناد صحيح، وصححه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ١١٣.

وفي الغزوة نماذج أخرى من تطبيق النبي ﷺ لمبدأ الشورى في الإسلام، حيث استشار المسلمين في الإغارة على ذراري المشركين، وأخذ برأي الصديق رضي الله عنه. واستشار أم سلمة في أمر الناس لما لم يبادروا بالنحر والحلق حين أمرهم، وأخذ برأيها.

ويستشف من غزوة الحديبية الحد الأعلى للمدة التي يجوز فيها مهادنة الكفار عليها، لأن الأصل في العلاقة معهم الحرب لا الهدنة. ويستدل بها على جواز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلمًا.

وفيها وضح الرسول ﷺ بعض مسائل العقيدة، فبيَّن كفر من يقول: (مُطرنا بنوء كذا وكذا) فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب[١]. وبيّن استحباب التفاؤل بقوله: (سهل أمركم) لما قدم سهيل بن عمرو[٢].

وفي الغزوة يظهر جواز التبرك بآثار النبي ﷺ مثل التوضأ بماء وضوئه، وهو خاص به خلافًا لآثار الصالحين من أمته[٣].

وحدث في طريق العودة أن نام المسلمون عن صلاة الصبح، فلم يوقظهم إلا حر الشمس، وكان بلال بن رباح موكلاً بحراستهم فغلبه النوم، فصلوها بعد خروج وقتها، فهي السنة فيمن نام عن صلاته أو نسيها[٤].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري، كتاب الأذان ٨٤٦).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٠٥. وانظر فتح الباري كتاب الطب ٥٧٥٥، ٥٧٥٦.

(٣) الشاطبي: الاعتصام ٢/ ٨.

(٤) سنن أبي داود مع معالم السنن: كتاب الصلاة ٤٤٧. والنسائي: السنن الكبرى في ١١٩ وصححه الهيثمي وفيه عبد الرحمن بن أبي علقمة من التابعين وثقه ابن حبان وحده ولم يجرحه أحد. (مجمع الزوائد ١/ ٣١٩، وثقات ابن حبان ٥/ ١٠٦ وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٣٣) وانظر حول تكرر ذلك في خيبر (فتح الباري ١/ ٤٤٩).

وفـي طريق العودة ظهرت معجزة الرسـول ﷺ فـي تكثير الطعام والماء، قال سـلمة بن الأكوع: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنـا أن ننحر بعض ظهرنا[١]، فأمر النبي ﷺ فجمعنا مزاودنا[٢]، فبسـطنا له نطعًـا[٣] فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحرزه كم هو؟ فحرزته كربضة العنز، ونحن أربع عشـرة مئة. قال: فأكلنا حتى شـبعنا جميعًا ثم حشونا جربنا[٤]. فقال النبي ﷺ: «فهل من وضوء؟» قال: فجاء رجل بأداوة[٥] له فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه[٦] دغفقة أربع عشرة مئة[٧]».

وفي الطريق إلى المدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[٨].

وقد عبَّر الرسـول ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها: «أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[٩].

---

(١) إبلنا.

(٢) أوعية الزاد.

(٣) بساط من جلد.

(٤) أوعية الزاد.

(٥) إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٦) نصبه صبا كثيرا.

(٧) صحيـح مسـلم، كتـاب اللقطـة ١٩ وانظـر صحيـح البخـاري (الفتـح حديث رقـم ٤١٥٢).
والفريابـي: دلائـل النبوة، حديـث تكثير الطعام عن عمر رضي الله عنه. وأحمد: المسـند ٣/ ٤١٧ - ٤١٨ عن أبي عمرة الأنصاري. والبيهقي: دلائل النبوة ٢ / ق ٢٢٢ -٢٢٣.

(٨) صحيح البخاري (فتح الباري ٤١٧٧). والآية (١) من سورة الفتح.

(٩) المصدر السابق.

قال أنس بن مالك: «إنا فتحنا لك فتحا مبينًا» قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئًا مريئًا فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(١)(٢).

وقد أسرع الناس إلى الرسول ﷺ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم، فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله: أفتح هو؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح(٣). فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام.

وسوف تتوالى الأحداث مؤكدة الحكمة البالغة والنتائج الباهرة لهذا الصلح، الذي سماه الله تعالى: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾. وكيف لا يكون كذلك، وقد اعترفت قريش بكيانهم لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند، بعد أن كانت تصورهم أمام الناس بأبشع الصور، مما كان صداه العميق في داخل مكة وأرجاء الجزيرة العربية، وأول ما يظهر في مبادرة خزاعة للتحالف مع المسلمين علنًا دون هيبة قريش. وكان لهذا الموقف جذور تاريخية بعيدة، فقد كان العداء التقليدي بين خزاعة وبني بكر من كنانة، وموقف قريش المتحيز لبني بكر قد دفعها إلى محالفة عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، وهو الحلف الذي أشار إليه عمرو بن سالم في قصيدته التي استنصر بها الرسول ﷺ قبيل الفتح بقوله: «حلف أبينا وأبيه الأتلدا»(٤).

---

(١) سورة الفتح: آية ٥.

(٢) صحيح البخاري (الفتح حديث رقم ٤١٧٢)، وقد أوضح قتادة رواية عن أنس أن تفسيره الفتح بالحديبية عن أنس، وأما «قال أصحابه هنيئًا مريئًا» فعن عكرمة.

(٣) سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الجهاد ٢٧٣٦ ومسند أحمد ٣/ ٤٢٠ ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٥٩ وقال: حديث كبير صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٤ من رواية ابن إسحاق ومغازي الواقدي ٢/ ٧٨٩ وتاريخ الطبري ٤/ ٤٥ وابن زنجويه: الأموال ١/ ٤٠١.

ويلاحـظ أن تعاطف خزاعة مع المسـلمين كان واضحًا منـذ قيام دولتهم فـي المدينـة، حتى إعلانهم الصريـح للتحالف في الحديبيـة، «إذ كانت خزاعة عيبة نصح لرسـول الله مسـلمها ومشركها، لا يخفون عنه شـيئًا كان بمكة»(١). ولكن خزاعة كانت تخفي حقيقة تعاطفها مع المسـلمين عن قريش قبل إعلان التحالف الصريح مع المسلمين، وبذلك حافظت على علاقاتها مع قريش طيلة المدة السابقة.

وكان السـلام المبـرم يتيـح الفرصة للمسـلمين للتفـرغ ليهـود خيبر آخر معاقل يهود، التي استغلت للتحريض على المسلمين في الخندق وما بعدها.

كما أتاح الفرصة لهم لنشر الإسلام، يقول الزهري: «فما فتح في الإسلام فتـح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعـت الحرب، وأمن الناس بعضهـم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعـة، فلـم يكلم أحد بالإسـلام يعقل إلا دخل فيه، ولقـد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك»(٢).

قال ابن هشـام: «والدليل على قول الزهري أن رسـول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسـنتين في عشـرة آلاف»(٣).

وقـد ظهـرت حكم أخرى لهـذا الصلح، فبعد أن وصل الرسـول ﷺ إلى المدينـة جاءه أبو بصير مسـلمًا وقد فرَّ من قريش، فأرسـلت فـي طلبه رجلين، فسـلمه رسـول اللـه ﷺ إليهمـا، وفـي الطريـق تمكن أبـو بصير مـن قتل أحد

(١) سيرة ابن هشام ٧٤٣ ط. القاهرة، والطبري ١٤٢٨ ط. أوروبا.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٢.
(٣)السابق نفسه.

الرجلين، وفرَّ الثاني إلى المدينة وخلفه أبو بصير، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: «قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله منهم»، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد!» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر...[١].

وقد فهم المستضعفون من المسلمين بمكة من عبارة الرسول ﷺ أن أبا بصير بحاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره، حتى اجتمعت منهم عصابة، وتعرضوا لقوافل قريش التجارية يقتلون حرسها ويأخذون أموالها ،«فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم»[٢] وهم بناحية العيص، فقدموا وكانوا قريبًا من الستين أو السبعين[٣].

وقصة أبي جندل وأبي بصير وما احتملاه في سبيل العقيدة، وما أبدياه من الثبات والإخلاص والعزيمة والجهاد حتى مرّغوا رءوس المشركين بالتراب، وجعلوهم يتوسلون بالمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية. هذه

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٥/ ٣٣٢ حديث رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٢٢٧ بإسناد فيه يونس بن بكير وهو صدوق يخطئ، والحديث حسن لمتابعاته الكثيرة. وهو من طريق ابن إسحاق، وساقه البيهقي من رواية الزهري مرسلاً، ويذكر أنهم صاروا بالعيص ثلاث مئة رجل وأن أبا بصير قدم عليه كتاب الرسول ﷺ وهو يموت، فمات والكتاب في يده، فدفنه أبو جندل مكانه وقدم أبو جندل ببقية الرجال على رسول الله ﷺ بالمدينة (دلائل النبوة ٢/ ق ٣٤٣ - ٣٤٤) نحوه، ومن مرسل عروة (دلائل النبوة ٢/ ق ٢٤٥) والمرسل ضعيف ويقوى إذا تعددت مخارجه، لكن عروة شيخ الزهري، والزهري من أوسع الرواة عنه رواية، والاحتمال القوي أن يكون مخرج الرواية واحدًا، فلا تقوى.

القصة نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة وبذل الجهد في نصرتها، وفيها ما يشير إلى مبدأ (قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة)، فقد ألحق أبو بصير وجماعته الضرر بالمشركين في وقت كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاء بالصلح، لكن أبا بصير وأصحابه خارج سلطة الدولة - ولو في ظاهر الحال- ولم يكن ما قام به أبو بصير والمستضعفون بمكة مجرد اجتهاد فردي لم يحظ بإقرار الرسول ﷺ ورضاه، بل كان بوسع الرسول ﷺ أن يأمر أبا بصير بالكف عن قوافل المشركين ابتداء أو بالعودة إلى مكة، لكن ذلك لم يحدث فكان إقرارًا له، إذ كان موقف أبي بصير وأصحابه في غاية الحكمة، حيث لم يستكينوا لطغاة مكة يفتنونهم عن دينهم ويمنعونهم عن اللحاق بالمدينة، فاختاروا موقفًا فيه خلاصهم، وإسناد دولتهم بأعمال تضعف اقتصاد مكة وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح. بل يمكن القول: إن اتخاذ هذا الموقف كان بإشارة وتشجيع من النبي ﷺ، حين وصف أبا بصير بأنه «مسعر حرب لو كان معه رجال»!! وقد اقتصر الرسول ﷺ على رد الرجال من المسلمين الفارين من قريش بموجب الصلح، أما النساء المهاجرات فلم يردهن، وقد جاءته أم كلثوم بنت عقبة من أبي معيط مهاجرة، فجاء أهلها يطلبونها، فلم يردها إليهم» لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾(١) فكان الرسول ﷺ يختبرهن، فإن خرجن بسبب الإسلام استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات(٢).

(١) صحيح البخاري (الفتح حديث ٢٧١١/ ٢٧١٢) وفتح الباري ٥/ ٤٢٥.

(٢)سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٦ من مرسل عروة، والبيهقي (السنن الكبرى ٩/ ٢٢٩ من مرسل الزهري وعبد الله بن أبي بكر بن حزم).

وعدم رد المؤمنات إما لعدم دخولهن في العهد أصلاً، وأنه قصد به الرجال وحدهم، كما في أحد نصوص البخاري «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل»(١). وإما لأن القرآن نسخ ما ورد بحقهن بالآية: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾(٢). وهذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزًا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك مؤمنة، وكذلك أُمِرَ المسلمون بفسخ نكاح المشركات ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(٣).

ويبدو أن إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وهما من رجالات مكة وهجرتهما تمت بعد تنازل قريش عن شرط إعادة المسلمين الجدد، الذين يلتحقون من مكة بالمدينة، حيث لا توجد إشارة إلى مطالبة قريش بهما.

وقد استمرت هدنة الحديبية نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم نقضت قريش الهدنة، حيث أعانت حلفاءها بني بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين على ماء الوتير قريبًا من مكة(٤)، فاستنصرت خزاعة بالمسلمين، وبذلك بطلت المعاهدة، وكان ذلك سببًا مباشرًا لفتح مكة.

*****

---

(١) صحيح البخاري (الفتح ٢٧١١، ٢٧١٢) ولكن ورد في ٦/ ٢٤٠ من طريق الليث عن عقيل «أحد» بدل «رجل»، فلو أمكن الترجيح عن طريق مقارنة الروايات وملاحظة اتحاد الكلمة مع اختلاف المخارج، لأمكن القول: إنهن غير مشمولات بالعهد دون تردد.

(٢) صحيح البخاري (الفتح ٢٧١١، ٢٧١٢).

(٣) المصدر السابق والسنن الكبرى ٩/ ٢٢٨، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٥١.

(٤) البداية والنهاية ٤/ ٢٧٨ بإسناد حسن، وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ٤١٤ ومجمع الزوائد ٦/ ١٦٢ وكشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٤٢ وقال ابن حجر عن إسناد البزار: هو إسناد حسن موصول (فتح الباري ٧/ ٥٢٠).

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء

أتاح صلح الحديبية الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، حيث أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس حاكم مصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي في اليمامة(١).

وقد أرّخ الواقدي والطبري إرسال هؤلاء الرسل في ذي الحجة سنة ٦ هـ(٢)، وأرخ ابن سعد ذلك في محرم من العام السابع(٣) وتابعه ابن القيم(٤). كما أرخ ابن سعد لرسالة كسرى قبل ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع التي قتل فيها كسرى(٥). وقد ذكر البخاري رسالة كسرى في

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٨ (ط. مصر). وسيرة ابن هشام ٤/ ٢٧٩ ويضيف بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجُلندي وسند ابن هشام منقطع، وبينه وبين راويه مجهول، وراويه هو أبو بكر الهذلي أخباري متروك الحديث (تقريب ٢/ ٤٠١) وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥٨ (ط. بيروت) من رواية الواقدي. بأسانيده إلى أربعة من الصحابة. لكن الواقدي متروك عند المحدثين. ومعظم أخبار الرسل ساقها ابن سعد من هذه الطريق، وقد ألف بين الروايات، وجمع كلام الصحابة الأربعة، وأدخل بعضه في بعض وساقه مساقًا واحدًا. وساق ابن سعد بعض أخبار إرسال بقية الرسل والكتب من طريق هشام الكلبي وهو ضعيف، وعلي بن محمد المدائني وهو صدوق (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٠٠)، لكن ما ساقه عنه لا يخلو من مطعن كالإرسال وغيره.

(٢) السابق نفسه.

(٣) ابن سعد: طبقات ١/ ٢ :١٥.

(٤) زاد المعاد ١/ ٣٠، وذكر ابن حجر أنه قول الواقدي (فتح الباري ١/ ٣٨)، ونسب ابن حجر إلى تاريخ خليفة أنه أرخ للرسل سنة خمس وغلّطه، والذي في تاريخ خليفة ص ٧٩ أنه سنة ست، فلعل الحافظ اطلع على نسخة مغايرة، أو أنه وهم في النقل عنه.

(٥) فتح الباري ٨/ ١٢٧، والتاريخ المذكور يحدد تاريخ مقتل كسرى على يد ابنه شيرويه (طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٠).

أعقاب غزوة تبوك في العام التاسع الهجري[١]، لكن من الواضح أن البخاري لم يراع عنصر الزمن في سرد محتويات «صحيحه». وقد يكون أراد الإشعار بذلك، كما ذهب الحافظ ابن حجر، ولكنه يبقى مجرد استنتاج لا يمكن القطع به[٢]. مما يقوي ما ذكرت أن ابن هشام ساق خبر خروج الرسل إلى الملوك بعد حجة الوداع في العام العاشر برغم أن النص الذي ذكره يصرح بأن ذلك بعد عمرة الحديبية[٣]. مع أن مراعاة الترتيب على أساس زمني أقوى في سيرة ابن هشام من صحيح البخاري، وقد نبه الحافظ ابن حجر نفسه على احتمال تصرف بعض رواة صحيح البخاري في تقديم وتأخير بعض التراجم، مثل تقديم حج أبي بكر سنة تسع على ذكر الوفود، ومثل تقديم حجة الوداع على غزوة تبوك[٤]. كما نبه إلى أن البخاري جمع ما وقع على شرطه من البعوث والسرايا والوفود، ولو تباينت تواريخهم[٥].

وواضح أن الاختلاف يسير بين التاريخين، ووفَّق ابن حجر بينهما بقوله: «إن دحية أرسل إلى هرقل في آخر سنة ست بعد أن رجع النبي ﷺ من الحديبية، فوصل إلى هرقل في المحرم سنة سبع[٦]. ويدل حديث صحيح على أن كتاب الرسول ﷺ كان قد وصل إلى هرقل في مدة صلح الحديبية، ويرى ابن حجر أن ذلك كان سنة ست[٧].

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٧.
(٢) فتح الباري ١/ ٣٩، ٨/ ١٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٧٨.
(٤) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٨٣.
(٥) المصدر السابق ٨/ ٩٧.
(٦) فتح الباري ١/ ٣٨.
(٧) فتح الباري ١/ ٣٢، ٣٩.

وقال أنس بن مالك: «كتب النبي ﷺ إلى كل جبار يدعوهم إلى الله»، وسمّى منهم كسرى وقيصر والنجاشي، وقال: وليس بالنجاشي الذي أسلم[١].

ولا شك أن مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبير عملي عن عالمية الرسالة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] مما يوضح خطأ النظرة القائلة بالتدرج في نطاق الدعوة من الإقليمية إلى العالمية تبعًا لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ. فإن صفة العالمية تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس.

أخرج البخاري في صحيحه نص كتاب الرسول ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، وهو النص الوحيد الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الملوك والأمراء، التي ينبغي أن تنقد من جهة المتن والسند معًا، قبل اعتمادها تاريخيًّا، فضلا عن الاستدلال بها في مجال التشريع، ونصه كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[٣] و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٧.
(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.
(٣) الأريسيون: الفلاحون.

شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١].

وقد استشكل الحفاظ المتأخرون ورود هذه الآية - التي قيل إنها نزلت بمناسبة قدوم وفد نجران إلى المدينة في العام التاسع[٢] - في نص الخطاب الذي أرسل في آخر العام السادس الهجري[٣]!! وقد ذكروا بعض الحلول التوفيقية للتخلص من هذا التعارض، فقالوا: إنه يجوز أن تكون الآية المذكورة قد أنزلت مرتين، ثم استبعدوا ذلك[٤]. وقال البعض: إن النبي ﷺ كتب ذلك قبل نزول الآية، فوافق لفظه لفظها لما نزلت[٥]. وقيل: بل نزلت سابقة في أوائل الهجرة، وقيل: نزلت في اليهود[٦].

ولا شك أن حل الإشكال يتوقف على معرفة سبب النزول، ولم تثبت رواية صحيحة مسندة في أنها نزلت في وفد نجران، ولكن قال بذلك ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير مرسلاً وهو ثقة، وفي إسناد الطبري إلى ابن إسحاق محمد بن حميد الرازي ضعيف، وقال بذلك السدي، وفي إسناد الطبري إليه أسباط وهو صدوق كثير الخطأ يغرب، وكذلك قال به علي بن زيد بن جدعان مرسلاً وهو ضعيف، فهذه ثلاث روايات مرسلة، وفي إسنادها

---

(١) فتح الباري ١/ ٣٢، ٨/ ١٦٢، والآية من سورة آل عمران ٦٤.

(٢) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٧، ٢١٥) وفتح الباري ١/ ٣٩.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٩ والقسطلاني: المواهب اللدنية ١/ ٢٢٣ والزرقاني: شرح المواهب ٣/ ٣٣٨.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٩ والقسطلاني: المواهب ١/ ٢٢٣.

(٥) المصدران السابقان.

(٦) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٩ مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٨٧.

جميعًا ضعف، وقد ورد في تفسير الطبري[1] ما يعارضها بإسناد حسن إلى قتادة مرسلاً، وبإسناد فيه ضعف إلى ابن جريج مرسلاً، وبإسناد فيه ضعف إلى الربيع بن خثيم مرسلاً، فهذه ثلاث روايات مرسلة أيضا تقول: إن الآية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت في يهود المدينة، تدعوهم إلى الكلمة السواء، ومعنى ذلك أنها نزلت قبل إجلائهم، وكان آخر إجلائهم في السنة الخامسة بعد الخندق، وهو يعضد القول: إن نزول الآية قبل إرسال كتاب هرقل، ولعل في إيراد البخاري في صحيحه ما يشير إلى ترجيحه للروايات القائلة بتقدم نزول الآية المذكورة، وإلا ما كان يثبت نص الكتاب في صحيحه.

فما دامت الآية قد وردت في نص كتاب صحيح كتب في العام السادس، فإن ذلك من أقوى الأدلة على تقدم نزولها قبل قدوم وفد نجران. وينبغي أن يكون نص الكتاب مرجحًا لتاريخ نزولها، لا أن تكون سببًا في استشكال نص الكتاب.

وقد أشار البخاري إلى إرسال كتاب النبي ﷺ إلى كسرى دون أن يذكر نص الكتاب. لكنه بيّن أن الرسول ﷺ أرسل كتابه مع عبدالله بن حذافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوي العبدي، وأن المنذر دفعه إلى كسرى الذي مزقه بعد أن قرأه، وقد دعا عليهم الرسول ﷺ

---

(١) انظر طرق هذه الروايات في تفسير الطبري ٣/ ٣٠٢ - ٣٠٤، ويلاحظ أن إسناده إلى قتادة حسن وإلى الربيع بن خثيم فيه المثنى مجهول الحال وعبد الله بن أبي جعفر صدوق يخطئ. وإلى عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج فيه القاسم بن عيسى الواسطي صدوق تغير والحسين ابن بشر الحمصي لا بأس به، وهذه هي حال أسانيد الروايات التي تقول بنزول الآية في يهود المدينة، وأما الروايات التي تقول: إنها نزلت في وفد نجران، ففي إسناده إلى السدي أسباط بن نصر صدوق كثير الخطأ يغرب. وقد انتقد الإمام مسلم لروايته عنه في صحيحه!! وفي إسناده إلى ابن إسحاق يوجد محمد بن حميد الرازي حافظ ضعيف، وتنتهي الرواية الثالثة إلى علي ابن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

أن يمزقهم الله كل ممزق[١]. وقد مزق الله ملك كسرى فقتله ابنه، واستولى على عرشه، وتمزقت الامبراطورية الفارسية ثم زالت من الوجود. وأما نص الكتاب إلى كسرى فلم يثبت من طريق صحيحة، وإنما أورده الطبري وغيره بأسانيد ضعيفة.

وقد ثبت في صحيح مسلم إرسال كتاب النبي إلى النجاشي، وبين الإمام مسلم أنه ليس بالنجاشي الذي أسلم[٢]. ولم يثبت نص الكتاب، فقد أورده ابن إسحاق دون إسناد[٣].

وأما نصوص الكتب التي وجهت إلى المقوقس حاكم مصر وهي كتابان، وكذلك ردود المقوقس وهي كتابان أيضا، فلم تثبت من طريق صحيحة. وكذلك لم تثبت نصوص الكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق، وهوذة بن علي الحنفي حاكم اليمامة، وجيفر وعباد ابني الجلندي حاكمي عمان، والمنذر بن ساوي في البحرين[٤] من الناحية الحديثية، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتب إلى هؤلاء الملوك والحكام، كما أنه لا يعني الطعن التاريخي بالنصوص، إذ يمكن أن تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون، ولكنها لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج بها في السياسة الشرعية.

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٦ وهو من رواية البخاري، لكنه لم يسم عظيم البحرين.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢١٠. وقد ذكرت المصادر الأخرى نصين آخرين مختلفين (انظر مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله رقم ٢١ ومقابل ص ٤٥)، ولا تثبت هذه الروايات عند المحدثين إذ إنها لم ترو بإسناد صحيح. وكذلك حال الكتابين اللذين أرسلهما النجاشي إلى النبي ﷺ (حميد الله: مجموعة الوثائق رقم ٢٣ و ٢٤).

(٣) صحيح مسلم حديث ١٧٧٤.

(٤) ذكره أبو عبيد: الأموال ٣٠ من رواية عروة مرسلاً، وأرخه قدامة بن جعفر في السنة الثامنة للهجرة (الخراج ٢٧٨).

ومن ثم يبقى نص كتاب النبي ﷺ إلى هرقل هو الوحيد الذي يصح حديثيًا، ويمكن اعتباره نموذجًا تقارن به بقية الكتب لغرض النقد التاريخي.

وإن هذا الحكم يسري على معظم وثائق العهد النبوي الأخرى، إذ لا مجال لتصحيحها من الناحية الحديثية، ولم تُعنَ الكتب الستة بتخريجها سوى كتاب هرقل في البخاري وكتاب عمير ذي مران في (سنن أبي داود)[١]، برغم أن الكثير منها يمكن أن يكون صحيحًا من الناحية التاريخية، ولكنه يبقى دون الاحتجاج به في موضوعات العقيدة والشريعة.

وقد ثبت أن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة ونقشه: محمد رسول الله[٢]. مما يدل على مرونة السياسة الإسلامية في الإفادة من الوسائل والرسوم المعاصرة، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة وروحها العامة[٣].

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٣٨ - ٣٩.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١٠/ ٣٣٤).

(٣) عثر المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) على رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس مكتوبة على ورق جلدي قديم بناحية أخميم من صعيد مصر سنة ١٨٥٠ م وقد نشرتها المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤ م وهي محفوظة في متحف طوب قبو سراي باستنبول وتبدو داكنة ورقيقة وقد أصابها تشقق من وسطها، ولكنها ما زالت مقروءة. وقد وثق بها المسيوبلين (Bellin) ووافقه نولدكه. وأعلن الدكتور بوش (Busch) الألماني سنة ١٨٦٣ م في مجلة المستشرقين الألمان العثور على رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي. ولم تحظ بالتوثيق الكافي. ونشر المستشرق الإنكليزي دنلوب (Dunlop) في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٤٠م أنه حصل على رق جلدي فيه رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي. ولكنه شك في صحتها، وأعلن الدكتور صلاح الدين المنجد في جريدة الحياة البيروتية سنة ١٩٦٣ م عن الكشف عن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى، مرجحًا صحتها، ولكن الثابت أن كسرى مزق الرسالة!! كما كشف عن وثيقة خاصة من وثائق العهد النبوي سنة ١٩٧٣ م، وهي قديمة يزيد =

ويلاحظ أن الكتاب الموجه لهرقل يتسم بالمحافظة على الصبغة الإسلامية، حيث بدأ بالبسملة، كما يتسم بالصراحة في الدعوة إلى الإيمان بالإسلام وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لكنه في الوقت نفسه يصبطغ بالحكمة والموعظة الحسنة واحترام المخاطب (عظيم الروم) لمكانته بين قومه، وترغيبًا له في الإسلام، ومع الترغيب بالأجر ذكر الترهيب من الإثم، الذي يلحقه إذا حجب قومه عن الإسلام.

*****

= عمرها على ألف سنة، ولكن لم يقطع بتوثيقها حتى الآن. وقد شك معظم المستشرقين في صحة إرسال الرسائل بالجملة منهم المستشرق الانكليزي وليام ميور في كتابيه «حياة محمد» و «الخلافة» والمستشرق الإيطالي ليون كايتاني؛ في كتابه «حوليات الإسلام» والمستشرق اليهودي مرجليوث في كتابه «محمد» وتتلخص اعتراضاتهم بأن الإسلام دين يخص العرب وأن الدولة الإسلامية كانت ضعيفة لا يمكنها تحدي القوى العالمية آنذاك وبان ابن إسحاق لم يذكرها، وبأن فيها تفاصيل أسطورية، وبأن بعض الرسائل تشتمل على آية قرآنية قيل: إنها نزلت بعد تاريخ الرسائل بسنتين. وهذه الملاحظات لا تقوى على هدم الأساس التاريخي لوجود الرسائل، كما أن الرسائل التي عثر عليها تحتاج إلى دراسة مختبرية وتوثيقية للقطع بصحتها أو عدمه (راجع حول معلومة هذه الحاشية بحث «الدراسات المتعلقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره» للدكتور عز الدين إبراهيم ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، قطر - ١٤٠٠ هـ).

تأديب الأعراب

ولـم تخـل مدة الصلح من أحداث شـغب قـام بها الأعـراب، لكنها لم تكن خطيرة، ولم تؤثر على تفرغ المسلمين للدعوة ونشر الإسلام، من ذلك ما حدث في:

غزوة ذات القرَد:

وقـد وقعت قبل غزوة خيبر بثلاث ليال، وذلك حين أغار عبدالرحمن بن عيينـة بن حصن الفزاري على نياق للرسـول ﷺ فأخذهـا وقتل راعيها، فلحقه سـلمة بن الأكوع بعد أن أنذر المسـلمين، فخرج الرسـول ﷺ فوجد سلمة بن الأكوع قد خلّص النياق منهم، واضطرهم للهرب، وقد انتهى الرسول ﷺ إلى ماء ذي قرد، ورجع إلى المدينة(١).

ومن ذلك أيضًا:

قصة عُكل وعرينة:

وبعد غزوة ذي قرد قدم رجال من قبيلتي عكل وعرينة إلى المدينة معلنين إسـلامهم، ثـم طلبوا أن يسـكنوا الريف لأنهم يسـتوخمون المدينـة، فأمر لهم الرسـول ﷺ بنياق وراع، فخرجـوا إلى الحرة فارتدوا وقتلـوا الراعي وأخذوا

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٤٦٠) وصحيح مسلم ٣/ ١٤٣٢. وأما ابن إسحاق وكتاب السـيرة الآخرون فيرون أن الغزوة كانت سـنة سـت قبل الحديبية (فتح الباري ٧/ ٤٦٠) وقال البيهقـي: الـذي لا نشـك فيـه أن غـزوة ذي قـرد كانت بعـد الحديبيـة وخيبر، وحديث سـلمة ابـن الأكـوع مصرح بذلك (فتـح البـاري ٧/ ٤٢٠ - ٤٢١)، وقد وقعت فيهـا صلاة الخوف، وإنما شـرعت بعد الخنـدق. ويذكر خليفة بن خياط أن المغير هو عيينـة بن حصن، وليس ابنه عبدالرحمن (تاريخ خليفة ٧٧).

النياق، فأرسـل إليهم بعثا فجاءوه بهم، حيث سمرت أعينهم، وقطعت أيديهم، وتركوا في الحرة حتى ماتوا. وقد نهى النبي ﷺ عن المثلة بعدها[(١)].

ومن ذلك:

غزوة ذات الرقاع:

اختلف كتاب السـيرة في تاريخ هذه الغزوة، فجنح البخاري إلى أنها بعد خيبـر، وذهب ابن إسـحاق إلى أنها بعد النضير وقبل الخندق سـنة أربع، وعند ابن سـعد وابن حبان أنها كانت في المحرم سـنة خمس، وأما أبو معشـر فجزم أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر، لأن أبا موسـى الأشـعري شهدها، وقد قدم من الحبشـة بعد فتح خيبر مباشرة، وأبو هريرة شـهدها وقد أسـلم حين فتح خيبر، وقد سـميت غزوة ذات الرقاع، كما سميت بغزوة نجد، وغزوة بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان.

وقد اقترب المسلمون من جموع غطفان دون أن يقع قتال بينهم، ولكن أخافوا بعضهـم، حتى صلى المسـلمون صلاة الخوف في مكان يبعـد من المدينة يومين، يدعـى نخـلًا، ثم عـادوا إلى المدينـة، وقد اختلف في سـبب تسـميتها بغزوة ذات الرقاع، لكن أبا موسـى الأشـعري ذكر أنها سـميت بذلك، لأنهم لفّوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، وكان لكل ستة بعير يتعاقبون على ركوبه[(٢)].

وهذه الأحداث لم تحظ باهتمام كبير عند قدامى المؤرخين، حيث طغت عليها أخبار إرسال الرسل لدعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام[(٣)]، وفتح خيبر، وتوجه المسلمين إلى مكة في عمرة القضاء.

(١) صحيح البخاري: فتح الباري ٧/ ٤٥٨.
(٢) فتح الباري ٧/ ٤١٦ - ٤٢١.
(٣) كان ذلك عقب عودته ﷺ من الحديبية، وقد أرّخ ابن سـعد إرسـالهم، وهم ستة رسل في يوم واحد في المحرم سـنة سـبع (طبقات ١/ ٢/ ١٥ط. أوروبا) وتابعه ابن القيم (زاد المعاد ١/ ٣٠) في حين يقدم الطبري تاريخ إرسالهم قليلاً فيجعله في ذي الحجة سنة ٦هـ (تاريخ الطبري ٢/ ٢٢٨).

وعلى أي حال فإن سقوط خيبر فسح المجال أمام المسلمين للسيطرة على المناطق الشمالية المتاخمة للشام، ويبدو أن غزوة ذات الرقاع التي اتجهت إلى غطفـان - وهي القوة الثانية في المنطقة بعـد يهود خيبر - كانت ضمن خطتهم هـذه، وقـد أعقبها غـزوة مؤتة في هذا الاتجـاه ولكن اهتمام المسـلمين بزيارة الكعبة وأداء عمرة القضاء أخّر إرسال جيش مؤتة قليلاً.

*****

obeikandl.com

عمرة القضاء

وفي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة خرج الرسول ﷺ إلى مكة قاصدًا العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية[١]، حيث اشترطوا «ألا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها»[٢] وقاضاهم أن يقيموا بمكة ثلاثة أيام ثم يخرج عنها[٣]. وقد ذكر موسى بن عقبة أن المسلمين صحبوا معهم أسلحتهم خشية من غدر قريش، وأنهم أبقوها خارج الحرم[٤]. وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان فيهم الذين شهدوا الحديبية[٥]، ولما دخل الرسول ﷺ مكة كان عبدالله بن رواحة يمشي بين يديه وينشد:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله[٦]

وطاف المسلمون بالكعبة وأمرهم الرسول ﷺ أن يُظهروا القوة والجَلَد في طوافهم، لأن قريشًا أشاعت أنهم ضعفاء «قد وهنتهم حمى يثرب»، فأرملوا

---

(١) ابن حزم: جوامع السيرة ٢١٩، وهو قول ابن إسحاق وموسى بن عقبة ويعقوب بن سفيان بسند حسن عن ابن عمر (فتح الباري ٧/ ٥٠٠).

(٢) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٤٤٩).

(٣) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٤٤٩).

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٤٩ - ٥٠٠ ولم يسند موسى بن عقبة الخبر.

(٥) ذكره الحاكم في الإكليل دون إسناد (فتح الباري ٧/ ٥٠٠).

(٦) الترمذي وقال: حديث حسن غريب (فتح الباري ٧/ ٥٠٢).

وسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى[١]، وكانت قريش قد تركت مكة إلى جبل قعيقعان تنظر إليهم يطوفون[٢] ويتعجبون من قوتهم، وقعيقعان يواجه ما بين الركنين من الكعبة.

ولما انتهت الأيام الثلاثة جاء المشركون إلى علي رضي الله عنه فقالوا: (قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ)[٣]. وقد نزل في عمرة القضاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٤].

ومن الأحكام التي اتضحت في هذه العمرة حكم من اعتمر فصد عن البيت، فقال الجمهور: يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه، وتحقيقه هل كانت عمرة القضاء قضاء لعمرة الحديبية التي لم تتم أم شروعًا في عمرة جديدة؟.

ومن الأحكام المتعلقة بالرضاعة قصة عمارة بنت حمزة بن عبدالمطلب، حيث لحقت وهي طفلة بالرسول ﷺ عند خروجه من مكة، فأخذها عليٌّ رضي الله عنه ودفعها لفاطمة رضي الله عنها، وهي ابنة عم أبيها، فاختصم فيها زيد بن حارثة لأخوَّته لحمزة (بالمؤاخاة) وجعفر بن أبي طالب لأن خالتها زوجه، وعلي بن أبي طالب، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». لأن جعفر محرم لها، إذ لا يجمع الرجل بين المرأة وخالتها في الزواج[٥].

---

(١) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٥٠٨ - ٥٠٩) وانظر مسند أحمد رقم ٣٥٣٦ (من ط أحمد شاكر) بإسناد صحيح.

(٢) السابق نفسه.

(٣) رواه البخاري (فتح الباري ٧/ ٤٩٩).

(٤) سورة الفتح: ٢٧.

(٥) فتح الباري ٧/ ٥٠٥.

من كتاب «الرسول القائد» لمحمود شيت خطاب

غزوة مؤتة

ينفـرد الواقدي بذكر السـبب المباشـر لهذه الغزوة، وهو أن شـرحبيل بن عمرو الغسـاني، قتل صبرًا الحارث بن عمير الأزدي الذي أرسله الرسول ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تقتل، فغضب رسول الله ﷺ وأرسل الجيش إلى مؤتة[١]. والواقدي ضعيف لا يعتمد عليه خاصة إذا انفرد بالخبر.

والحق أن البحث عن الأسـباب المباشرة لغزو القبائل العربية في أطراف الشام لا يؤثر على تفسير الأحداث كثيرًا، لأن تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار فـي إخضـاع القبائل العربية وتوسـيع رقعة الدولة الإسـلامية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة. فكان لابد من إخضاع الدويلات العربية النصرانية الموالية للروم، ومن ثم سبق الروم في التحرك في المنطقة قبل قيامهم بعمل ضد الدولة الإسلامية الفتية.

وقـد أقام الرسـول ﷺ بالمدينة بعـد عودته من عمرة القضاء بقية شـهر ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول والثاني، وفي جمادى الأولى بعث[٢] جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى الشام[٣]، وعين زيد بن حارثة أميرًا عليه، فإن أصيب زيـد فجعفـر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبدالله بن أبـي رواحة [٤]. مما يدل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب[٥]. وهذه هي المرة الأولى

(١) ابن سعد: الطبقات ١/ ٢/ ١٧، وابن حجر: الإصابة ١/ ٥٨٩، وفتح الباري ٧/ ٥١١.
(٢) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٧) ط محمد محيي الدين عبدالحميد.
(٣) من مرسل عروة بن الزبير (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٧) وإسناد ابن إسحاق إلى عروة حسن.
(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٥١٠ وابن إسـحاق: من مرسـل عروة (سـيرة ابن هشام ٣/ ٤٢٧).
(٥) فتح الباري ٧/ ٥١٣.

التي يتخذ فيها مثل هذا الاحتياط، وربما كان متوقعًا أن تحف الأخطار هذه الحملة لوجهتها البعيدة، ولعدم وقوع احتكاك سابق بمناطق تخضع لنفوذ دولة قوية كالإمبراطورية البيزنطية، التي كانت قبائل الشام وأطرافها موالية لها سياسيًّا.

وقد وصل الجيش إلى معان عندما وصلته أخبار نزول هرقل بأرض مآب -وهي البلقاء- في مئة ألف من الروم ومئة ألف أخرى من نصارى العرب لخم وجذام وقضاعة (بهراء وبلي وبلقين)، فأمضى المسلمون ليلتين في معان يتشاورون في أمرهم، وبعضهم يرى مكاتبة الرسول ﷺ وإخباره بقوة العدو ليمدهم أو يأمرهم بأمره. فشجع عبدالله بن رواحة الجيش، وقال: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة»[1].

وأحدثت كلماته أثرها فدب الحماس في الجيش، وفقدت آراء المتريثين قوتها، فاندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك بيسير، حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجل فيها القادة الثلاثة بطولات عظيمة انتهت باستشهادهم، فشاط زيد بن حارثة في رماح الروم فاستشهد، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فعقر فرسه الشقراء وقاتل بالراية فقطعت يمينه، فأمسكها بشمال فقطعت، فاحتضن الراية حتى استشهد، فأخذ الراية عبدالله بن رواحة فتردد يسيرًا ثم اندفع، فقاتل حتى استشهد، فأخذ الراية ثابت ابن أرقم ونادى في المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا، فاختاروا خالد بن الوليد، وقد أدرك خالد خطورة الموقف، فأعاد تنظيم جيشه ، وبدل الميسرة بالميمنة، وجعل قسمًا من الجيش يتقدمون من الخلف، وكأنهم أمداد جديدة لإيهام

(١) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٠).

الـروم، وتمكن خلال ذلك من القيام بانسـحاب منظم لم يفقده إلا اليسـير من جنده، حيث سمت المصادر ثلاثة عشر شهيدًا فقط[١].

ويعد هذا الانسـحاب المنظم الناجح فتحًا عظيمًا، حيث تمكن خالد من إنقاذ جيشـه بخسـائر طفيفة مع الإثخـان في الروم وإصابتهـم بقتلى وجرحى، ولا شـك أن استبسال المسـلمين في القتال وشجاعتهم النادرة وحرصهم على الشـهادة بالإضافـة إلى عبقرية خالد العسـكرية هو الذي مكنهـم بعون الله من الخلاص من المأزق.

لقـد وجد في جسـد جعفر بن أبي طالـب أكثر من تسـعين إصابة بالرماح والسهام[٢]، وما أقعده ذلك عن القتال حتى الرمق الأخير!!

وقد انكسرت تسعة أسياف في يد خالد بن الوليد[٣].

ومـن معجزاته عليه الصلاة والسـلام أنـه أخبر أصحابه باستشـهاد القادة الثلاثة، وعيناه تذرفان بالدموع قبل أن يأتيه الرسـول بالخبر، وأخبرهم باستلام خالـد للراية، وبشـرهم بالفتح على يديـه[٤]. والمراد بالفتح فـي هذا الحديث الصحيح: إما الانسـحاب المنظم الناجح، وإما ما أوقعه المسـلمون بالروم من خسائر برغم تفوقهم العددي الكبير.

---

(١) سـيرة ابن هشـام ٣/ ٤٣٠ - ٤٤٧ وابن حزم: جوامع السـيرة ص ٢٢٠ - ٢٢٢ ولم يسند ابن إسـحاق قصة الوقعة سـوى عقر جعفر بن أبي طالـب لفرسه، وخبر تردد ابن رواحة ثم إقدامه، حيث ساقهما بإسناد حسن، وفيه جهالة اسم الصحابي ولا تضر.

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٥١٠).

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ٥١٥).

(٤) المصدر السابق نفسه ٧/ ٥١٢.

وبرغم نجاح الانسحاب، فقد صاح الناس في وجوههم- وهم يحثون في وجوههم التراب- «يافرار فررتم في سبيل الله!! فقال الرسول ﷺ: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله»[١]. ولا شك أن موقف الرأي العام يعبر عن مدى عمق الوعي الإسلامي في تلك المرحلة.

وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام مكانة شهداء مؤتة عند الله تعالى بقوله: «ما يسرني. أو قال: ما يسرهم أنهم عندنا»[٢]، أي: لما نالهم من عظيم التكريم. وجيء بأبناء جعفر بن أبي طالب فداعبهم، وأمر بحلق رءوسهم، ودعا لهم، وقال لأمهم وهي تذكر يتمهم: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[٣]!! ولا شك أن المسلمين أفادوا دروسًا وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم، حيث تعرفوا على قوتهم وعددهم وأساليب قتالهم وخططهم وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها.

*****

(١) ابن إسحاق بسند حسن إلى عروة لكنه مرسل ضعيف (سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٨).

(٢) صحيح البخاري ٦/ ١٣٥.

(٣) مسند أحمد حديث ١٧٥٠ (ط شاكر) بإسناد صحيح.

غزوة ذات السلاسل

ولم تمض سوى أيام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة، حتى جهز النبي ﷺ جيشًا بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، وذلك لتأديب قضاعة، التي غرّها ما حدث في مؤتة، التي اشتركت فيها إلى جانب الروم، فتجمعت تريد الدنو من المدينة، فتقدم عمرو بن العاص في ديارها ومعه ثلاث مئة من المهاجرين والأنصار، وأمره الرسول ﷺ أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بليّ وعذرة وبلقين عليها، وقد بلغ عمرو بن العاص أن جموعها كبيرة، فاستمد الرسول ﷺ فأمده بمئتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح.

ويذكر عامر الشعبي (ت ١٠٣هـ) أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين، وعمرو بن العاص على الأعراب، وطلب منهما أن يتطاوعا، وأن الجيش أرسل ضد بني بكر، لكن عمرو بن العاص أغار على قضاعة(١).

وقد توغل الجيش في ديار قضاعة التي هربت وتفرقت، وقد أعادت هذه الحملة الهيبة للمسلمين في هذه المنطقة، تلك الهيبة التي كانت أحداث غزوة مؤتة قد زعزعتها(٢).

وفيها صلى عمرو بن العاص بالمسلمين بعد أن تيمم من الجنابة، حيث خاف على نفسه المرض إذا اغتسل بسبب البرد، وقد أقرّ النبي ﷺ اجتهاده حين بلغه(٣).

---

(١) الرواية ساقها الإمام أحمد بإسناد صحيح إلى عامر الشعبي، لكنه أرسلها، والمرسل من أنواع الضعيف عند المحدثين، وكان عامر الشعبي من المعنيين بالمغازي، حتى شهد له بذلك عبدالله بن عمر (تهذيب التهذيب ٥/ ٦٧).

(٢) زاد المعاد ٣/ ١٥٧، نقلا عن ابن سعد دون إسناد. وابن حجر: فتح الباري ٨/ ٧٤ - ٧٥.

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود والدارقطني والحاكم والبيهقي (الألباني: صحيح سنن أبي داود رقم ٣٦٠، ٣٦١). وأخرجه الإمام أحمد: المسند ٤/ ٢٠٣، بإسناد فيه ابن لهيعة.

ويدل تأمير عمرو بن العاص على أبي بكر وعمر على جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية[١].

وإذا كانت حملات المسلمين العسكرية قد اتجهت نحو الشمال منذ صلح الحديبية الذي أوقف حملاتهم نحو الغرب والجنوب الغربي، حيث تقبع مكة آمنة في ظلال الصلح، فإن ذلك لم يدم طويلاً، حيث لم تقدّر قريش نعمة الأمن والسلم، فبادرت إلى نقض الصلح، مما أدى إلى عودة النشاط الإسلامي العسكري إلى سابق عهده نحو مكة وما حولها.

*****

(١) فتح الباري ٨/ ٧٥.

obeikandl.com

فتح مكة

لقد ارتكبت قريش خطأً فادحًا عندما أعانت بالخيل والسلاح والرجال حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين، فأوقعوا بها الخسائر على ماء بأرض خزاعة يدعى الوتير، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأنشد أبياتًا من الشعر أمام الرسول ﷺ يستنصره، فقال الرسول ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»(١).

ويذكر ابن إسحاق أن بني بكر ألجأوا خزاعة إلى الحرم وقاتلوها فيه(٢)، ويذكر الواقدي أن قتلى خزاعة بلغوا عشرين رجلاً(٣). وقد أوضح موسى بن عقبة أن الذين أعانوا بكرًا على خزاعة من زعماء قريش فيهم صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، ويذكر أن الإعانة كانت بالسلاح والرقيق(٤).

وتصرف قريش هذا نقض صريح لمعاهدة الحديبية، وعدوان سافر على حلفاء المسلمين، وقد أدركت قريش خطورة الموقف، وتشير بعض الروايات إلى أن الرسول ﷺ أرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بكر أو القتال، فاختارت القتال، ثم ندمت، وأرسلت أبا سفيان

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٧٨ من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وله شاهد ضعيف في الطبراني: المعجم الصغير ٢/ ٧٣ لضعف يحيى بن سليمان الخزاعي، وشاهد آخر في مسند أبي يعلى الموصلي ٤/ ٤٠٠، في سنده حزام بن هشام الخزاعي شيخ، محله الصدق، وأبوه تابعي مجهول الحال وقد وثقهما ابن حبان (الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٦٢).

(٢) السيرة النبوية ٢/ ٣٨٩ دون إسناد.

(٣) الواقدي: المغازي ٢/ ٧٨٤ بإسناد ضعيف جدًّا.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٨١ من رواية موسى بن عقبة دون إسناد.

إلى المدينة يطلب تجديد المعاهدة، لكنه فشل في الحصول على وعد بتجديد المعاهدة[١].

وأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتجهز للغزو، ولم يعلمهم بوجهته، وحرص على السرية، لئلا تستعد قريش للقتال[٢]. وقد استنفر القبائل التي حول المدينة: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، وقد بلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل[٣]. «وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد»[٤]. مما يدل على طاقة المسلمين العليا في حشد الجيوش في هذه المرحلة. وكان في الجيش ألف من مزينة وألف من سليم (أو سبع مئة)[٥].

وهذا العدد الكبير يدل على تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة.

وقد أرسل حاطب بن أبي بلتعة – وهو صحابي بدري – كتابًا إلى قريش يخبرها بأن المسلمين يريدون غزوها، وحملت الكتاب امرأة عجوز، فأرسل النبي ﷺ عليًا والزبير والمقداد، فأمسكوا المرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب، فسلمته لهم «فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ،

(١) ابن حجر: المطالب العالية ٤/ ٣٤٣ من مرسل محمد بن عباد بن جعفر بإسناد إليه صحيح. وفتح الباري ٨/ ٦ من رواية محمد بن عائذ الدمشقي من حديث ابن عمر وقارن بابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٨١ والواقدي: المغازي ٢/ ٧٨٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٨٣ من رواية ابن إسحاق بإسناد صحيح.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٢/ ٣٩٧ دون إسناد.

(٤) ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته (سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٩).

(٥) المصدر السابق.

إني كنت امرأً ملصقًا في قريش، يقول: كنت حليفًا، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين، من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا، يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ إلى آخر قوله ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[(١)][(٢)].

وبذلك شرع الله عداوة الكفار ومصارحتهم ومنع موالاتهم وصداقتهم.

وفي حادثة حاطب هذه تظهر معجزة الرسول ﷺ حيث أخبر بأمر المرأة وكتاب حاطب الذي أرسله معها. وفيها حكم الجاسوس وجواز هتك ستره، وأنه بارتكابه هذه الكبيرة لا يكفر.

وقد خرج النبي ﷺ من المدينة في رمضان سنة ثمان للهجرة، وكان المسلمون صياما حتى بلغوا كديدًا - وهي عين جارية تبعد عن مكة ٨٦ كيلاً، وبينها وبين المدينة ٣٠١ كيل - فأفطروا[(٣)].

---

(١) سورة الممتحنة ١.

(٢) البخاري: صحيح ٤/ ٧٢، ٥٧٩، ٩/ ٢٣ وصحيح مسلم ٢/ ١٧٠.

(٣) البخاري: صحيح ٥/ ١٨٥ وفتح الباري ٤/ ١٨٠ - ١٨١. والنووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٣/ ١٧٣ وقد حدد المسافات بالمراحل والأميال.

openkandil.com

وقد استخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري[١]

وقد وصل الجيش الإسلامي إلى مر الظهران دون أن تعلم قريش بتحركه، وكان خروجه من المدينة لعشر خلون من رمضان، ودخوله لتسع عشرة خلت منه، وهو المشهور في كتب المغازي[٢]. وقد وقع اختلاف في تاريخ الفتح ما بين ثلاث عشرة وست عشرة وسبع عشرة وثماني عشرة من رمضان، واتفقوا أنه في رمضان سنة ثمان[٣].

وفي طريق المسلمين إلى مكة قدم بعض زعماء المشركين، فأعلنوا إسلامهم، ففي الأبواء قدم أبو سفيان بن الحارث أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فأسلما. وكانا شديدين في معاداة الإسلام، فكان أبو سفيان بن الحارث يهجو المسلمين ويقاتلهم في سائر الحروب عشرين سنة، حتى قذف الله في قلبه الإسلام، وحسن إسلامه، فكان أحد الذين صمدوا مع الرسول ﷺ في غزوة حنين حين فر الناس[٤]. وكان عبدالله بن أبي أمية شديد العداوة للمسلمين، وهو أخو أم سلمة -أم المؤمنين- لأبيها، وقدم على الرسول ﷺ بين السقيا والعرج على طريق (المدينة - مكة)، فأسلم وحسن إسلامه، فشهد فتح مكة، واستشهد في حصار الطائف[٥].

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٩ من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته، وقد صححه الحافظ ابن حجر (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ٤/ ٢٤٨). وصححه الحاكم، وقال: إنه على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٤٤)، ولكن ابن إسحاق ليس على شرطهما، وقد أخرج له مسلم في المتابعات فقط.

(٢) النووي: شرح مسلم ٣/ ١٧٦.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤٥٢، ٤٥٣ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٣٨.

(٤) مستدرك الحاكم ٣/ ٤٣ - ٤٥ بإسناد حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤٠٠ وتاريخ الطبري ٣/ ٥٠، وانظر قصيدته في إسلامه في صحيح مسلم ٢/ ٣٩٥.

(٥) ابن عبد البر: الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٢/ ٢٦٣.

وفي الجحفة - قرب رابغ الآن- قدم العباس بن عبدالمطلب على الرسول ﷺ مهاجرًا[(١)]، وكان العباس قد أسلم قبل فتح خيبر[(٢)]، وقد وردت روايات ضعيفة تبين إسلامه قبل بدر[(٣)]. بل قبل الهجرة إلى المدينة[(٤)]. ويرد ذلك أن النبي ﷺ طالبه بأن يفتدي عندما أسر ببدر، ولا شك أن العباس قدم خدمات جليلة للإسلام قبل دخوله فيه، فقد كان يوافي الرسول ﷺ بأخبار قريش، وكان ملاذًا للمسلمين المستضعفين بمكة.

وفي مر الظهران عسكر المسلمون وعميت أخبارهم عن قريش، فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي يتحسسون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبدالمطلب، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم أن يخرجوا لمصالحة الرسول ﷺ قبل أن يدخل عليهم مكة، وكان أبو سفيان وصاحباه يتناقشون بينهم في أمر الجيش المعسكر بمر الظهران، وقد ظنه بعضهم «خزاعة»، مما يدل على نجاح المسلمين في كتمان خبر تقدمهم إلى مكة، فلما أخبرهم العباس بأنه جيش المسلمين، سألوه عن رأيه، فطلب من أبي سفيان أن يمضي معه وبجواره إلى معسكر المسلمين، فوافق، وقابل الاثنان الرسول ﷺ، فدعا أبا سفيان للإسلام، فتلطف في الكلام وتردد في الإسلام، فأمر الرسول ﷺ العباس بأن يأخذه إلى خيمته، ويحضره في صباح اليوم التالي، ففعل وأسلم أبو سفيان في اليوم التالي، وأطلعه العباس

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٠ نقلا عن الزهري دون إسناد.

(٢) عبدالرزاق: المصنف ٥/ ٤٦٦ وأحمد: المسند ٢١/ ١٢٢ والفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، وقال ابن كثير: هذا الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي (البداية والنهاية ٤/ ٢١٧).

(٣) طبقات ابن سعد ٤/ ١٠ وفي إسناده حسين بن عبدالله الهاشمي ضعيف، و ٤/ ١١ وفي إسناده الواقدي متروك وابن أبي سبرة لا يحتج به.

(٤) طبقات ابن سعد ٤/ ٣١ وفي إسناده الواقدي متروك وابن أبي حبيبة ضعيف والسند منقطع.

علـى قوة المسـلمين، حيـث اسـتعرض الجيش أمامه، فـأدرك أبو سـفيان قوة المسلمين، وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار وفيهم رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذاً.

ومضى أبو سـفيان إلـى مكة، فأخبر قريشًـا بقوة المسـلمين، ونهاهم عن المقاومة(١).

وكان سعد بن عبادة يحمل راية الأنصار عند استعراض الجيش، فقال لما مر بأبي سـفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسـتحل الكعبة، فاشـتكى أبو سفيان للرسـول ﷺ من قولة سـعد، فقال الرسول ﷺ: «كذب سـعد، ولكن هذا يوم يعظـم الله فيـه الكعبة، ويوم تُكسـى فيه الكعبـة»(٢). وأخذ الراية من سـعد بن عبـادة فدفعها إلى ابنه قيس، ثم كلم سـعد الرسـول ﷺ أن يأخـذ الراية من ابنه قيس مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه(٣).

وفـي مر الظهـران قرر النبـي ﷺ الزحف علـى مكة، فعين القادة وقسـم الجيش إلى ميمنة وميسـرة وقلـب، فكان خالد بن الوليد علـى المجنبة اليمنى والزبير بن العوام على المجنبة اليسـرى، وأبو عبيدة على الرجالة، وكانت راية الرسول ﷺ سوداء ولواؤه أبيض(٤).

---

(١) ابـن حجر: المطالب العالية ٤/ ٢٤٤ من رواية إسـحاق بن راهويـه، وقال ابن حجر: هذا حديث صحيـح، والطحاوي: شـرح معانـي الآثار ٣/ ٣٢٢ وقـال: هذا حديث متصل الإسـناد صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث. وهي توافق ما في صحيح البخاري ٥/ ١٨٦ وإن كان فيها تفصيل أكبر.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٨٦. و«كذب» كانت تستعمل بمعنى «أخطأ».

(٣) ابن حجر: مختصر زوائد البزار ٢٤٨. وقال: صحيح.

(٤) سنن ابن ماجة ٢/ ٩٤١ بإسناد حسن لذاته.

وقد فصّل الواقدي الكلام عن توزيع الرايات وحملتها، وذكر أن عدد المقاتلين من المهاجرين سبع مئة ومن الأنصار أربعة آلاف، ومن سليم أربع مئة، ومن جهينة ثمان مئة، ومن بني كعب بن عمرو خمس مئة، ومجموع هؤلاء سبعة آلاف وأربع مئة مقاتل، وأن خيل هؤلاء المقاتلين بلغت تسع مئة، وثمانين[١]. وما ذكره من العدد يخالف الروايات الصحيحة، والواقدي متروك فلا يعول عليه خاصة إذا خالف غيره.

وقد جمعت قريش جموعًا من قبائل شتى ومن أتباعها لحرب المسلمين، وقصدت من ذلك أن تحمي أنفسها، فإن أحرزوا نصرًا أعانتهم وإلا صالحت المسلمين. فأمر الرسول ﷺ بقتالهم، ودخلت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه، ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها من جهة كداء[٢]، ودخل خالد بن الوليد من أسفلها[٣]. وكانت مقاومة القرشيين يسيرة، حيث ذكر ابن إسحاق أن عدد قتلى المسلمين في الخندمة، حيث التحم خالد ابن الوليد مع بعض المشركين في قتال بلغ ثلاثة من الفرسان، في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلاً[٤]. وذكر موسى بن عقبة أن قتلى المشركين بلغوا قريبًا من أربعة وعشرين[٥]. وقال الواقدي: إنهم بلغوا ثمانية وعشرين[٦]. وقد ذكرت رواية ضعيفة أوردها الطبراني أن قتلى المشركين بلغوا سبعين قتيلاً[٧].

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٩٩، ٨٠١.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٨٩.

(٣) فتح الباري ٨/ ١٠.

(٤) السيرة النبوية ٢/ ٤٠٧ من رواية ابن إسحاق عن اثنين من ثقات شيوخه مرسلاً، والحاكم: المستدرك ٣/ ٢٤١. وقد ذكر البخاري اثنين من شهداء المسلمين فقط.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٢٠ بإسناد فيه من لم أقف على ترجمته، وهو من مراسيل موسى بن عقبة.

(٦) مغازي الواقدي ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٩ دون إسناد.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٩٧ وفي إسناده شعيب بن صفوان الثقفي مقبول، فالرواية ضعيفة.

وأقوى هذه الروايات ما ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة، فهما أوثق كُتَّاب المغازي، ومغازي ابن عقبة أوثق بالجملة من سيرة ابن إسحاق كما أن أبا سفيان أشار إلى كثرة القتلى من قريش، فربما ترجح هذه القرائن رواية موسى بن عقبة.

فقد قال أبو سفيان للرسول ﷺ: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم»، مما يشير إلى كثرة القتلى، فقال الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق آخرون أبوابهم.

وقد خشى الأنصار أن يكون الأمان الذي أعطي لقريش دليلا على رأفة النبي ﷺ بقومه، ورغبة في البقاء بمكة، فطمأنهم الرسول بقوله: «المحيا محياكم، والممات مماتكم»[1].

وكان الرسول ﷺ قد أمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم، وأعلن الأمان للناس سوى أربعة رجال وامرأتين، أباح دماءهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وقد قتل عبدالله بن خطل[2] وهو متعلق بأستار الكعبة، وقتل مقيس بن صبابة في سوق مكة، وتمكن عكرمة ابن أبي جهل وعبدالله بن سعد بن أبي سرح من الوصول إلى رسول الله ﷺ، حيث أعلنا إسلامهما، وحقنا بذلك دمهما[3].

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٩٥، ٩٦، ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) كان ابن خطل قد أسلم ثم قتل أحد المسلمين وارتد عن الإسلام، وفي قتله وهو متعلق بأستار الكعبة ما يدل على أن الكعبة لا تعيذ عاصيًا مستحقًا للحد الشرعي. (سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٠ من طريق ابن إسحاق دون إسناد).

(٣) النسائي: السنن (السيوطي: زهر الربا ٧/ ١٠٥) وفي إسناده ضعف. وللحديث شاهدان رواهما البيهقي، أحدهما في (ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٩٩ بإسناد فيه الحكم بن عبدالملك البصري ضعيف. ويذكر «عبدالعزى بن خطل» بدل «عبدالله بن خطل» - وفي اسمه خلاف - و «أم سارة» بدل «عكرمة») والآخر في السنن الكبرى ٩/ ١٢٠ وفيه عمرو بن عثمان المخزومي مقبول ويذكر «الحويرث بن نقيذ» بدل «عكرمة» وبرغم أن هذه الروايات ضعيفة لكنها تتضامن لإسناد الخبر تاريخيًا، وخبر مقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة في الصحيحين (صحيح البخاري ٥/ ١٨٨ وصحيح مسلم ١/ ٥٧٠).

وقد جمع الحافظ ابن حجر أسماء الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم من مفرقات الأخبار، فبلغ عدد الرجال تسعة وعدد النساء ثماني[١]. وهؤلاء الذين أهدرت دماؤهم كانوا ممن ألحق الأذى الشديد بالمسلمين، فكان في إهدار دمهم عبرة لمن تسول له نفسه الظلم والطغيان، على أمل أن ينجو من العقاب، طمعا في رحمة الإسلام وطيبة أتباعه.

وقد أباح النبي ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من فتح مكة حتى العصر، وذلك لما كان من غدر بني بكر بخزاعة قبل الفتح برغم دخولها في صلح الحديبية.

فلما كان العصر أعلن وقف أي قتال بمكة وأوضح حرمتها، فلما قتلت خزاعة رجلا تطلبه بثأر وداه الرسول ﷺ، وبيّن أن من قتل بعد ذلك قتيلاً فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية[٢].

وأما عامة أهل مكة فقد نالهم عفو عام برغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، وبرغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»[٣]. وقد نزلت الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري ٨/ ١١، ١٢.

(٢) رواه أحمد في المسند (الفتح الرباني ٢١/ ١٥٩) بإسناد حسن لذاته. وانظر رواية مكملة في المسند ٤/ ٣٢ بإسناد حسن، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث. وانظر رواية أخرى في المسند ٤/ ٣١، وفيها مسلم بن يزيد السعدي مقبول، وقد توبع فقويت روايته إلى الحسن لغيره.

(٣) أبو عبيد: الأموال ١٤٣ بإسناد حسن، لكنه مرسل، وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢ من رواية ابن إسحاق بإسناد فيه جهالة.

(٤) سورة النحل ١٢٦.

فاختار الرسول ﷺ أن يعفو عنهم، ويصبر على ما كان منهم، ويدع عقوبتهم تفضلًا منه واحتسابًا، فقال: نصبر ولا نعاقب(١)

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها(٢)! فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية في حين أن أدلة المانعين مرسلة وموقوفة(٣).

ولم ينزل رسول الله ﷺ في بيته بمكة، بل ضربت له قبة في الحجون - في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين- وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: (وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟) مبينًا أنه لا يرث المسلم الكافر(٤)، وكان عقيل قد ورث أبا

---

(١) أحمد: المسند٥/ ١٣٥ والترمذي: سنن ٤/ ٣٦١، ٣٦٢ والطريقان يعتضدان إلى الحسن، ففي إسناد أحمد هدية المروزي صدوق ربما وهم، وفي إسناد الترمذي الربيع بن أنس صدوق له أوهام، وعيسى بن عبيد الكندي صدوق، وقد قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٩).

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٩٤ وقال: إنه مذهب مجاهد وعطاء في أهل مكة، ومالك في أهل المدينة، وأبي حنيفة في أهل العراق، وسفيان الثوري، والإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه.

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٩٤.

(٤) البخاري: صحيح ٥/ ١٨٧ ومسلم: صحيح ١/ ٥٦٧.

طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها. وأما علي وجعفر فلم يرثاه، لأنهما مسلمان وأبو طالب مات كافرًا[١].

ولم يدخل الرسول ﷺ مكة دخول الفاتحين المتغطرسين، بل كان خاشعًا لله، شاكرًا لأنعمه، يقرأ سورة الفتح ويرجِّع في قراءتها[٢] وهو على راحلته، بل إنه لما طاف بالكعبة استلم الركن بمحجنه، كراهة أن يزاحم الطائفين وتعليمًا لأمته[٣].

وقد بين الرسول ﷺ حرمة مكة، وأنها لا تغزى بعد الفتح[٤]، كما أعلى من مكانة قريش، فأعلن أنه لا يقتل قرشي صبرًا بعد يوم الفتح إلى يوم القيامة[٥].

وقد أمر الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام، وتطهير البيت الحرام منها، وشارك في ذلك بيده، فكان يهوي بقوسه إليها فتساقط، وهو يقرأ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٦]. وكانت ستين وثلاث مئة من الأصنام[٧]، ولطخ بالزعفران صور إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، وكانت هذه الصور داخل الكعبة، وقال: قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٥.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٨٧.
(٣) أبو داود: سنن ١/ ٤٣٤ بإسناد حسن لذاته. والمحجن عصا معقوفة. والهيثمي: مجمع الزوائد ٣/ ٢٤٤ من طريق الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح.
(٤) الترمذي: سنن ٣/ ٨٣ وقال عنه: حسن صحيح، وأحمد: المسند ٤١٢ بإسناد حسن لذاته.
(٥) صحيح مسلم ٢/ ٩٧ ومسند أحمد ٣/ ٤١٢ بإسناد صحيح.
(٦) صحيح مسلم ٢/ ٩٥، ٩٦، ٢٩٦، ٢٩٧.
(٧) صحيح البخاري ٥/ ١٨٨ وصحيح مسلم ٢/ ٩٧.

بالأزلام[١]. وفي رواية: أن صورة مريم كانت داخل الكعبة أيضًا[٢]. ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن محيت هذه الصور منها[٣]. ثم دخلها فصلى فيها ركعتين، وذلك بين العمودين المقدمين منها، وكانت مبنية على ستة أعمدة متوازية، وقد جعل باب الكعبة خلف ظهره، وترك عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه وثلاثة وراءه[٤]. ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة، وكانت الحجابة في بني شيبة في الجاهلية فأبقاها بأيديهم[٥]. ثم استلم الرسول ﷺ الحجر الأسود، وطاف بالبيت مهللًا مكبرًا ذاكرًا شاكرًا، وكان غير محرم وعلى رأسه المغفر ثم لبس عمامة سوداء مما يدل على جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يرد حجًا ولا عمرةً[٦].

وهكذا تم تطهير البيت العتيق من مظاهر الوثنية وأوضار الجاهلية، ليعود كما أراد له الله تعالى، وكما قصد ببنائه إبراهيم وإسماعيل مكانًا لعبادة الله وتوحيده.

ولا شك أن تطهير البيت من الأصنام كان أكبر ضربة للوثنية في أرجاء الجزيرة العربية، حيث كانت الكعبة أعظم مراكزها، وما أن تم فتح مكة وطُهِّرت الكعبة حتى أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى نخلة لهدم العزى، التي

(١) صحيح البخاري ٥/ ٨٨ ومسند أحمد ١/ ٣٦٥ بإسناد صحيح والبوصيري/ إتحاف الخيرة المهرة القسم الثالث من الجزء الثالث، ص١٠٩ من مسند أبي بكر بن أبي شيبة بإسناد حسن.
(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٨٨.
(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٢، ١/ ١٠٩، ١١٠ وصحيح مسلم ١/ ٥٥٦.
(٥) وردت في ذلك عدة أحاديث مرسلة ومنقطعة، تقوى بمجموعها، (انظر مصنف عبد الرزاق ٥/ ٨٣، ٨٤، ٨٥ وابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٩.
(٦) صحيح البخاري ٣/ ٢١ وصحيح مسلم ١/ ٥٧٠ وشرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٥٠٨.

كانت مضر جميعًا تعظمها فهدمها[١]. وأرسل عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل فهدمه[٢]. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل (ناحية قديد على طريق مكة - المدينة) فهدمها[٣] وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية، حيث ذكرها القرآن الكريم ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[٤].

وفي فتح مكة نزلت سورة النصر ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[٥] فقد كان العرب ينتظرون نهاية الصراع بين المسلمين وقريش، فلما كان الفتح أقبلت بجموعها، وبادرت لإعلان إسلامها[٦]. قال عمرو بن سلمة الجرمي: «وكانت العرب تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا، فإن ظهر عليهم فهو صادق ونبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم»[٧]. وعقب ابن إسحاق على حادثة الفتح بقوله: «وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٦، وطبقات ابن سعد ٢/ ١٤٥، ولم تثبت في القصص التي تدور حول هدمها رواية صحيحة.
(٢) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٤٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) سورة النجم ١٩، ٢٠.
(٥) صحيح البخاري ٥/ ١٨٩.
(٦) صحيح البخاري ٥/ ١٩١.
(٧) ابن سعد ١/ ٢، ص ٧٠.

لهم بحرب رسـول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال الله ﷻ أفواجًا يضربون إليه من كل وجه»(١).

وقد خطب الرسول ﷺ بمكة عدة خطب بيَّن في الخطبة الأولى - وكانت على باب الكعبة - دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثأراتها، واستثنى سقاية الحاج وسدنة البيت فاستبقاهما(٢).

وأعلـن في الخطبة الثانية إبطال أحـلاف الجاهلية إلا ما كان من المعاقدة على الخير ونصرة الحق وصلة الأرحام(٣).

ثم أعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشـجرها ولقطتها وتحريم القتال فيها، وبين أن الله تعالى أحلها له سـاعة وقت الفتح(٤)، وأوضـح أن لا هجـرة بعد فتح مكـة ولكن جهاد ونيـة(٥)، فلم تعـد الهجرة من مكـة إلى المدينة واجبًـا، وإن بقي حكمها من بلاد الكفر إلى بلاد الإسـلام إلى يـوم القيامة(٦). فقد شـرعت الهجـرة إلى المدينة ليعبد المسـلمون ربهم بأمان، وليقـوى كيان الإسـلام بالمدينة أمام خصومه، وليتمكنـوا من حماية الدولة، ثم توسـيع رقعتهـا عن طريق الجهـاد، والهجرة بعد فتح مكة لم تعـد ضرورة، فقد قـوي كيان الإسـلام، وصار وجود المسـلمين في ديارهـم أجدى لإقامة شـعائر الإسـلام، ونشـر هداه فـي سـائر الأرجاء، وأمـا الجهاد فبـاق إلى يـوم القيامة.

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٠.
(٢) مسند أحمد ٣/ ٤١٠ بإسناد حسن لذاته. وأبو داود: سنن ٢/ ٤٩٢ بإسناد صحيح.
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٤٠٩ ومسند أحمد ٢/ ٢١٥ وفي إسناده عبدالرحمن بن عبدالله بن عياش صدوق له أوهام.
(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٧ وصحيح مسلم ٢/ ٥٦٨.
(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٨، ٤/ ٢٨.
(٦) فتح الباري ٤/ ٤٩، ٧/ ٢٧٠.

ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة[١]. وقد بين ابن عمر رضي الله عنه ذلك بقوله: (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم، وخشي أن يفتن عن دينه[٢].

وأوضح في الخطبة الرابعة أن من قتل له قتيل فيخير بين أخذ الدية أو القصاص[٣].

وقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية خلال فتح مكة، من ذلك جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، حيث صام الرسول ﷺ في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدًا فأفطر[٤].

ومن ذلك صلاته عليه الصلاة والسلام صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة[٥]. فهي سنة مؤكدة.

ومن ذلك أن أحق المصلين بالإمامة أكثرهم حفظًا للقرآن[٦]

ومن ذلك تحديد مدة قصر الصلاة للمسافر، حيث أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يقصر الصلاة[٧].

(١) صحيح البخاري ٥/ ٧٢، ١٩٣ وصحيح مسلم ٢/ ١٤٠.
(٢) فتح الباري ٧/ ٢٧٠
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٨ صحيح مسلم ١/ ٥٦٩
(٤) صحيح مسلم ١/ ٤٥١
(٥) صحيح البخاري ٥/ ١٨٩ وصحيح مسلم ١/ ٢٨٩
(٦) صحيح البخاري ٥/ ١٩١
(٧) صحيح البخاري ٥/ ١٩٠

obeikandl.com

ومن ذلك إقرار أمان النساء وجوارهن، حيث أجازت أم هاني رجلين من أحمائها، فأمضى الرسول ﷺ جوارها[١]. وقد أجمع أهل العلم على أن أمان المرأة جائز[٢].

ومن ذلك تحريم نكاح المتعة بعد إجازته ثلاثة أيام فقط، ثم صار حرامًا إلى الأبد[٣]. وكان تحريم المتعة وإباحتها مرتين، فكانت حلالاً قبيل خيبر ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة، ثم حرمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريمًا مؤبدًا إلى يوم القيامة، واستمر التحريم[٤].

ومن ذلك بيان حكم أن (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وذلك من خلال قصة ابن وليدة زمعة. حيث تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة، فحكم به الرسول ﷺ لعبد بن زمعة، لأنه ولد على فراش أبيه[٥].

وحكم نكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله، كما حدث لصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وقد اعتبر عقد النكاح قائمًا بينهما وبين زوجتيهما، لأنهما أسلما قبل انقضاء عدة الزوجتين[٦].

ومنها حكم الوصية، وأنها لا تجوز في أكثر من ثلث المال، كما تدل قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه، حيث نهاه الرسول ﷺ أن يوصي بأكثر من الثلث[٧].

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٢٢

(٢) قاله الخطابي (عون المعبود ٧/ ٤٤).

(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٨٦، ٥٨٧.

(٤) النووي شرح صحيح مسلم ٣/ ٥٥٣.

(٥) صحيح البخاري ٨/ ١٩١.

(٦) موطأ مالك (الزرقاني: شرح الموطأ ٣/ ١٥٦ - ١٥٧) وسيرة ابن هشام ٢/ ٤١٧.

(٧) سنن الترمذي ٣/ ٢٩١ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وانظر فتح الباري ٥/ ٣٦٩.

obeikandi.com

ومنها أن للمرأة أن تأخذ من مال زوجها لنفقتها ونفقة أولادها بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة، كما في قصة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، حيث استفتت النبي ﷺ في ذلك[١].

ومنها تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام[٢].

ومنها بيان حكم خضاب الشيب بالحناء أو الصفرة، كما في قصة أبي قحافة حيث أمر النبي ﷺ بتغيير شيبه[٣].

ومنها تحريم الشفاعة في حدود الله ﷻ بعد بلوغها للإمام، كما حدث في قصة المرأة المخزومية التي سرقت فقطعت يدها، وغضب النبي ﷺ من أسامة بن زيد، لأنه شفع لها. وقوله: (إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٤].

وفي هذا الحديث إقرار لمبدأ المساواة بين الناس أمام أحكام الشريعة، وتحذير للحكام من أن يقيموا الحدود على الضعفاء دون الأقوياء، الذين يحاولون بالوساطات والضغوط تخطي الأحكام.. ولا شك أن بقاء الدول واستقرار المجتمعات منوط بالدرجة الأولى بإقرار العدالة، وإنما يجد خصوم الدولة السبيل إلى هدمها من خلال الظلم، الذي يقع منها، فهو مبرر لاجتماع المظلومين وحافز للتضحية من أجل إسقاطها.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٠.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١١٠ وصحيح مسلم ١/ ٦٨٩، ٦٩٠
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٢٤٤.
(٤) صحيح البخاري ٥/ ١٩٢ وصحيح مسلم ٢/ ٤٧.

ونتيجة لفتح مكة تحول ثقل معسكر الشرك من قريش إلى قبيلتي هوازن وثقيف، اللتين سارعتا لملء الفراغ وقيادة المشركين لحرب الإسلام، فكانت غزوة حنين وحصار الطائف.

ويؤرخ ابن إسحاق سرية الطفيل بن عمرو الدوسي في أعقاب فتح مكة، حيث أحرق ذا الكفين صنم عمرو بن حُمَمَة[1].

*****

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٥ دون إسناد.

obeikandl.com

غزوة حنين

هوازن قبيلة عربية مشهورة من عرب الشمال، فهي مضرية عدنانية، تفرعت منها فروع كثيرة، منها ثقيف، وقد استقرت ثقيف في مدينة الطائف الحصينة وما حولها، في حين انتشرت بطون هوازن الأخرى في تهامة على ساحل البحر الأحمر، من حدود بلاد الشام الجنوبية إلى حدود اليمن الشمالية[(١)].

وفي ديار ثقيف كانت تقام أسواق العرب في الجاهلية منها سوق عكاظ الشهير بين نخلة والطائف، حيث تتم البيوع والمقايضات التجارية، وتعقد الندوات الأدبية والشعرية، ومنها سوق ذي المجاز قرب عرفات على بعد فرسخ منها من جهة الطائف، وسوق مَجَنَّة بمر الظهران التي تبعد عن الطائف، وتقرب من مكة[(٢)].

ولا شك أن الثقفيين كانوا يستفيدون فوائد عظيمة من أسواق العرب هذه، سواء في تجارتهم وتصريف نتاجهم الزراعي، حيث يمتلكون بساتين الأعناب والرمان والخضراوات. أو في رقيهم الأدبي وتفتح مداركهم حيث التلاقح الثقافي في هذه اللقاءات الموسمية المنظمة، وحيث يقومون بالوساطة في التجارة الخارجية بين الشام واليمن من ناحية وسكان البوادي من ناحية أخرى.

وقد تشابكت مصالح ثقيف وهوازن مع مصالح قريش تشابكًا وثيقًا بحكم الجوار. فمكة والطائف قريبتان من بعضهما، بينهما تسعون كيلاً فقط، وكان القرشيون يصطافون بالطائف، ويمتلكون فيها البساتين والدور، حتى

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٧٣، ٣/ ٢٠٤، ٤/ ٢١٦ - ٢١٧، ٥/ ٥٥، ٢١٦ - ٢٦٢، والحربي: كتاب المناسك ص ٥٣٢ - ٥٣٨، والبلادي: نسب حرب ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) المصادر السابقة نفسها.

سميت الطائف «بستان قريش»[١]، وقد وطَّد هذه العلاقات ما كان بين قريش وهوازن من صلات نسبية قديمة، توثقها المصاهرات المتجددة، فكلاهما من مضر الذي هو الجد السادس لهوازن والسابع أو الخامس لقريش، تبعًا لاختلاف النسابين[٢].

وإن نظرة إلى كتب معرفة الصحابة يمكن أن توضح تشابك العلاقات بين قريش وهوازن، نتيجة المصاهرات الكثيرة بين القبيلتين[٣]. ولتوثيق هذه الصلات نجد أن عروة بن مسعود الثقفي كان رسولا لقريش إلى المسلمين في الحديبية[٤].

فلا غرابة وقد تشابكت علاقة قريش وهوازن بهذا الوثوق أن تقف هوازن مع قريش في صراعها ضد المسلمين منذ المرحلة المكية، وأن يئول إليها حمل الراية ضد الإسلام بعد فتح مكة، لتملأ الفراغ إثر سقوط زعامة قريش لمعسكر الشرك في الجزيرة العربية.

فمنذ أن لجأ رسول الله ﷺ إلى ثقيف في الطائف يدعوهم بدعوة الإسلام، ثم يطلب منهم بعد رفضهم دعوته أن يكتموا ذلك، أبوا إلا أن يظهروا

---

(١) اشتهر في السيرة بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة القرشيين، والوهط بستان عمرو بن العاص، وذو الهرم مال أبي سفيان (معجم البلدان ٥/ ٣٨٦ ومغازي الواقدي ٣/ ٩٧١ وسيرة ابن هشام ١/ ٧٠٩)، وأخبار مكة للأزرقي ص ٧٠ والبلاذري: فتوح ص ٥٦.

(٢) ابن هشام: السيرة ١/ ١: ٩٣ وابن سعد: الطبقات ١/ ٥٥ وابن قتيبة: المعارف ص ٣١، ٥١ والطبري: تاريخ ٢/ ٢٦٢، والنويري: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٣٩٧.

(٣) راجع في كتب معرفة الصحابة والأنساب ترجمة ميمونة بنت الحارث، ولبابة الكبرى بنت الحارث، ولبابة الصغرى بنت الحارث، وصفية بنت حزن، وأم جميل بنت مجالد الهلالية، وزينب بنت أبي سفيان، وأم الحكم بنت أبي سفيان.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٧٠.

العداء الصريح، وأمروا صبيانهم فرشقوه بالحجارة.. إن قريشًا وهوازن أمرهم واحد، فمن خرج على قريش ودينها ومصالحها فقد خرج على دين هوازن وهدد مصالحها.

وكان رسول الله ﷺ يدرك أهمية إسلام ثقيف، لمكانتها العسكرية والاقتصادية، ولعلاقاتها الوثيقة بقريش، وقد سعى إلى دعوة زعمائها للإسلام، حتى بعد إخفاق رحلته إلى ثقيف، فالتقى بالعقبة وهو يعرض نفسه على زعماء القبائل بابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبه إلى الإسلام، مما أهمه حتى انطلق بعيدًا عن مكة، لا يتعرف في طريقه إلى داره لفرط الهم(٥).

وقد وقفت هوازن بعيدًا عن الصراع الذي احتدم بين قريش والمسلمين بعد الهجرة، ولعلها كانت تظن أن قريشًا تكفيها، وظلت ترقب المعارك في بدر وأحد والخندق دون أن تحرك ساكنًا، بل إن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقنعها بالرجوع عن المشاركة ببدر ما دامت تجاراتها قد سلمت(٦). وكان عروة بن مسعود الثقفي يطلب من قريش قبول الخطة التي عرضها عليها رسول الله ﷺ في الحديبية(٧). ولكن هذه المواقف الفردية تعبر عن حكمة بعض الثقفيين فقط، ولا تعبر عن موفق مسالم لثقيف وهوازن.

ويبدو أن عدم اشتراك ثقيف في الأحداث التي جرت حتى فتح مكة يرجع إلى اعتمادها على قريش، وضعف تصورها لحقيقة القوة الإسلامية. وليس معنى ذلك أن هوازن لم تشعر قط بخطر المسلمين قبيل فتح مكة، فقد كان موقف قريش مشعرًا بضعفها أمام المسلمين منذ اعترافها بهم ومعاهدتها معهم

(٥) صحيح البخاري ٤/ ٩١، ٩/ ٩٥ وصحيح مسلم ٣/ ١٤٢٠.
(٦) ابن حجر: الاصابة ١/ ٢٥.
(٧) صحيح البخاري ٣/ ١٧٠.

في الحديبية، واستمر موقفها يضعف مع الأيام ويعلو صوت الإسلام، وكانت معنوية قريش ضعيفة وقت فتح مكة، فلا شك أن جيرانها الثقفيين كانوا على قدر من الوعي بذلك، وكان بعض رجالهم قريبا من الأحداث، ولعل عدم نجدة هوازن وثقيف لقريش يرجع إلى نجاح المسلمين في كتمان هدف تحركهم. كما كانت هوازن تخشى على ديارها منهم، لذلك لم تبادر للدفاع عن مكة، ويشير الواقدي إلى أنهم أرسلوا عينا لهم لمعرفة إن كان المسلمون سيتوجهون إلى قريش أم هوازن، بل إن هوازن اتخذت موقف الاستعداد للمواجهة بجمع جموعها منذ أن تحرك المسلمون من المدينة، وقد تصورت أنها المقصودة(١). وأعان على هذا التصور غموض موقف المسلمين من مصير صلح الحديبية.

فلما فتحت مكة وسقطت الزعامة القرشية، حملت هوازن راية الشرك، وتحركت بسرعة لمواجهة الموقف خاصة أن الرسول ﷺ لم يوقف نشاط المسلمين العسكري بعد الفتح، بل أرسل السرايا منها سرية بقيادة خالد بن الوليد بثلاثين فارسًا نحو نخلة لهدم العزى فهدمها(٢)، وكانت بيتًا تعظمه العرب، وهي من ديار ثقيف(٣). وكان ذلك لخمس ليال بقين من رمضان كما أرسل سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا لست بقين من رمضان إلى مناة بالمشلل - وهي القديدية الآن- وكان صنمًا يعظمه العرب وخاصة الأنصار قبل إسلامهم، فهدمه سعد الأشهلي، وعاد إلى مكة(٤)، وقيل: إن عليًّا رضي الله عنه هو

---

(١) الطبري ٣/ ٧٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٣٦ وابن سعد: الطبقات ٢/ ١٤٥ والطبري: تاريخ ٣/ ٦٥ والمزي: تحفة الأشراف ٤/ ٢٣٥، حديث ٥٠٥٤ نقلا عن السنن الكبرى للنسائي لكن فيه الوليد بن جميع صدوق يهم. ولم تثبت في القصص التي تدور حول هدمها رواية صحيحة.

(٣) البلادي: نسب حرب ص ٣٨٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٤٦ - ١٤٧ والواقدي::المغازي ٢/ ٨٦٩، ٨٧٠.

الذي هدم مناة، أرسله رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى مكة قبل الفتح[١].

والروايتان ضعيفتان من الناحية الحديثية، فابن سعد ساقها دون إسناد ومصدره فيما يبدو شيخه الواقدي وهو ضعيف، وابن الكلبي ضعيف، وثمة رواية تفيد أن أبا سفيان بن حرب هو الذي تولى هدمها، وليست بأقوى من الروايتين[٢]. ولكن لا شك أن مناة قد هدمت، فهذا الذي يثبت تاريخيًّا، وليس الحديث كالتاريخ من حيث الحاجة إلى قوة الأدلة.

وكذلك أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد في شهر شوال من سنة ثمان للهجرة تضم ثلاث مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة في يلملم جنوب مكة بثمانين كيلاً، داعيًا لهم إلى الإسلام، فلما وصلهم دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فقتل منهم وأسر، ثم أمر بعد حين بقتل الأسرى، وقد توقف عبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن عوف وبعض الصحابة عن قتل الأسرى، حتى قدموا على النبي ﷺ الذي تبرأ مما صنع خالد مرتين[٣].

لقد تأول خالد بن الوليد قولهم: «صبأنا» بأنهم لا يريدون إعلان إسلامهم، أو أنهم ينتقصون الإسلام بذلك، فلم يحقن دماءهم[٤]، ورأى عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن عمر أنهم عبروا عن إسلامهم بما يعرفون،

---

(١) ابن الكلبي: الأصنام، ص ١٥.

(٢) ابن هشام: السيرة ١/ ٨٦ وابن حجر: الإصابة ٢/ ١٧٩ منسوبة إلى ابن إسحاق.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٣١ وابن كثير: التفسير ٤/ ٣٠٦ وحول الملاحاة بين ابن عوف وخالد انظر: صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٧.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٥٧،وكان قريش تقول عن كل من أسلم إنه صبأ، فصارت تطلق في معرض الذم، وهو عذر لخالد الذي كان يعرف ظل الكلمة وظروف استعمالها، أما ابن جذيمة فيبدو أنهم استعملوها دون أن يفطنوا لما أحاط بها من ظلال، ووقع في حس المسلمين.

ولم تكن المصطلحات الشرعية قد اتضحت لسائر العرب آنذاك، لذلك فإن الرسول ﷺ وإن تبرأ من فعل خالد لعجلته وعدم تثبته، فإنه لم يعاقبه ولم يعزله عن إمارة جنده، إذ إنه اجتهد فأخطأ.

وتقول رواية لا تصلح للاحتجاج بها لانقطاعها: إن النبي ﷺ دفع ديات القتلى جميعًا، وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم(١).

وهذا يتفق مع أحكام الإسلام في قتل الخطأ، ولو اعتمدنا على الرواية المنقطعة، فينبغي أن نقبلها جميعًا، وفيها أن خالد بن الوليد لما وصل بني جذيمة حملوا السلاح، فأمرهم بإلقائه، وذكرهم بأن الناس قد أسلموا، فوضعوا السلاح فكتفهم وقتل العديد منهم. وقد ساق هذه الرواية ابن إسحاق وساق روايات أخرى تفيد أن عمل خالد كان ثأرًا لعمه الفاكه بن المغيرة، الذي قتلته بنو جذيمة في الجاهلية، وقد عقب ابن كثير على روايات ابن إسحاق بقوله: «وهذه مرسلات ومنقطعات» أي لا تقوم بها حجة(٢). إن أعظم ما يبرئ ساحة خالد، ويفيد أنه اجتهد فأخطأ هو عدم معاقبة الرسول ﷺ له، واكتفاؤه بالبراءة من عمله.

وعلى أي حال فإن اثنتين من سرايا المسلمين بعد فتح مكة كانت في ديار هوازن وثقيف. ولم تكن هذه السرايا لتخفى على هوازن التي بدأت تحشد قواها في حنين بعد نصف شهر فقط من فتح مكة لمواجهة المسلمين(٣). وقد عزمت على مهاجمة المسلمين قبل أن يهاجموها، ومما يدل على أنهم أرادوها موقعة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٠، وهو من مراسيل أبي جعفر محمد علي الباقر، فهو منقطع لأن الباقر ولد ما بين (٤٠ - ٥٦هـ) كما في تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٣٥١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٣١، والطبري ٣/ ٦٦ وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣١٣ - ٣١٤.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٧٠.

فاصلـة حشـدهم للأموال والنسـاء والأبناء، حتـى لا يفر أحـد دون ماله وأهله. وكان يقودهـم مالك بن عوف النصري، وقـد انضمت إلى هوازن بعض القبائل الأخرى من غطفان وغيرها[١]، وتخلف عنه من هوازن كعب وكلاب[٢].

ويلاحظ أن مالك بن عوف رتب قومه بشـكل صفوف حسنة، وقدم الخيل ثم الرجالة ثم النسـاء ثم الغنم ثم الإبـل[٣]. وكان مالك النصري في الثلاثين من عمره، وقد عرف بالشجاعة وحسن البلاء في القتال[٤]، وقد وردت روايات تبين أن دريد بن الصمة أنكر على مالك النصري الخروج بالنساء والأطفال والأموال، لأن المنهزم لا يرده شيء- في رأيه- لكن مالك النصري لم يعمل برأيه[٥].

وقد انفرد الواقدي بتقدير عدد جيش هوازن فذكر أنهم عشرون ألفًا[٦].

وقد مال الحافظ ابن حجر إلى قبول هذا التقدير، فقال: إنهم كانوا ضعف عدد المسلمين وأكثر[٧].

وقد أرسـل إليهم النبي ﷺ عبدالله بن أبي حدرد الأسـلمي للتعرف على أمرهـم، فمكث فيهـم يومًا أو يومين، ثم عاد إلى المسـلمين بخبرهـم[٨]. فأخذ المسلمون أهبتهم، واستعدوا لمواجهتهم.

(١) البخاري: صحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١ ومسلم: الصحيح ٢/ ٧٣٥.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٧.
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٧٣٦ وأحمد: المسند ٣/ ١٥٧.
(٤) ابن حجر: الإصابة ٣/ ١٨٢، ٣٥٢.
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣٧.
(٦) مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٣.
(٧) فتح الباري ٨/ ٢٩.
(٨) الحاكم: المسـتدرك ٣/ ٤٨ - ٤٩، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وللحديث شواهد جعلت الشيخ الألباني يحكم بصحته بمجموع طرقه (إرواء الغليل ٥/ ٣٤٤ - ٣٤٦).

واستعار النبي ﷺ مئة درع من صفوان بن أمية[١]، وكان لا يزال على الشرك، وقد سأله صفوان إن كان يأخذها غصبًا أم عارية؟ فأخبره أنها عارية، وقد أعادها إليه بعد غزوة حنين شاكرًا له صنيعه[٢]. وقد أورد ابن عبدالبر روايات دون أسانيد تذكر أن النبي ﷺ استقرض من حويطب بن عبدالعزى أربعين ألف درهم، وقبل عون نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب له بثلاثة آلاف رمح[٣]. ولا مانع من استعانته بهما، إذ ثبت أنه استعان بصفوان وهو مشرك.

وخاصة أن كيان الإسلام كان راسخًا، وأن صبغة المعركة الإسلامية لا يؤثر فيها قبول معونة من سواهم، ما دامت لا تفرض عليهم شروطًا تخل بالتزاماتهم العقدية.

ولم يطل استعداد المسلمين، فإن الجيش الذي فتح مكة لم يلق من الجهد والقتال سوى مناوشات يسيرة في الخندمة، فكان على استعداد لمواجهة هوازن، وخلال أيام تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال - وقد مضى على مقامه بمكة بعد الفتح خمس عشرة ليلة، وكان فتحها في التاسع عشر من رمضان- ووصلوا إلى حنين في مساء العاشر من شوال[٤]. ويبدو من ذلك أنهم كلما اقتربوا من حنين ساروا ببطئ وحذر، فإنها

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن ماجة: السنن ٢/ ٨٠٩، والنسائي: المجتبى ٧/ ٢٧٦، وفيه انقطاع بين إبراهيم بن عبد الرحمن -راويه- وجده عبد الله بن أبي ربيعة، ويصلح للاستشهاد به في التاريخ، إذ هو يتفق مع أحكام الإسلام في الوفاء بالسلف.

(٣) الاستيعاب ١/ ٣٨٥، ٣/ ٥٣٧.

(٤) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٣٧، البيهقي: السنن ٣/ ١٥١، وابن التركماني: الجوهر النقي بحاشية سنن البيهقي والنسائي: السنن ٣/ ١٠٠ وابن حجر: فتح الباري ٢/ ٥٦٢، ٨/ ٢٧.

لا تبعد عن مكة سوى عشرين كيلاً شرقي مكة، وتعرف الآن بالشرائع[١]. أما في أول خروجهم من مكة فقد مضوا مسرعين[٢]. وقد استخلف الرسول ﷺ عتاب بن أسيد أميرًا على مكة عند خروجه[٣]. وكان عدد جيش المسلمين كبيرًا إذا قورن بسائر الغزوات السابقة، فقد انضم إلى الجيش الذي فتح مكة -وعدده عشرة آلاف مقاتل[٤]- ألفان من أهل مكة من مسلمة الفتح الذين سموا بالطلقاء، حيث أجمعت الروايات على ذلك برغم أنها لا ترقى إلى درجة الصحة الحديثية في عدد الطلقاء الذين انضموا إلى الجيش، ولكنها تكفي لاعتمادها تاريخيًا[٥]. ولذلك تعد غزوة حنين أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في عصر السيرة ومن أكثرها خطورة.

وقد اهتم الرسول ﷺ بحراسة جيشه، حتى إذا حضرتهم صلاة العشاء وهم قريبون من العدو أمر أحد الصحابة بمراقبة عدوهم من أحد الجبال المطلة على وادي حنين، وقد عبر عن ثقته الكبيرة بربه وبنصره عندما أخبره الصحابي بما رأى من جموع هوازن وأموالها بقوله: «تلك غنيمة المسلمين

---

(١) حمد الجاسر: تعليقه ص ٤٧١ على كتاب المناسك للحربي وفؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب ص ٢٦٨.

(٢) أبو داود: السنن ١/ ٢١٠، ٢/ ٩ والحاكم: المستدرك ١/ ٢٣٧، ٢/ ٨٣ - ٨٤ وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٠ وتاريخ خليفة ص ٨٨ وتاريخ الطبري ٣/ ٧٣ والحاكم: المستدرك ٣/ ٢٧٠ وتصلح هذه الروايات برغم ضعفها حديثيًا للاستدلال التاريخي، خاصة أنها تتفق مع أحكام الإسلام في الإمارة.

(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٠ وسيرة ابن هشام ٢/ ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٥) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٤٠ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٨٨ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٥٤ - ١٥٥ وتاريخ الطبري ٣/ ٧٣ والحاكم: المستدرك ٢/ ١٢١ وصحح الرواية ووافقه الذهبي، لكن الهيثمي أشار إلى علة فيها هو عبد الله بن عياض لم يوثقه أحد (مجمع الزوائد ٦/ ١٨٦).

غدا إن شاء الله»، ثم تطوع أنس بن أبي مرثد الغنوي بحراسة المسلمين، حيث ناموا في المكان وأوصاه ألا يغفل عن الحراسة حتى الفجر، وقد أدى أنس مهمته خير أداء، فوعده النبي ﷺ بالجنة(١).

لقد كان لوجود الطلقاء في جيش المسلمين آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتخلصوا من كل الرواسب الجاهلية المستقرة في أعماقهم وحياتهم، حتى إذا رأى بعضهم في الطريق إلى حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: «سبحان الله، كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم»(٢).

ولا شك أن طلبهم يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص برغم إسلامهم، لكن النبي ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك، وحذّرهم من ذلك، ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام.

ومن تلك الآثار السلبية ما أصاب المسلمين من إعجاب بكثرتهم، حتى رد أحدهم(٣) ما سيحوزونه من نصر إلى أنهم: «لن يغلبوا من قلة». وعبر عن ذلك جهرة، في حين أصاب هذا الشعور آخرين سواه حتى استحقوا معاتبة القرآن الكريم لهم، وتذكيرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم

---

(١) أبو داود: السنن ١/ ٢١٠، ٢/ ٩، وهو حديث صحيح الإسناد (الإصابة ١/ ٨٦).

(٢) الترمذي: سنن ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢، وقال: حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف ١١/ ١١٢ حديث رقم ١٥٥١٦ وأحمد: المسند ٥/ ٢١٨. وابن كثير: تفسير ٢/ ٢٤٣ ص الحلبي، وقال: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبدالله ابن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده مرفوعا.

(٣) وردت روايات كلها ضعيفة في تحديد قائل ذلك (مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٠ والهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧ سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٤).

إلى أنفسهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(١). وقد انتبه الرسول ﷺ لهذا الأمر، فأكد لهم بدعائه افتقاره لربه ولجوءه إليه وحده، فقال: «اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل»، وحكى لهم قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلط الله عليهم الموت(٢).

وهكذا كان الرسول ﷺ يراقب المسلمين، ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور أو السلوك، حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة. لأن النصر معلق بشرط ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، ولكن هل تتم تربية الجموع وإزالة رواسب الجاهلية، التي عاشوا فيها أعمارهم بين عشية وضحاها، لقد كان الشعور بالزهو لكثرتهم سببا لإدبارهم في أول المواجهة، وكان إدبارهم وهول اللقاء قد أعادهم إلى التصور الصحيح والتوكل الخالص فكانت الجولة الثانية خالصة لهم من دون الكفار.

ومن الآثار السلبية لوجود الطلقاء وبعض الأعراب في جيش المسلمين، أن معظمهم خرجوا للحصول على الغنائم والنظر لمن تكون الغلبة، فلم يشعروا أنهم يدافعون عن قضية ومبدأ، إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتذوقوا طعم الإيمان ولا حب الجهاد في سبيل الله، وكان منهم المقيم على الكفر(٣) -ومنهم بالطبع من كان حسن الإسلام- فلا غرابة أن ينهالوا على الغنائم، في بدء المعركة، وينشغلوا بها، ويشغلوا سواهم من الجند معهم، ولم يكن مصير

---

(١) سورة التوبة ٢٥.

(٢) الدارمي: سنن ٥/ ١٣٥ وأحمد: المسند ٤/ ٣٣٣ و٦/ ١٦.

(٣) قيل إنه خرج ثمانون من أهل مكة وهم على كفرهم (القسطلاني: المواهب اللدنية ١/ ١٦٢ والزرقاني: شرح المواهب ٣/ ٥).

المعركة يهم بعضهم كثيرًا، فقد عبر أحدهم عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، فقال كلدة بن أمية - أخو صفوان بن أمية الجمحي -: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له صفوان -وكان مشركًا آنذاك- اسكت فض الله فاك، فو الله لأن يربّني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن[1]!!

وقد ذكر موسى بن عقبة أن أبا سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وهم زعماء مكة كانوا يقفون في الخطوط الخلفية للمعركة، ينظرون لمن يكون النصر!! وذكر عروة بن الزبير أن صفوان بن أمية كان يرسل غلامًا له للتعرف على أخبار القتال!! وذكر ابن إسحاق أن أبا سفيان قال عندما رأى إدبار المسلمين في الجولة الأولى: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر» وكان يحمل الأزلام -وهي القداح- التي يستقسم بها في كنانته!![2]. وبرغم أن ما رواه موسى بن عقبة وعروة وابن إسحاق لا يصح من الناحية الحديثية لعلة الإرسال فيه، إلا أن الثلاثة أئمة المغازي ورواياتهم تتضافر، لتعطي الصورة التاريخية لموقف زعماء مكة، وفيهم صفوان المشرك وأبو سفيان مسلم جديد من المؤلفة قلوبهم آنذاك.

المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره. وكانت خطتهم محكمة، تتمثل في مباغتة

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٧٩ - ١٨٠ وقال رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح وقد صرح فيه ابن إسحاق بسماع في رواية أبي يعلى. ويربني: يصير ربا وسيدًا.

(٢) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤ والبيهقي: دلائل النبوة ٢/ ٤٥ وفي سنده أبو علاثة محمد ابن عمرو بن خالد مجهول، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٣٠.

obeikandi.com

المسلمين بالسهام في أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر[١]، وكانت معنويات هوازن عالية، فقد أوضح لهم قائدهم مالك النصري أن المسلمين لم يلقوا مثلهم من قبل، من حيث معرفتهم بالحرب وشجاعتهم وكثرتهم العددية[٢]. وقد تقدم المسلمون في الوادي قبل انبلاج الفجر، تتقدمهم الخيالة بقيادة خالد بن الوليد، وفي طليعتها بنو سليم، ثم بقية الجيش بشكل صفوف منتظمة[٣].

وفي بداية القتال تراجعت طلائع هوازن أمام تقدم المسلمين، تاركين بعض الغنائم التي أقبل على جمعها الجند[٤]، وكأنهم حسبوا أن هوازن قد هزمت هزيمة نهائية، ولكن هوازن فاجأتهم بالسهام الكثيفة تنهال عليهم من جنبات الوادي، وكان بعض المسلمين قد تعجلوا بالخروج دون استكمال عدة القتال، فكان بعضهم حاسري الرءوس، والبعض الآخر من الشبان لم يحملوا معهم السلاح الكافي[٥]، ولم يحسبوا للأمر حسابه، وأمام هول المفاجأة ودقة الرماة من هوازن حتى: «ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون»[٦]، كما وصفهم البراء بن عازب أحد شهود المعركة من الصحابة -

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٤٢، من حديث الصحابي جابر بن عبدالله الأنصاري بإسناد صحيح، صرح فيه ابن إسحاق بالسماع، وأخرجه أحمد: المسند ٣/ ٣٧٦ وأبو يعلى: المسند ٢/ ٢٠٠ رقم ٣٠٢، وابن حبان (موارد الظمآن ص ٤١٧).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٣٠ والواقدي: مغازي ٣/ ٨٩٣.

(٣) الواقدي: المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٨٩٧ حيث انفرد بتفصيل ذكر جملة الألوية من قبائل العرب وحامليها. وأما قيادة خالد بن الوليد للخيالة فثابتة من حديث أنس بن مالك أحد شهود الغزوة (صحيح البخاري ٥/ ١٣٠ - ١٣١ ومسلم: الصحيح ٢/ ٧٣٥).

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٢٥ ومسلم ٣/ ١٤٠١.

(٥) صحيح البخاري ٤/ ٣٥، ٥/ ١٢٦ وصحيح مسلم ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ من حديث البراء بن عازب أحد شهود المعركة.

(٦) صحيح البخاري ٤/ ٣٥ وصحيح مسلم ٣/ ١٤٠٠- ١٤٠١.

فانكشفت خيالة المسلمين ثم المشاة، وفر الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى لم يصمد مع الرسول ﷺ سوى فئة قليلة صمدت بصموده.

لقد استمر القتال في هذه الجولة الأولى من الفجر إلى العشاء ثم طيلة الليل، ثم انكشف المسلمون وأدبروا، وكان الحر خلال النهار شديدًا، فكان المسلمون يأوون قبل المعركة إلى ظلال الأشجار في النهار، أما في وقت المعركة فكانوا معرضين للشمس الملتهبة، وكانت الأرض رملية فكان الغبار يرتفع في وجوههم، فيحد من قدرة المقاتلين على الرؤية كما عبر أحدهم: «فما من أحد يبصر كفَّه»[1]. في حين استفادت هوازن من كمائنها في المنعطفات والشعاب.

وكان الرسول ﷺ يركب بغلته دلدل[2] برغم امتلاكه للخيل، وبذلك يرسخ في أذهان المسلمين فكرة الصمود، فالبغلة لا تصلح للكر والفر ولا للإدبار خلافًا للخيل، وكان الرسول ينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم للثبات، وهو يدفع بغلته للأمام، ويقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب» والعباس عمه وأبو سفيان بن الحارث يمسكان بعنان بغلته، لئلا تسرع به خلال

(١) مسند أحمد ٥/ ٢٨٦ وسنن أبي داود ٢/ ٦٤٩ ومسند البزار (كشف الأستار ٢/ ٣٥٠) وطبقات ابن سعد ٢/ ١٥٦ ومداره على أبي همام عبدالله بن يسار وهو مجهول لم يوثقه سوى ابن حبان، لكن أبا داود وصفه بأنه حديث نبيل، ووثق سنده للهيثمي (مجمع الزوائد ٦/ ١٨٢) وابن حجر (مختصر زوائد مسند البزار ص ٢٥١ رقم ٨١٦) والزرقاني (شرح المواهب اللدنية ٣/ ١٣).

(٢) وانظر تعليق القسطلاني على ذلك (المواهب اللدنية ١/ ١٦٣). وقد انفرد الواقدي بذكر أن النبي ﷺ كان يلبس درعين والمغفر والبيضة (المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٨٩٧) والمغفر زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة أو حلق يتقنع به المتسلح، والبيضة تلبس في الرأس (الفيروزآبادي: القاموس المحيط ٢/ ١٠٣، ٣/ ٢٠).

obeikandi.com

العدو[١]، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيرًا[٢]، في حين ابتعد معظمهم عن الميدان مدبرين، ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة، كانوا يحيطون به، فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر وعمر وعلي[٣]، وقد أمر النبي ﷺ عمه العباس - وكان جهوري الصوت - فنادى الناس للعودة، ثم خص الأنصار وأصحاب الشجرة بالنداء، ثم خص بني الحارث ابن الخزرج بالنداء، فتلاحقوا نحوه حتى صاروا ثمانين أو مئة، فقاتلوا هوازن[٤]، وبدأوا جولة جديدة مليئة بالشجاعة والصدق والعزيمة والإيمان وحسن التوكل، فكان النبي ﷺ يدعو الله ويسأله النصر، يقول: «إنك إن تشأ لا تعبد بعد اليوم»[٥]. حتى إذا غشيه الأعداء نزل عن بغلته وترجل[٦]، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته[٧]، فلما رأى الفارون من المسلمين ذلك، وسمعوا العباس يناديهم، أخذوا يتلاحقون به، ويرددون: لبيك لبيك. حتى إن من لم يستطع منهم أن يثني بعيره ويعود

---

(١) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠. والحاكم: المستدرك ٣/ ٢٥٥ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي. وأبو يعلى: المسند ٣/ ٣٣٨ ب رقم ٣٠٣ ورجاله رجال الصحيح غير عمران بن دوار ففيه كلام. وابن إسحاق (سيرة ابن هشام ١/ ٤٤٢) بإسناد صحيح.

(٢) الزرقاني: شرح المواهب اللدنية ٣/ ١٩ - ٢٠، وهم الثمانون أو المئة الذين تراجعوا على أقدامهم ولم يولوا الدبر.

(٣) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٢ بإسناد صحيح إلى جابر بن عبد الله أحد شهود المعركة).

(٤) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٨، ١٤٠٠ وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥ وعبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٨٠ - ٣٨١ وابن سعد. الطبقات ٤/ ١٨.

(٥) أحمد: المسند ٣/ ١٢١ وهو من ثلاثيات المسند، وقال ابن كثير والسفاريني: إنه على شرط الشيخين (البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٣٤٨ وشرح ثلاثيات مسند أحمد للسفاريني ٢/ ٢٨٦).

(٦) صحيح البخاري ٤/ ٣٥، ٥٣ وصحيح مسلم ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١.

(٧) صحيح مسلم ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١، والنووي: شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠١ - ٤٠٢.

بـه أخذ سـلاحه وتركه[١]، فاشـتد القتال مـن جديد، وقال الرسـول ﷺ: «هذا حيـن حمي الوطيس»[٢] وأخذ ترابًا أو حصيـات فرمى بهن وجوه الكفار، وهو يقول: «شـاهت الوجـوه» «انهزمـوا ورب محمـد»[٣]، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٤] ولـم تصمد هوازن وثقيف طويلاً في الجولة الثانية، بل فروا من الميدان وتعقبهم المسـلمون بعيـدًا عـن حنين تاركيـن وراءهم قتلـى كثيرين وأمـوالاً عظيمة في الميـدان. ولـم يتمكنوا من الانسـحاب المنظم حتى إنهم تركوا خلفهم شـراذم من الجيش، تمكن المسـلمون من القضاء عليهم بسـهولة[٥] فكانت خسـارتهم فـي الأرواح خـلال الهزيمـة أعظـم مـن خسـارتهم خـلال المعركـة، فقـد أمر الرسـول ﷺ بتعقـب الفارين وقتلهم لإضعاف شـوكتهم، حتـى لا يعودوا إلى الاجتمـاع والقتال[٦]. وقد أباح سـلب المشـرك لقاتله[٧]، ولكنـه نهى عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة، فقال: «ما كانت هذه تقاتل»[٨]. وكذلك نهى عن قتل الذراري لما بلغه أن بعض المسـلمين يقتلونهم، فلما ذكروا: إنما هم أولاد

---

(١) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٨، ١٤٠٠، وابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥).

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٨، ١٤٠٠.

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٨، ١٤٠٠، ١٤٠٢.

(٤) سـورة التوبة: آية ٢٦، وقال الشـوكاني: الظاهر أن المراد جميع من حضر الغزوة من المؤمنين، الذيـن انهزمـوا والذين لـم ينهزموا، لأنهم ثبتـوا بعد ذلك وقاتلـوا وانتصروا (فتـح القدير ٢/ ٣٤٨).

(٥) كشف الأستار ٢/ ٣٤٦.

(٦) الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٨١ وكشف الأستار ٢/ ٣٤٩ بإسناد رجاله ثقات.

(٧) أبو داود: سنن ٢/ ٦٥ وقال: هذا حديث حسن، والحاكم: المستدرك ٢/ ١٣٠ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

(٨) أبو داود: سنن ٢/ ٤٩ - ٥٠.

المشركين؟ قال: «أو هل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها»[١].

ولم يعنف الرسول ﷺ أحدًا ممن فر عنه، بل لما قالت له أم سليم الأنصارية أن يقتل الطلقاء لفرارهم، قال: «إن الله قد كفى وأحسن»، وكانت أم سليم تحمل خنجرًا تدافع به عن نفسها[٢] في المعركة.

وقد بلغ قتلى هوازن خلال المعركة اثنين وسبعين قتيلاً من بني مالك من ثقيف وحدهم، حسب رواية ابن إسحاق[٣]، وقتيلين من الأحلاف من ثقيف، لأنهم سارعوا إلى مغادرة ميدان المعركة[٤]. وخلال الهزيمة ثلاث مئة قتيل من بني مالك فقط، قتلهم المسلمون بقيادة الزبير بن العوام في أوطاس[٥]، كما قتل عدد آخر في أوطاس[٦]، وقد قتل أبو طلحة وحده عشرين رجلاً منهم وأخذ أسلابهم[٧]، كما قتل المئات من بني نصر بن معاوية ثم من بني رئاب، حيث استحر فيهم القتل، وهم من أهم فروع هوازن[٨].

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٤٣٥ من طريقين عن الحسن عن الأسود بن سريع وهو مشترك في الغزوة. ولكن الحسن لم يسمع منه، وفي الطريق الأولى عنعنة قتادة وهو مدلس. لكنه ورد من الطريق الأخرى بسند فيه قتادة وتبقى علة الانقطاع بين الحسن والأسود.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٤٤٢.

(٣) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٥٠ دون إسناد ومن طريقه أخرجه الطبري من طريق معضل، لأن يعقوب بن عتبة من صغار التابعين (تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٧٨).

(٤) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٥٠.

(٥) كشف الأستار ٢/ ٣٤٦ وفي سنده علي بن عاصم وثقه قوم وضعفه آخرون، وحسن الحافظ ابن حجر هذا الحديث (فتح الباري ٨/ ٤٢). وقد بينت رواية البخاري أن دريد بن الصمة قتل بأوطاس وأن الزبير هو الذي قتله (صحيح ٥/ ١٢٨).

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٧ دون إسناد.

(٧) أبو داود: السنن ٢/ ٦٥ وقال: هذا حديث حسن، والحاكم: المستدرك ٢/ ١٣٠ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

(٨) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٥٥ وابن سعد: الطبقات ٢/ ١٥٢ ومغازي الواقدي ٣/ ٩١٦.

وهكذا كانت خسارة هوازن وثقيف في الأرواح جسيمة، فضلاً عن الجرحى، وأما السبي فقد بلغ ستة آلاف في رواية سعيد بن المسيب[١]. وقال عروة: إن الستة آلاف من النساء والأبناء معا[٢]، وهو قول ابن إسحاق أيضًا[٣]. ووصف الزهري كثرة السبي بقوله: «وملئت عُرُش مكة منهم»[٤] وأما الأموال فكانت أربعة آلاف أوقية فضة[٥]، وأما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفًا[٦]، وأما الشاة فكانت أكثر من أربعين ألف شاة[٧]. وكان معهم خيل وبقر وحمير، لكن المصادر لم تذكر عدد ما غنمه المسلمون منها. وقد أمر الرسول ﷺ بحبس الغنائم في الجعرانة لحين عودته من حصار الطائف[٨].

وأما تضحيات المسلمين فتتمثل في استشهاد أربعة منهم، سماهم ابن إسحاق[٩]، وإصابة عدد منهم بجروح منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالله بن أبي أوفى وخالد بن الوليد[١٠].

---

(١) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٨١، وابن سعد: الطبقات ٢/ ١٥٥، والطبري: تاريخ ١٠/ ١٠٢.
(٢) الطبري: تاريخ ٣/ ٨٢ وإسناده حسن إلى عروة.
(٣) ابن هشام: السيرة ٢/ ٤٨٨ دون إسناد، لكن في رواية الطبري عن ابن إسحاق أن الإبل ستة آلاف وأما النساء والذراري فعدد كثير (تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٨٦).
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٤٧ والعُرُش: بيوت من عيدان منصوبة ويظلل عليها (ابن الأثير: النهاية ٣/ ٢٠٧ – ٢٠٨).
(٥) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٥٢ دون إسناد.
(٦) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٥٢ دون إسناد..
(٧) ابن سعد: الطبقات ٢/ ١٥٢ دون إسناد.
(٨) أخرجه البزار كما في كشف الأستار ٢/ ٣٥٣ وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ١٤٥: «إسناده حسن، «والصحيح أن فيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس، وفيه إبهام اسم ابن بديل بن ورقاء.
(٩) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٩ دون إسناد.
(١٠) صحيح البخاري ٥/ ١٢٦ ومسند الحميدي ٢/ ٣٩٨ بإسناد صحيح. والبزار (كشف الأستار للهيثمي ٢/ ٣٤٦)، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٢، لكنه وصف المتن بأنه منكر في (مختصر زوائد مسند البزار ص ٢٤٩ – ٢٥٠ رقم ٨١٦)، وقد لفَّقتُ أسماء الجرحى من هذه المصادر، ولم ينص كل مصدر عليهم جميعًا.

ولعل خسارتهم الطفيفة هذه في الأرواح ترجع إلى أن الجولة الأولى التي أدبروا فيها كان القتال خلالها في الغالب تراشقًا بالسهام، وكان الالتحام في الجولة الثانية أكثر لكن الدائرة كانت على هوازن وثقيف، فكانت معظم إصابات المسلمين جروحًا شفوا منها، ومما يدل على سلامة جيش المسلمين أنهم طاردوا المنهزمين في حنين إلى مسافات بعيدة، كما أنهم اتجهوا إلى حصار الطائف مباشرة دون استجمام يزيل عنهم آثار هذه الموقعة الحاسمة. والتي تشبه في خطورتها غزوة بدر الكبرى، فإن المسلمين قدموا كل جيشهم وكذلك فعلت هوازن، وكانت العرب والأعراب تنتظر مصير المعركة لتتخذ موقفها الأخير من الإسلام، فلما هزمت هوازن أقبلت الوفود تعلن الدخول في الدين الجديد...

تعقب الفارين نحو نخلة وأوطاس:

انهزمت هوازن وتفرقت في الجبال والأودية، وتحصن مالك بن عوف النصري بالطائف في حين عسكر آخرون منهم بأوطاس - وهو واد بين الطائف وحنين - وعسكر بنو غيرة من ثقيف في نخلة بين سبواحة والشرائع (حنين)[1].

وقد تبعت خيل المسلمين من سلك في نخلة من هوازن، وأرسل النبي ﷺ أبا عامر الأشعري إلى أوطاس فقاتلهم وقتل دريد بن الصمة[2]،

---

(١) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤) دون إسناد. وانظر عن تحديد المواقع: كتاب المناسك للحربي، تعليق حمد الجاسر ص ٣٤٦، ٣٥٣، ٤٧١، ٦٥٤.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن الزبير بن العوام قتل دريد بن الصمة بعد معركة حنين وهذا يتفق مع رواية البخاري، لأن الزبير كان في جيش أوطاس

ثم أصيب بسهم وهو يقاتلهم فاستشهد بعد أن استخلف أبا موسى الأشعري وأوصاه بتبليغ السلام لرسول الله ﷺ، وأن يطلب منه أن يستغفر له، وقد دعا له الرسول ﷺ لما أبلغه أبو موسى ذلك(١).

وممن وقع في الأسر الشيماء أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، حيث تضافرت الأحاديث المرسلة من ابن إسحاق وغيره على إكساب هذه الحادثة القوة التاريخية، وقد أكرمها الرسول ﷺ بعد أن استدل على صحة ما تقول من عضة عضها لها أيام رضاعه في بني سعد(٢)، كما تدل روايات ليست قوية - لكنها تتضافر لإسناد الخبر التأريخي - على أن أمه من الرضاعة حليمة السعدية قدمت إليه فأكرمها، وطوى لها ثوبه لتجلس عليه(٣).

*****

(١) البخاري: صحيح ٥/ ١٢٨، ٤/ ٨،٢٨/ ٦٩. ومسلم: الصحيح ٤/ ١٩٤٣، وابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٤) والواقدي: المغازي ٣/ ٩١٥.

(٢) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨) عن بعض بني سعد، وانظر البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٥٦ من مراسيل قتادة وفي إسناده راو ضعيف أيضًا.

(٣) الطبري: جامع البيان ١٠/ ١٠١ من مراسيل قتادة بإسناد حسن. وابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ٢٧٠ من مراسيل عطاء بن يسار - تابعي من الثالثة - والبخاري: الأدب المفرد ٤٤٠ وأبو داود: السنن ٢/ ٦٣٠ من حديث أبي الطفيل، ولكن في إسناده مجاهيل، والحاكم: المستدرك ٣/ ٦١٨ و ٤/ ١٦٤ وقال: صحيح الإسناد، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٦٤ ويرى أنها أخته الشيماء وليست حليمة، لأنها تكون في حدود التسعين من عمرها. وأبو داود: المراسيل بإسناد معضل (ابن كثير: البداية النهاية ٤/ ٣٦٤).

غزوة الطائف

بعد أن شتت المسلمون هوازن وتعقبوها في نخلة وأوطاس اتجهوا إلى مدينة الطائف التي تحصنت فيها ثقيف، ومعهم مالك بن عوف النصري قائد هوازن.

وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها القوية وحصونها الدفاعية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة، وهيأت من وسائل الحرب ما يكفل لها الصمود طويلا، وكان وصول المسلمين إلى الطائف في حدود العشرين من شوال دون أن يستجم الجيش طويلاً من غزوة حنين وسرايا نخلة وأوطاس، التي بدأت في العاشر من شوال واستغرقت أكثر من أسبوع.

وقد حاصر المسلمون الطائف بضع عشرة ليلة في رواية عروة بن الزبير وموسى بن عقبة(١)، وحددت رواية عن عروة أيضا المدة بنصف شهر(٢)، وبرغم أن سائر هذه الروايات مراسيل لا تقوم بها حجة(٣) فإن عروة وموسى من أجلّ كتّاب المغازي وأوثقهم، وروايتهما تتفق مع تواريخ الأحداث وسياقها، وزعمت روايات أخرى أن الحصار استمر خمسة وعشرين يومًا(٤) أو شهرًا(٥)

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٨٤ ودلائل النبوة ٣/ ٤٧ب، وهما مرسلان، وفي سندي البيهقي عنهما رجل لم أقف على ترجمته، وهو في رواية عروة أبو علاثة محمد بن عمرو بن خالد وفي رواية موسى بن عقبة محمد بن عبد الله بن عتاب.

(٢) الطبري بإسناد حسن إلى عروة وهو مرسل (تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٨٢).

(٣) لأن موسى تلميذ عروة فلا تتعدد المخارج.

(٤) ابن إسحاق (البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٤٨ أ) وقال في السيرة: «بضعا وعشرين ليلة» (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣).

(٥) ابن إسحاق بروايته عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم وعبد الله بن المكرم مرسلاً بإسناد حسن إليهما (البيهقي: دلائل النبوة ٣/ ٤٨)

أو أربعين يومًا[١]، والقول بهذا لا يتفق مع تواريخ الأحداث الأخرى وسياقها، وخاصة إذا قلنا: إن الحصار دام أربعين يومًا. فإن الرسول ﷺ وصل إلى المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة[٢]، بعد أن مكث بضع عشرة ليلة في الجعرانة، ثم قام بالعمرة، ثم عاد إلى المدينة، ويحتاج ذلك إلى ثمانية عشر يومًا على الأقل بعد فك الحصار عن الطائف.

وقد سلك المسلمون في تقدمهم نحو الطائف الطريق القديم، الذي يدخل الطائف من ناحية الجنوب. فمروا على نخلة اليمانية ثم قرن المنازل - على بعد ٨٠ كيلاً عن مكة و ٥٣ كيلاً جنوب الطائف - ثم المليح من وديان الطائف، ثم بحرة الرغاء على بعد ١٥ كيلاً جنوب الطائف[٣]، وهي طريق طويلة إذا قورنت بالطريق المسفلت بين مكة والطائف، وطوله ٩٠ كيلاً لكن الطائف يستحيل اقتحامها من ناحية الشمال، حيث التضاريس الجبلية المعقدة، التي تعطيها تحصينًا طبيعيًا، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يحول بين ثقيف وبين أمدادها من هوازن شرق وجنوب الطائف.

وقد نزل المسلمون قريبًا من حصون الطائف فكانوا في متناول سهام ثقيف، فأصيب بعضهم فتحولوا بعسكرهم إلى الموضع الذي بنى فيه مسجده[٤]، وهو

(١) مسلم: الصحيح ٢/ ٧٣٦ وأحمد: المسند ٣/ ١٥٧ وقد بين ابن كثير بعد إيراده هذا الحديث عن الإمام أحمد أن السميط - راويه - وهم في مدة الحصار (البداية والنهاية ٤/ ٣٥٦).

(٢) ابن هشام: السيرة ٢/ ٥٠٠ وابن حزم: جوامع السيرة ٢٤٨ وجزم ابن حزم بأن مدة الحصار كانت بضع عشرة ليلة (جوامع السيرة ٢٤٣، ٢٤٨).

(٣) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣) وعن تحديد المسافات انظر: البلادي: معجم المعالم الجغرافية ٢٥٤ ونسب حرب ٣٩، ٢٢٥ والحربي، كتاب المناسك تعليق حمد الجاسر ٣٥٣.

(٤) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨ فما بعد).

المعروف اليوم بمسجد عبدالله بن عباس، والطائف قديمًا كانت إلى الجنوب الغربي من المسجد(١) وكان القتال تراشقًا بالسهام على بعد، وقد استخدم المسلمون آلة من الخشب الثخين المغلف بالجلود مركبة على عجلات مستديرة، احتموا بها من السهام حتى وصلوا إلى الأسوار ليثقبوها، فألقت ثقيف عليهم قطع حديد محماة فأحرقت «الدبابة» - وهو اسم الآلة - وخرج المقاتلون من تحتها فأصابتهم السهام(٢)، وهذه هي أول غزوة يستخدم فيها المسلمون آلات لضرب الحصون، وقد اشتهرت جرش اليمانية - التي لا تزال أطلالها قائمة أعلى وادي بيشة(٣) - بصناعة الدبابات والمجانيق والضبور(٤). ويذكر ابن إسحاق أن اثنين من وجوه ثقيف كانا يتعلمان في جرش صنعة هذه الآلات للاستفادة منها في الدفاع عن الطائف(٥).

أما عن حصول المسلمين على آلات الحرب هذه، حيث ضربوا الحصون بالمنجنيق(٦) فقد ذكر أن خالد بن سعيد بن العاص جاء بمنجنيق ودبابتين من جرش في حين تفيد رواية أخرى أن سلمان الفارسي عمل المنجنيق بيده(٧).

---

(١) البلادي: معجم المعالم الجغرافية ٢١٣، ٢١٤، ٣١٦.

(٢) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣) وعن الدبابة انظر: محمود شيت خطاب: الرسول القائد ٢٥٤.

(٣) الحربي: كتاب المناسك، تعليق حمد الجاسر، ص ٢٨٥.

(٤) يتكون المنجنيق من عمود طويل قوي، موضوع على عربة ذات عجلتين، في رأسها حلقة أو بكرة، يمر بها حبل متين، في طرفه الأعلى شبكة في هيئة كيس، توضع حجارة أو مواد محترقة في الشبكة، ثم تحرك بواسطة العمود والحبل، فيندفع ما وضع في الشبكة من القذائف، ويسقط على الأسوار، فيقتل أو يحرق ما يسقط عليه (محمود شيت خطاب: الرسول القائد ٢٥٤).

(٥) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٨) والطبري: تاريخ ٢/ ٣٥٣ ط. القاهرة.

(٦) أبو داود: المراسيل ٣٧ بإسناد صحيح إلى مكحول من مراسيله، وبإسناد آخر إلى عكرمة مولى ابن عباس من مراسيله. واحتج الإمام الشافعي بهذه الحادثة (الأم ٤/ ١٦١).

(٧) الواقدي: المغازي ٣/ ٩٢٣، ٩٢٧، وقد ذكر أن الطفيل بن عمرو الدوسي ذهب بأمر رسول الله إلى صنم يدعى ذا الكفين فهدمه ووافى المسلمين في الطائف مع أربع مئة من قومه، ومعهم دبابة ومنجنيق.

ومن الواضح أن آلات فك الحصار لم تكن متوافرة للمسلمين بالقدر الكافي.

وقد أمر الرسول ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخيل في ضواحي الطائف، للضغط على ثقيف التي ناشدته ألا يفعل، فتركها بعد أن أحدثت المحاولة أثرها في إضعاف معنوياتهم(١).

وكذلك وجه نداء لعبيد الطائف أن من ينزل منهم من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد، منهم أبو بكرة الثقفي، فأسلموا فأعتقهم(٢)، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامها(٣).

وبرغم ما واجهته ثقيف من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون، لينالوا درجة في الجنة وعدهم بها رسول الله(٤)، فإنها صمدت أمام الحصار بكبرياء وإصرار.

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٨٤ من مراسيل موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وفي إسناده إلى كل منهما من لم أقف على ترجمته. وابن إسحاق من مراسيل عمرو بن شعيب، وانظر: الأم للشافعي ٧/ ٣٢٣.

(٢) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٠١ وابن حجر: فتح الباري ٨/ ٤٦ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٥٨ - ١٥٩. والطبراني (الهيثمي: مجمع الزوائد ٤/ ٢٤٥ وقال: رجاله رجال الصحيح) ونزول العبيد وعددهم ثابت في صحيح البخاري (٥/ ١٢٩) دون ذكر الإسلام.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٥ وطبقات ابن سعد ٢/ ١٥٩ ومسند أحمد ١/ ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٨، ومداره على الحجاج بن أرطأة صدوق وهو مدلس وقد عنعن.

(٤) حديث «من بلغ بسهم فله درجة في الجنة» قاله في حصار الطائف، وهو صحيح (مسند أحمد ٤/ ١١٣، ٣٨٤ وصرح قتادة فيه بالتحديث عند البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٦١).

وقد كثرت الجراحات في المسلمين[١]. واستشهد منهم اثنا عشر رجلاً[٢]. في حين لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة بسبب امتناعهم بالحصون والأسوار[٣].

وتدل رواية صحيحة[٤] على أن الرسول ﷺ لم يقصد بحصار الطائف فتحها، بل كسر شوكة ثقيف وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاءوا دخلوها. وما كان الرسول ﷺ ليشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان، وليس له إلا الإسلام أو الاستسلام طال الوقت أم قصر، كما أنه كان يحرص على ثقيف حرصه على قريش من قبل، فهم إن تحولوا إلى الإسلام كانوا مادة له، فهم أهل فطنة وذكاء، وكان يطمح لإسلامهم وقد سعى لنشر الدعوة فيهم منذ المرحلة المكية، ودعا لهم بالهداية بعد أن رفضوا دعوته وآذوه، وقد سأله بعض الصحابة في أثناء حصار الطائف أن يدعو على ثقيف فدعا لهم بقوله: «اللهم اهدِ ثقيفًا»[٥].

لا غرابة إذا في أن يدعو الرسول أصحابه إلى فك الحصار، فلما رأى حرصهم على القتال في أوله سمح لهم ببعض المناوشات، التي أثبتت لهم أن لا جدوى من القتال، عندئذ أعاد عليهم الرسول فكرة فك الحصار،

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٢٠، ٩/ ١١٣.
(٢) سماهم ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٦ - ٤٨٧).
(٣) أبو داود: المراسيل ٤٧ من مرسل عكرمة. والواقدي: المغازي ٣/ ٩٢٦، ٩٢٩ - ٩٣٠.
(٤) البخاري: صحيح ٥/ ١٢٨، ٩/ ١١٣.
(٥) الترمذي: سنن ٥/ ٣٨٥ - ٣٨٦ وقال: حسن صحيح غريب، وبين الألباني أنه صحيح على شرط مسلم، لولا عنعنة أبي الزبير - راويه - وهو مدلس (فقه السيرة للغزالي ٤٣٢).

فأظهروا الرضا بهذا القرار الحكيم[١]. وعادوا إلى الجعرانة، فوصلوها في اليوم الخامس من ذي القعدة.

وفي الجعرانة كانت تقبع غنائم حنين الجليلة، وكان الرسول ﷺ قد أخَّر قسمتها، ولم يعجل بالقسمة حتى بعد عودته من حصار الطائف - سوى بعض الفضة التي قسمها إثر العودة من حصار الطائف[٢] -، بل انتظر بضع عشرة ليلة[٣]، متطلعا إلى قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام، لكنها أبطأت عليه، فقسم الغنائم. والأصل أن الغنيمة يؤخذ منها الخمس، يتصرف فيه الرسول ﷺ وفقًا للتوجيه القرآني ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[٤].

وأما الأربعة الأخماس الأخرى فهي حصة المقاتلين الذين شهدوا القتال، توزع بينهم بالتساوي، للرجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه. هذا في غنيمة الأموال المنقولة، وأما الأموال غير المنقولة، فالإمام مخير فيها بين قسمتها أو وقفها واعتبارها ملكًا عامًّا للدولة. والأموال التي يحوزها المسلمون في القتال هي الغنيمة التي تقسم كما ذكرت، وأما الأموال التي يحوزونها دون قتال فتسمى بالفيء، ويصرف في المصالح العامة وفقًا لاجتهاد الحاكم، وقد يعطي الحاكم النفل لبعض المقاتلين لحسن بلائهم حسب اجتهاده، ويجوز أن ينقل هؤلاء المقاتلين المبرزين من الغنيمة قبل إخراج الخمس منها أو بعده، كما يجوز أن يعطيهم من الخمس، وكذلك يأذن لهم بأخذ سلب من قتلوه من المشركين.

---

(١) البخاري: صحيح ٥/ ١٢٨، ٩/ ١١٣.

(٢) الحاكم: المستدرك ٢/ ١٢١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ٣٢) وقد ورد في رواية أن المدة ثلاث عشرة ليلة.

(٤) سورة الأنفال: آية ٤١.

وقد تم توزيع غنائم حنين بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء تأليفًا لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام، وعدم تمكين معاني الإيمان من قلوبهم، فأعطى مئة من الإبل لكل من عيينة بن حصن - من زعماء غطفان - والأقرع بن حابس - من زعماء تميم-، وعلقمة بن علاثة والعباس بن مرداس وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية - من زعماء قريش[(١)] - وقد بلغ عدد أصحاب المئة من الإبل اثني عشر رجلا في قائمة ابن إسحاق، كما ذكر خمسة آخرين أخذوا أقل من المئة من الإبل[(٢)]. وذكر ابن هشام أسماء تسعة وعشرين رجلاً من المؤلفة قلوبهم[(٣)]. وزاد غيره ثلاثة وعشرين، فصار جملة العدد اثنين وخمسين رجلاً.

وقد استمالت هذه الأعطيات قلوب هؤلاء الزعماء وأتباعهم، فأظهروا الرضا بها، وزادتهم رغبة في الإسلام، ثم حسن إسلامهم جميعًا، فأبلوا في الإسلام بلاءً حسنًا وخدموه بأنفسهم وأموالهم، إلا يسيرًا منهم مثل عيينة بن حصن الفزاري «لم يزل مغموزًا» كما يقول ابن حزم[(٤)].

قال أنس بن مالك: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[(٥)].

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٣٧. ومسند أحمد ٣/ ٢٤٦ وقال ابن حجر: إسناده على شرط مسلم (فتح الباري ٨/ ٥٠) وصحيح البخاري ٢/ ١٠٤، ٤/ ٥، ٧٣، ٨/ ٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٢ - ٤٩٤ دون إسناد.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٤ - ٤٩٦ والزرقاني: شرح المواهب اللدنية ٣/ ٣٧ وفتح الباري ٨/ ٤٨.

(٤) جوامع السيرة ٢٤٨. أما الأقرع بن حابس فقد استشهد مع عشرة من بنيه في اليرموك (ابن سعد ٧/ ٣٧ وابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٠٣ وابن حجر: الإصابة ١/ ٥٨).

(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٨٠٦.

وقد عبر بعض المؤلفة قلوبهم عن أثر ذلك، فقال صفوان بن أمية: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ»(١).

لقد كان صفوان بن أمية من المؤلفة قلوبهم، وكان يحب أن يناله من أعطيات الرسول ﷺ، فكلما أعطاه سأله المزيد، فبين له النبي ﷺ نظرة الإسلام ووعظه، فإذا به يرغب حتى عن أخذ عطائه السنوي من بيت المال(٢)! مما يوضح ما حدث من تحول عظيم في نفوس المؤلفة قلوبهم، التي تشبعت بمعاني الإسلام على مر الأيام.

وقد تأثر بعض المسلمين في بداية الأمر لعدم شمولهم بالأعطيات، فكان لابد من بيان الحكمة لهم في ذلك. فقال الرسول ﷺ موضحًا: «والله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»(٣).

وقال: «إني لأعطي رجالاً حدثاء عهد بكفر أتألفهم»(٤).

وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، مخافة أن يكبه الله في النار»(٥).

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٠٦.
(٢) ابن حجر: فتح الباري ٣/ ٣٣٦ وانظر الحديث في صحيح البخاري ٢/ ١٠٤، ٤/ ٥، ٧٣، ٨/ ٧٩ ومسلم: الصحيح ٢/ ٧١٧.
(٣) البخاري: صحيح ٢/ ١٠، ٤/ ٧٤، ٩/ ١٢٥ - ١٢٦.
(٤) فتح الباري ٨/ ٥٣ من رواية البخاري.
(٥) صحيح البخاري ١/ ١١، ٢/ ١٠٥ - ١٠٦ وصحيح مسلم ١/ ١٣٢ - ١٣٣، ٢/ ٧٣٢ - ٧٣٣.

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن الأنصار وجدوا في أنفسهم لعدم أخذهم شيئًا من الأعطيات، وأن بعض أحداثهم قالوا: «ذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا».

وقالوا: «يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم». فجمعهم في قبة من أدم، وقال: «إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم، لو سلك الناس واديًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار» فلما وضحت لهم الحكمة من التوزيع، وأن الرسول ﷺ وكلهم إلى إيمانهم، فهم مثال للتضحية والتجرد في سبيل العقيدة، يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع، ولم تكن الدنيا همهم ولا المال مقصدهم، فلما عرفوا سبب منع الأعطيات عنهم أعلنوا رضاهم بذلك[١] ما دام فيه إعزاز الإسلام ومصلحة العقيدة، التي يفتدونها بكل عزيز وغال من نفس ومال. وكيف لا يرضون وقد أدركوا أن الرسول القائد قدمهم على سواهم، واعتمد على إخلاصهم للعقيدة، ووكلهم إلى إيمانهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، فقد بكوا بعد سماع كلامه، وقالوا: «رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا»[٢].

وقد أظهر بعض الأعراب المشتركين في غزوة حنين جفاء وغلظة عند قسمة الغنائم بالجعرانة، فقال أحدهم[٣] مخاطبًا الرسول عليه الصلاة والسلام: اعدل، فقال: «شقيت إن لم أعدل»[٤]. وقد غضب عمر بن

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٧٤، ١٤٥، ٥/ ٢٦، ٢٨، ١٣٠، ١٣١، ٧/ ١٣٣، ٨/ ١٣٠، ٩/ ١٠٦ وصحيح مسلم ٢/ ٧٣٣ - ٧٣٦.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٧٦ - ٧٧ من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته.
(٣) سماه ابن إسحاق بإسناد حسن «ذو الخويصرة التميمي» (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٦).
(٤) صحيح البخاري ٤/ ٧٢ وفتح الباري ٨/ ٦٨، ١٢/ ٢٩١، ٢٩٣.

الخطـاب من كلام الأعرابي، فطلب من الرسـول ﷺ أن يأذن له بقتله، فأبى عليـه، وقال: «معاذ اللـه أن يتحدث الناس أني أقتـل أصحابي»[(١)] ولا غرابة فـي موقف الأعراب، وهم إنما خـرج معظمهم طلبًا للغنائـم، وقد ازدحموا على رسول الله ﷺ وهو يقسم غنائم حنين، حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة - شـجر الشوك وكان يملأ المكان - نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[(٢)]. ثـم أخذ وبرة من سـنام بعير وقال: «والله ما لـي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، ثم ذكر لهم تحريم أخذ شيء من الغنائم قبـل قسـمتها، فجاء رجـل أنصاري بخيوط شـعر مكببة، كان قـد أخذها من الغنائم فألقاها[(٣)]. ولما مات كركرة مولى الرسـول ﷺ قال: «هو في النار»، ففتشوا في متاعه، فوجدوا عباءة قد غلَّها[(٤)].

وهكـذا كانت تعليمات الرسـول ﷺ واضحة لحماية الأمـوال العامة، وموقف الأنصاري يدل على الورع والالتزام بأوامر الرسـول حتى في المال اليسير، الذي لا قيمة له مثل خيوط الشعر التي أعادها.

وقـد ظهر من رسـول اللـه ﷺ الكثير مـن الصبر على جفـاء الأعراب، وطمعهـم في الأموال وحرصهم على المكاسـب، فـكان مثالاً للمربي الذي

---

(١) مسلم: الصحيح ٢/ ٧٤٠ وقارن برواية ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٦) ويبدو من كلام الحافظ ابن حجر أن الرجل اعترض على القسـمة مرتين: مرة في قسـمة غنائم حنين، ومرة ثانية في قسمة ذهب أرسله عليٌّ من اليمن في إثر حنين (فتح الباري ٨/ ٦٩، ١٢/ ٢٩١، ٢٩٣).

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩، ٧٥.

(٣) ابن إسحاق بإسناد حسن لذاته (سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٨ - ٤٩٠، ٤٩٢) وفقه السيرة للغزالي ص ٤٢٦ تعليق للشيخ الألباني.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٥٩.

يـدرك أحوالهم، ومـا جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القسـاوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم خلقه، ويطمئنهم على مصالحهم، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا، ولهم مربيًا ومصلحًا، فلم يسـلك معهم مسـلك ملوك عصره مع رعاياهم، الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبيـن، وإذا خاطبوهم التزموا بعبـارات التعظيم والإجلال، كما يفعل العبد مع ربه. أما الرسـول عليه الصلاة والسـلام فكان كأحدهـم يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجـب عنهـم قـط، وكان الصحابة، رضـوان الله عليهم، يراعـون التأدب بحضرتـه، ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنون له في أنفسـهم المحبة العظيمة. وأما جفاة الأعراب فقد عنفهم القرآن الكريم على سـوء أدبهم وجفائهم وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ[١].

وبعـد قسـمة الغنائـم، قدم وفد مـن هوازن يعلـن إسـلامها، ويطلب من رسـول اللـه ﷺ رد الأمـوال والسـبي عليهـم، فخيَّرهم بيـن السـبي والمال، فاختاروا السـبي[٢]، فخطب الرسول في المؤمنين، فقال: «إن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعـل، ومـن أحب أن يكون على حظه نعطيه إياه مـن أول ما يفيء الله علينا فليفعـل. فقال الناس: طيبنا يا رسـول الله لهـم. فقال لهم: إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا»[٣].

---

(١) انظر سورة التوبة: الآيتان ٩٧، ٩٨.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٥٦.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ٨٧. وأما حديث عطية السـعدي الذي يفيد مناشـدته لرسول الله إطلاق السـبي لأنهن «أمهاتك وأخواتك وخالاتك» لرضاعه في بني سـعد، فإسـناده ضعيف لجهالة الزبير الصنعاني وعروة بن محمد بن عطية السـعدي وأبيه محمد (صحيح الألباني: السلسـلة الضعيفة ٢/ ٥١).

ويلاحظ أن الرسول ﷺ أراد أن يعود السبي إلى هوازن عن طيب نفس المقاتلين، لأن الغنيمة من حقهم، فلا بد أن يتنازلوا عنها برضاهم، ووعد من لا يرضى بتعويضه عن السبي، وتأكد من ذلك عن طريق العرفاء المسئولين عن الجند. وقد تنازل معظم الجند عن السبي سوى الأقرع بن حابس، وتكلم باسم قبيلة تميم كلها، وعيينة بن حصن وتكلم باسم قبيلة فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها[١]. وهذا يدل على أن قدوم وفد هوازن كان بعد تقسيم الأموال والسبي وليس قبل ذلك كما تشير رواية لابن إسحاق[٢].

وقد سر الرسول ﷺ بإسلام هوازن، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه بالطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه وإكرامه بمئة من الإبل إن قدم عليه مسلمًا، فجاءه مالك مسلمًا فأكرمه وأمَّره على قومه وبعض القبائل المجاورة الأخرى.

وقد حسن إسلام مالك، فكان يقاتل ثقيفًا في الطائف حتى ضيق عليهم[٣]. وفكر زعماؤهم في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان، فلا تستطيع تحركًا ولا تجارة، ومال بعض زعمائها إلى الإسلام، مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ، وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوبًا عندهم، فدعاهم إلى الإسلام، وأذَّن

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٤٨ - ٤٩٠، ٤٩٢ بإسناد حسن لذاته، حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث فيه، وانظر مسند أحمد ٢/ ١٨٤ وسنن أبي داود ٧/ ٣٥٩ وسنن النسائي ٦/ ٢٢٠، وانظر الهيثمي: مجمع الزوائد ٦/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٥٤ - ٣٥٥ وفتح الباري ٨/ ٣٣، ٣٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٠ - ٤٩٢.

في أعلى منزله، فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف[١].

ولكن زعماء ثقيف كانوا يحسون بحراجة موقفها، ويسعون لتأمين أنفسهم وأموالهم، فأرسلوا في رمضان من العام التاسع - بعد عودته ﷺ من تبوك - وفدًا منهم برئاسة عبد ياليل بن عمرو ومعه ثلاثة من بني مالك واثنين من الأحلاف، وقد لقيهم المغيرة بن شعبة في وادي قناة شمال المدينة بيسير، فأخبر بقدومهم أبو بكر الذي سارع لتبشير الرسول ﷺ، وقد علمهم المغيرة تحية الإسلام وأدب مخاطبة الرسول، وقد أنزلهم الرسول في قبة في ناحية مسجده، ليستمعوا القرآن، ويشاهدوا صلاة المسلمين فيه، وقد أعلنوا إسلامهم، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا[٢]، وقد طلبوا من الرسول

(١) ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٣٧ - ٥٣٨) وخالفه موسى بن عقبة، فذكر تأخر إسلام عروة إلى ما بعد حجة أبي بكر بالناس عام ٩، ورجح ابن كثير رواية ابن إسحاق (البداية والنهاية ٥/ ٢٩).

(٢) أورد أبو عبيد في الأموال ٢٤٧ وابن زنجويه في الأموال ٤٤٢ كتابًا طويلاً قالا: إنه كتاب الرسول ﷺ لثقيف، وهو من مرسل عروة بن الزبير، وفي إسناده ضعف بسبب ابن لهيعة، وقد ذكر ابن إسحاق دون إسناد ما يتعلق بتحريم وادي وج منه (سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٠)، وأخرج الإمام أحمد في المسند ١/ ١٦٥ وأبو داود في سننه حديثًا عن الزبير بن العوام في تحريم وادي وج، بيّن الزبير أن التحريم كان قبل حصار الطائف، وقد بين البخاري تفرد محمد بن عبد الله بن إنسان الطائفي به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، في حديثه نظر، وذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ٩/ ٢٤٨). وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: لين. وقال البخاري عن أبيه: لم يصح حديثه، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يخطئ، وتعقبه الذهبي فقال: «هذا لا يقوله الحافظ إلا فيمن روى عدة أحاديث، وعبد الله ما عنده غير هذا الحديث، فإن كان أخطأ فيه فما هو الذي ضبطه؟ »(تهذيب التهذيب ٤/ ١٩٤)، وقد ذكر الخلال في العلل أن أحمد ضعفه، وصحح الشافعي حديثه واعتمده (ميزان الاعتدال للذهبي)، وصحح هذا الحديث الشيخ أحمد شاكر (المسند رقم الحديث =

أن يؤخر هدم اللات ثلاث سنين - خوفا من غضبة قومهم - فأبى إلا أن يهدمها، ولكنه أعفاهم من القيام بذلك، وأرسل أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة لهدمها، كما طلبوا إعفاءهم من الصلاة، لأنهم يرون فيها دناءة!! لما فيها من انحناء وسجود لله تعالى، وكأنهم نسوا أنهم يفعلون ذلك للات وغيرها من الأصنام والأحجار!! فأبى عليهم قائلا: «لا خير في دين ليس فيه ركوع»[(١)]. واشترطوا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، وقد وافقهم، وسمعه جابر بن عبدالله يقول: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[(٢)]. وسألوه أن يسمح لهم بترك الوضوء بحجة أن بلادهم باردة، وأن ينتبذوا في الدباء (القرع)، وأن يعيد لهم أبا بكرة الثقفي، فأبى عليهم ذلك كله[(٣)].

= ١٤١٦)، وقد يتساهل في التصحيح، ولعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمد تصحيح الإمام الشافعي للحديث، ومعلوم أن الأئمة البخاري وأحمد وأبا حاتم أكثر تخصصا بالحديث من الإمام الشافعي على جلالة قدره، فالحديث لا يصح، وأيضا فإن الإمام الشافعي أخذ بهذا الحديث في القديم، ولم يأخذ به في الجديد، بل اتفق فيه رأيه مع رأي الجمهور بعدم تحريم وج (الزرقاني: شرح المواهب اللدنية ٤/ ١٠)، فأحسبه تنبه إلى ضعف الحديث. وقال الخطابي: «ولست أعلم لتحريمه وجًا معنىً، إلا أن يكون ذلك على سبيل الحمى لنوع من منافع المسلمين، ويحتمل أن يكون ذلك التحريم إنما كان في وقت معلوم، وفي مدة محصورة ثم نسخ، «وبيَّن الخطابي أن المسلمين في أثناء حصار الطائف أفادوا من شجر وصيد ومرفق المكان، فدل ذلك على أنها حل مباح (مختصر سنن أبي داود للمنذري ٢/ ٤٤٢)، وإنما سقت هذه الحاشية الطويلة، لئلا يعتمد الدارسون عليها في بيان السياسة الشرعية. خاصة أن بعض الباحثين المعاصرين اعتمد على هذا الكتاب، وظن أن الرسول ﷺ تنازل لثقيف بتحريم وج الذي كانت تحرمه (عون الشريف قاسم: نشأة الدولة الإسلامية ١٣٧).

(١) ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٤/ ٥٣٨ - ٥٤٠) بإسناد معضل (فقه السيرة للغزالي تعليق الألباني ص ٤٥٠).

(٢) سنن أبي داود ٢/ ١٤٦ وإسناده حسن لذاته.

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٦٨ وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٤/ ٢٤٥).

وكان عثمان بن أبي العاص أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين، فأمَّره الرسول على الطائف، وكان أصغرهم سنًّا[١].

وبعد إسلام وفد ثقيف سألوا الرسول ﷺ أسئلة كثيرة تتعلق بأمور دينهم، حتى سألوا الصحابة عن كيفية تقسيم القرآن إلى أحزاب، فقالوا: «كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم»[٢]. وهو نفس ترتيب القرآن المعروف الآن، ويبدو أن الوفد تأثر بمقابلاته مع الرسول ﷺ وباختلاطه مع الصحابة، وما جرى من حوار بينهم وبين المسلمين حتى إنهم صاموا ما بقي عليهم من شهر رمضان[٣].

وقد مكث الوفد خمسة عشر يومًا في المدينة، ثم عادوا إلى الطائف ومعهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفي ليهدما اللات، وقد حكى ابن إسحاق وصفًا لحادثة هدم اللات واجتماع النساء الثقفيات حولها يبكين حتى أتم المغيرة هدمها، وأخذ مالها من الذهب والجزع[٤]. وأهل الطائف يظنون أنها ستثأر لنفسها، وقد سخر منهم المغيرة فرمى معوله

(١) مسند أحمد ٤/ ٢١٨ وسنن ابن ماجة ١/ ٣١٦ وانظر صحيح مسلم ١/ ٣٤٢، حيث أشار إلى إمارته.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٩، ٣٤٣ وأبو داود: السنن ١/ ٣٢١ - ٣٢٢ وابن ماجة: السنن ١/ ٤٢٧ - ٤٢٨، والحديث مداره على عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عثمان بن عبد الله، ويحتاج للمتابعة ليصير حسنا، لأن الطائفي صدوق يخطئ ويهم، عثمان مقبول عند ابن حجر ومحله الصدق عند الذهبي (التقريب لابن حجر ٢/ ١١ وميزان الاعتدال ٣/ ٤٣).

(٣) ابن هشام: السيرة ٢/ ٥٤٠ - ٥٤١ وفي إسناده عيسى بن عبد الله بن مالك، قال عنه ابن حجر: مقبول (تقريب ٢/ ٩٩).

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢ من طريق ابن إسحاق دون إسناد، والبداية والنهاية ٥/ ٣٣ - ٣٤ من طريق موسى بن عقبة دون إسناد.

وركض، فقالوا: ثأرت الربة! فضحك ونصحهم بتوحيد الله وعاد فأنجز عمله. وبذلك زالت أسطورة اللات التي عبدت طويلاً من دون الله.

***

وفيما يلي بيان أهم الأحكام المستنبطة من هذه الغزوة، لما في بيان تواريخ التشريعات من فوائد عظيمة، فبها يعرف الناسخ والمنسوخ فيمكن الترجيح عند التعارض، وتتبين علل الأحكام بمعرفة الظروف والملابسات التي أحاطت بتشريعها.

الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١ - نزول الآية الكريمة ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي، وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل[١].

٢ - منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات، وكان ذلك مباحًا إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع سماع الرسول ﷺ أحد المخنثين يصف بادية بنت غيلان الثقفي قبيل حصار الطائف[٢]. وفي المنع حيطة لأخلاق المجتمع الإسلامي.

---

(١) سورة النساء: آية ٢٤ وعن سبب النزول انظر شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٦٣٧ وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٤/ ٢٨٢ وعون المعبود ٦/ ١٩١، ١٩٣ وتفسير ابن كثير ١/ ٤٧٣.

(٢) البخاري: صحيح ٥/ ١٢٨، ٧/ ٣٣،١٣٧ وصحيح مسلم ٤/ ١٧١٥.

٣ - النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء، ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين[١].

٤ - إقامة الحد في دار الحرب، حيث فعل ذلك الرسول ﷺ بشارب الخمر في يوم حنين[٢].

٥ - جواز الاستعانة بالمشركين، كما فعل النبي ﷺ باستعارة الدروع من صفوان بن أمية مع ضمانه ﷺ لها، ولا تكون الاستعانة بهم إلا بشرط الوثوق بهم، وألا يغلبوا على المعركة ويصبغوها بصبغتهم، بل يكون حكم الإسلام هو الغالب[٣].

٦- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنيمة، إذا رأى الإمام أن ذلك يعين على دخولهم في الإسلام أو دفع أذاهم عن المسلمين، أو جلب نفع للمسلمين. قال أنس بن مالك: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٤].

٧ - تشريع العمرة من الجعرانة.

*****

(١) أحمد: المسند ٣/ ٤٨٨ بإسناد حسن (إرواء الغليل ٥/ ٣٥) والحاكم: المستدرك ٢/ ١٢٣ والبيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٣٠ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وانظر الألباني: إرواء الغليل ٥/ ٣٥، ٣٦. وفتح الباري ٦/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) أبو داود: سنن ١٢/ ١٩٦ - ١٩٧ وأحمد: المسند ٤/ ٣٥٠ وسنن الدارقطني ٣/ ١٥٧ - ١٥٨ ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٤٥ وفي إسناده عبد الله بن عبد الرحمن بن أزهر مقبول (تقريب ١/ ٤٢٧).

(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٤٧٩ والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٩٧ وابن حجر: التلخيص الحبير ٤/ ١٠٠ - ١٠١، وذكر «الأقرب أن الاستعانة بالمشركين كانت ممنوعة، ثم رخص فيها وعليه نص الشافعي».

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٨٠٦.

غزوة تبوك

وقعت هذه الغزوة في رجب من صيف عام تسع للهجرة بعد العودة من حصار الطائف بستة أشهر تقريبًا[١]. وبرغم أن المؤرخين - على عادتهم - حاولوا أن يجدوا سببًا مباشرًا لها، فذكر ابن سعد أن هرقل جمع جموعًا من الروم وقبائل العرب الموالية لها، وأن المسلمين علموا بخبرهم فخرجوا إلى تبوك[٢].

وذكر اليعقوبي أن الثأر لجعفر بن أبي طالب هو سبب الغزوة[٣] ولكن الصحيح أنها استجابة طبيعية لفريضة الجهاد، وقد نبه على ذلك الحافظ ابن كثير بقوله: «فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق، لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

ولا صحة لما قيل: إن الخروج إلى تبوك كان عن مشورة يهود، وقولهم: إنها أرض المحشر وأرض الأنبياء تغريرًا بالمسلمين، ليخرجوهم من المدينة، ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وأن الآية ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ نزلت في ذلك، فإن الخبر

(١) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٨٤، وما أشار إليه من أنها بعد حصار الطائف بستة أشهر ورد في رواية محمد بن عائذ صاحب المغازي بإسناد ضعيف من جهة عثمان بن عطاء الخراساني وأبيه. ولكنه لا يتعارض كثيرا مع المشهور من كونها في رجب ومن كون الرسول ﷺ دخل المدينة بعد العودة من حصار الطائف في شهر ذي الحجة.

(٢) الطبقات الكبرى ٢/ ١٦٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٥؛ والآية من سورة التوبة (١٢٣). وانظر: تفسير الطبري ١١/ ٧١.

في ذلك مرسل ضعيف، ويرده أن الآية مكية[١]. وتتميز هذه الغزوة وغزوة مؤتة التي سبقتها بأن وجهتها إلى الروم ونصارى العرب، في حين كانت الغزوات والسرايا الأخرى وجهتها إلى يهود والقبائل العربية المشركة. وكانت النصرانية قد فقدت روحها، وأضاعت تعاليمها، وانقسمت إلى فروع عديدة، ومنشأ الخلاف عقيدتهم في المسيح عليه السلام، فأكثرهم يعتقد بالأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس)، واتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح، وبعضهم يرى أن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية، وهم اليعاقبة (المنوفستية)، في الشام ومصر، وقد عقدوا لذلك المؤتمرات، وحاول هرقل التأليف بين الفرق الدينية حفاظًا على الإمبراطورية الرومانية دون جدوى، وقد أوقعت الإمبراطورية الاضطهاد بسكان الشام ومصر اليعاقبة (المنوفستية) مما أدى إلى نفي بعض كبار رجال الدين من مصر، وفرار بعضهم الآخر.

ولم يقتصر الفساد على النواحي العقدية، بل امتد إلى سائر جوانب الحياة، فالظلم والاستبداد، وكثرة الضرائب وثقلها على الشعوب، والروح الطبقية التي تجعل الناس متفاوتين في المكانة بحكم المولد والانتماء للطبقة، كل ذلك كان يعشعش على البلاد، حتى إنه لم تعد ثمة فروق أساسية بين حياة النصارى والمشركين، وقد أمر الله تعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين، ولكنه وافق على احتفاظهم بدينهم إذا خضعوا سياسيًّا للمسلمين وأدوا إليهم الجزية، خلافًا لعبدة الأوثان فإنه لم يقبل منهم الجزية، بل لا بد لهم من الدخول في الإسلام إذا أرادوا الأمن من

---

(١) ابن كثير: تفسير ٥/ ٢١٠ - ٢١١ وأصل الرواية في سبب النزول هذا في تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ١٦٧ - ١٦٨، وفي إسناده أحمد بن عبد الجبار العطاردي ضعيف.

القتال ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾(١).

وبذلك دخل المسلمون مرحلة جديدة بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم أهل الكتاب من يهود إلى قتال أهل الكتاب من النصارى(٢).

هذا التحول الذي يتسق مع طبيعة الإسلام وأهدافه في الحياة، والذي تعد غزوة تبوك أحد شواهده.

وتبوك موقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة المنورة ٧٧٨ كيلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك، وقد سماها الرسول ﷺ بتبوك(٣)، وسميت بغزوة العسرة أيضًا لما كان أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها(٤)، والذي تدل عليه أيضًا الآية الكريمة ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾(٥)، وقد بين كل من قتادة ومجاهد(٦)

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٧٢، حيث يوضح ذلك تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المتوفى ١٨٢ هـ وهو مفسر كبير لكنه ضعيف عند المحدثين (تقريب ١/ ٤٨٠).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الفضائل ٧/ ٦٠ - ٦١.

(٤) صحيح البخاري: كتاب التوحيد ٩/ ١٢٩، ومواضع أخرى من صحيحه؛ وصحيح مسلم ٥/ ٨٢. انظر: فتح الباري ٨/ ٨٤؛ وانظر عن الضيق الاقتصادي أيضا: صحيح مسلم ١/ ٢٦ - ٢٧، ٤١ - ٤٢؛ والنووي: شرح صحيح مسلم ١/ ٢٢١ - ٢٢٣؛ وتفسير القرطبي ٨/ ٢٧٩.

(٥) سورة التوبة: الآية (١١٧).

(٦) الإسنادان منقطعان حيث إن قتادة ومجاهدًا لم يدركا ذلك، والإسناد إلى قتادة صحيح، وأما الإسناد إلى مجاهد ففيه سنيد بن داود المصيصي ضعيف.

- وهما إمامان كبيران في التفسير بالمأثور - أن «الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها»[١]، ولا يعرف إن كانت الأزمة الاقتصادية وقت هذه الغزوة ترجع إلى توقيت الحملة قبل جني ثمار التمر وبيعه، أم أنها ترجع لعوامل أخرى أبعد[٢].

المنفقون على جيش تبوك:

وقد حث الرسول ﷺ على النفقة، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله، فسارع أغنياء الصحابة وفقراؤهم إلى تقديم الأموال، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش تبوك، فقد قال الرسول ﷺ: «من جهز جيش العسرة فله الجنة» فجهزهم عثمان[٣]. حيث جاء بألف دينار فصبها في حجر النبي ﷺ، والنبي ﷺ يقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» - يرددها مرارًا[٤] -.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٥.
(٢) فتح الباري ٣/ ٣٤٣ - ٣٤٤.
(٣) صحيح البخاري: كتاب الوصايا ٤/ ١١؛ وفتح الباري ٥/ ٣٠٦، وقارن بسنن الترمذي؛ كتاب المناقب ١٢/ ١٥٣ - ١٥٤، وقال: حديث حسن صحيح غريب.
(٤) مسند أحمد ٥/ ٥٣؛ وسنن الترمذي: كتاب المناقب ١٣/ ١٥٤ - ١٥٥. وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والحاكم: المستدرك ٣/ ١٠٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التصحيح، ولكن يبدو أنهما تساهلا في تصحيحه، لأن في إسناده كثير بن أبي كثير مولى ابن سمرة، حكم عليه الحافظ في التقريب أنه مقبول (٢/ ١٣٣) ووثقه العجلي وابن حبان وهما متساهلان (ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٠) ويبدو أن الحديث صالح للاعتبار، ويقوى بغيره إلى الحسن.

وقد وردت روايات أخرى لكنها ضعيفة تفيد أن عثمان قدم معونات أخرى للجيش كالإبل وعدتها[(١)]. وإن كان ذلك لا يمنع أن عثمان قدم ذلك، فقد ثبت أن الصحابة أقروا له بتجهيزه جيش العسرة، وهم ثلاثون ألف مقاتل، فلا بد أنه أنفق نفقة عظيمة في ذلك.

وقد ذكر الطبري بأسانيد عديدة لا تخلو جميعًا من ضعف، لكنها تتساند لتقوية الخبر تاريخيًّا - أن عبدالرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم - وهي نصف أمواله في تجهيز جيش العسرة[(٢)].

ولم يجد فقراء المسلمين إلا أن يتقدموا باليسير الذي يقدرون عليه، فجاءوا على استحياء متعرضين لسخرية المنافقين. فقد جاء خيثمة الأنصاري بصاع تمر فلمزه المنافقون[(٣)]، وجاء أبو عقيل بنصف صاع من تمر، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب ١٣/ ١٥٣ - ١٥٤ وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة. والحاكم: المستدرك ٣/ ١٠٢ وصححه ووافقه الذهبي، ولكن فيه فرقد أبو طلحة مجهول العين (تهذيب التهذيب ٨/ ٢٦٤) فلا يسلم لهما بهذا التصحيح.

(٢) الطبري: تفسير ١٠/ ١٩١ - ١٩٦ وفيه المثنى بن إبراهيم الآملي لا يعرف وعمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف نبه الشيخ محمود محمد شاكر على سقوطه من السند وأنه يضعف و١٠/ ١٩٤ - ١٩٥ وهو مسلسل بالضعفاء العوفيين و١٠/ ١٩٧ وفي إسناده محمد ابن رجاء أبو سهل العباداني لا يعرف، وعامر بن يساف ضعيف. و١٠/ ١٩٥ وهو من مرسل مجاهد، وفي سنده عبد الله بن أبي نجيح وهو مدلس وقد عنعن عن مجاهد. و١٠/ ١٩٥ وهو من مرسل قتادة بإسنادين صحيحين إليه.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التفسير ٦/ ٥٦؛ وفتح الباري ٨/ ٣٣٠.

obeikandl.com

ﭐلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ(١)﴾(٢)، فهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من فقر الفقراء!!.

موقف المنافقين في غزوة تبوك:

وقد استعلن أمر النفاق في هذه الغزوة وقام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير، فمضوا يثبطون الناس ويقولون: (لا تنفروا في الحر) فقد كان الحر شديدًا، وكان الناس يفيئون إلى ظلال الأشجار، فكان المنافقون يستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل، وقد ذهب بعضهم إلى النبي ﷺ يستأذنه بالتخلف مبديًا الأعذار الكاذبة، حتى عاتب الله نبيه على إذنه لهم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٣) وقد وصف القرآن منافقي الأعراب بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا من منافقي أهل المدينة، لأنهم أقسى قلوبًا، وأقل علمًا بالسنن والأحكام ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾(٤). وهكذا فإن النفاق لم يكن منحصرًا في المدينة، بل امتد إلى البوادي ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٥). وقد نهى القرآن عن قبول أعذار المنافقين وتصديقهم ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/ ١٩٧، بإسناد صحيح.

(٢) سورة التوبة: الآية (٧٩).

(٣) سورة التوبة: الآية (٤٣). وتفسير الطبري ١٠/ ١٤٢، بإسناد صحيح إلى مجاهد مرسلاً.

(٤) سورة التوبة: الآية (٩٧). وتفسير الطبري ١١/ ٣.

(٥) سورة التوبة: الآية (١٠١).

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١)، ووصفهم القرآن بأنهم رجس(٢).

وهكذا وضعت الحواجز بين المؤمنين والمنافقين، ولم يعد التعامل مع المنافقين يقوم على الستر وعدم المجابهة، بل صارت المفاصلة أساسًا للتعامل، فقد فضحهم القرآن الكريم، وامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار الذي بنوه وأحرقه، كما امتنع عن الصلاة على أمواتهم، وكان قد صلى على عبدالله بن أبي ابن سلول حين موته عقب عودة المسلمين من تبوك، ثم منعه الله من ذلك ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾(٣).

وقد ابتنى المنافقون مسجدًا قبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه مكيدة للمسلمين ومضرة بهم، وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على المسلمين، وقد أرادوا أن يفرقوا اجتماع المؤمنين في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة بصرف بعضهم للصلاة فيه، وقد طلب المنافقون من الرسول أن يصلي فيه تمويهًا على الناس، فنهاه القرآن عن ذلك، وسماه مسجدًا ضرارًا ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة التوبة: الآية (٩٤).

(٢) سورة التوبة: (الآية ٩٥).

(٣) فتح الباري ٨/ ٣٣٣، ٣/ ٢١٤ بإسناد صحيح. والآية في سورة التوبة: (٨٤).

(٤) سورة التوبة: الآيتان (١٠٧ - ١٠٨). وتفسير الطبري ١١/ ٢٣ - ٢٤.

وقد تخلف معظم المنافقين عن الغزوة، ومضى بعضهم الآخر مع الجيش، يقتنصون الفرص للكيد والإرجاف.

وقد انفرد الواقدي بأن النبي ﷺ أرسل رسلاً إلى القبائل يستنفرها للخروج إلى تبوك[١]. وبرغم تفرده فإنه يتفق مع النفير العام المعلن، ولا شك أن قبائل العرب استنفرت للقتال كما تدل على ذلك سورة التوبة.

أما داخل المدينة فقد أعلن النفير، وذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢]. فقد ذكر مجاهد أنها نزلت في غزوة تبوك، حيث أمروا بالنفير حين جني التمر وطيب الثمار واشتهاء الظلال. فشق عليهم المخرج[٣]. وقد طالبهم القرآن الكريم كما يبين مجاهد بأن ينفروا شبانًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٤].

ولما استأذن بعضهم في التخلف عن الغزوة نزل فيهم قرآن ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، إذا كانت تبوك بعيدة عن المدينة والسفر إليها شاقًا، ولم تكن غنيمة سهلة[٥].

---

(١) مغازي ٣/ ٩٩٠، وقد اعتمد عليه من ذكر ذلك بعده، ولا يحتج بالواقدي إذا انفرد، ولكن لابد أن يتم استنفار للقبائل خارج المدينة كما استنفر الصحابة بالمدينة.

(٢) سورة التوبة: الآية (٢٨).

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ١٣٣، ورجال إسناده إلى مجاهد ثقات لكنه مرسل، وفيه عنعنة عبد الله ابن أبي نجيح المكي وهو مدلس.

(٤) سورة التوبة: الآية (٤١). والإسناد إلى مجاهد صحيح لكنه مرسل (تفسير الطبري ١٠/ ١٣٨).

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ١٤١، بإسناد حسن إلى قتادة لكنه مرسل.

فتخلف الأعراب والمنافقون وعدد يسير من الصحابة رضوان الله عليهم من أصحاب الأعذار، سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر عن شهود هذه الغزوة.

مسارعة المؤمنين إلى الجهاد:

ونظرًا لبعد السفر وكثرة الأعداء فقد كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته ليستعدوا لذلك، خلافًا لنهجه في الحروب، فإنه لا يعلن وجهته حتى لا يصل الخبر إلى عدوه فيأخذوا أهبتهم[(١)].

وقد سارع المؤمنون إلى الخروج في هذه الغزوة، حتى إذا طلب الرسول ﷺ من علي بن أبي طالب أن يخلفه في أهله، قال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ وقال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي[(٢)]»، وهكذا شأن أصحاب العقيدة لا يفرحون بالثمار والظلال، بل يؤثرون الحر والظمأ والجوع في سبيل الله، فهي غنيمتهم التي يدخرونها لآخرتهم.

قال أبو خيثمة الأنصاري: «تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطًا فرأيت عريشًا قد رش بالماء، ورأيت زوجتي فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي: كن أبا خيثمة، فجئت، فدعا لي»[(٣)].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (فتح الباري ٨/ ١١٣).

(٢) صحيح البخاري ٥/ ١٧، ومواضع أخرى وصحيح مسلم ٧/ ١٢٠ - ١٢١.

(٣) رواه الطبراني (فتح الباري ٨/ ١١٩). والرواية ذكرها بتفصيل ابن إسحاق دون إسناد (سيرة ابن هشام ٤/ ١٦٣ - ١٦٤)، وذكرها وزاد عليه كل من عروة بن الزبير وموسى بن عقبة (ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٧ - ٨). وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه ٨/ ١٠٧؛ والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٣٨٧ - ٣٨٨ قسمًا من هذه الرواية، وهو قول: «كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة».

وقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد فهذا عُلَبَة بن زيد أحد البكاءين صلى من الليل وبكى، وقال: «اللهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض»، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غفر له(١).

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري، يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل(٢).

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج حد البكاء شوقًا للجهاد وتحرجًا من القعود، حتى نزل فيهم قرآن: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾(٣) وقد خص النبي ﷺ هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم واستقامت

---

(١) قصة علبة بن زيد وردت من طرق ضعيفة متعددة المخارج، ولها شاهد صحيح، لكن دون تسمية صاحب الصدقة، وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي (راجع الإصابة ٤/ ٥٤٦ - ٥٤٨).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١١٠ - ١١١)؛ ومسند أحمد ٤/ ٣٩٨ بسند صحيح.

(٣) سورة التوبة: الآيتان (٩١ - ٩٢). وتفسير الطبري ١٠/ ٢١١، ولم يصح شيء في تعيين من نزلت بحقهم بالأسماء، حيث اختلفت الروايات في ذلك. فمن قائل إنها في البكاءين أو في العرباض بن سارية أو عائذ بن عمرو أو في بني مقرن.

طويتهم بقوله: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»(١). وقد حكى كعب بن مالك أنه لم يبق بالمدينة إلا المنافقون وأهل الأعذار من الضعفاء(٢).

عدد جيش تبوك:

وقد وردت روايات في عدد جيش تبوك ظاهرها التعارض، ولكن يسهل التوفيق بينها، فقد قال كعب بن مالك: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان»(٣).

وفي رواية أخرى عن كعب: «يزيدون على عشرة آلاف»(٤).

وقال الحاكم في الإكليل: إنهم «زيادة على ثلاثين ألفًا»، وبهذه العدة جزم ابن إسحاق.

وقال الواقدي: «إنه كان معه عشرة آلاف فرس»، فيمكن أن تحمل رواية كعب على إرادة عدد الفرسان(٥)، دون بقية الجيش من المشاة، ونقل عن أبي زرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفًا(٦). وقال زيد بن ثابت: إنهم كانوا ثلاثين ألفًا(٧).

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٦
(٢) فتح الباري ٨/ ١٢٦
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (فتح الباري ٨/ ١١٣).
(٤) صحيح مسلم ٨/ ١١٢.
(٥) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١١٨.
(٦) المصدر السابق ٨/ ١١٨.
(٧) مغازي الواقدي ٣/ ٩٩٦.

obeikandl.com

ويبدو أن أغلب المؤرخين يميلون إلى القول: إنهم كانوا ثلاثين ألفًا، وهو عدد يدل على مدى استجابة المؤمنين لدواعي العقيدة في تلك الظروف القاسية من الحر الشديد والعسرة. وهو أكبر جيش قاده الرسول ﷺ في حياته. ويذكر الواقدي أنه لما اجتمع الجيش مضى بهم الرسول ﷺ من المدينة إلى ذي خشب على ٤٠ كيلاً من المدينة في طريق الشام، ومنها انطلق إلى تبوك، وكان دليله علقمة بن الفغواء الخزاعي(١).

وفي تبوك أعطى اللواء الأعظم للصديق رضي الله عنه والراية العظمى للزبير، وراية الأوس إلى أسيد بن حضير ولواء الخزرج إلى أبي دجانة ويقال إلى الحباب بن المنذر(٢). وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء وراية، والقبائل من العرب فيها الرايات و الألوية. وكان زيد بن ثابت يحمل راية بني مالك بن النجار، وأبو زيد يحمل لواء بني عمرو بن عوف، ومعاذ بن جبل يحمل راية بني مسلمة(٣). وسائر هذه المعلومات عن طريق الجيش وتوزيع الرايات ينفرد بها الواقدي، وهو متروك، ولكنه غزير المعلومات في السيرة، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضر.

المتخلفون عن غزوة تبوك:

وقد تخلف عن غزوة تبوك ثلاثة من الصحابة، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، والثلاثة من الأنصار

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٩٩٩ وهو متروك، فلا حاجة للنظر إلى سند الرواية، وقد ذكر فيها أنه ﷺ كان يجمع بذي خشب بين الظهر والعصر، ونظرًا لأن الكلام يتعلق بحكم شرعي، والواقدي شديد الوهن، فلم أشر إلى ذلك في المتن.

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٩٩٦ وابن سعد: طبقات ٣/ ١٦٩

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/ ٤١٦ بإسناده إلى الواقدي أيضا.

المعروفين بحسن إيمانهم، فقد شهد كعب بن مالك سائر الغزوات قبلها سوى بدر، كما شهد بيعة العقبة الثانية، وقد سوَّف في الاستعداد للغزو ولم يكن يعتزم التخلف عنه، ولكن غلبه التسويف، والميل إلى الظلال والثمار حتى خرج الناس!!

وأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فكلاهما قد شهد بدرًا، كما تخلف عنه بضعة وثمانون رجلاً[١] آخرون، وقد ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم، وأن عبدالله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عددًا كثيرًا[٢]. وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يفطن لتخلفه لكثرة الجيش[٣].

وقد تفقد الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف، وسأل أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم[٤]، كما سأل في تبوك عن كعب بن مالك[٥].

وقد عقبت سورة التوبة بتفصيل على موقف المتخلفين، فأنكرت عليهم التخلف عن النفير العام، حيث تحول الجهاد بذلك إلى فرض عين، ثم أعلنت قبول توبتهم، وأخذ صدقات أموالهم بعد اعترافهم بذنوبهم في التخلف عن

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١١٤). وتفسير الطبري ١١/ ٥٨ من مرسل الزهري.
(٢)السابق نفسه.
(٣) فتح الباري ٨/ ١١٩.
(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٢ - ١٧٣ من رواية ابن إسحاق عن الزهري، ولم يصرح بالسماع بل بلفظ «وذكر الزهري» فلعله أخذها وجادة من مغازي الزهري، وقد وردت من طريق معمر عن الزهري (موارد الظمآن في زوائد ابن حبان ٤١٨) فتقوى الرواية إلى الحسن لغيره.
(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١١٤).

الغـزوة، وطلبهم قبول صدقاتهم منهم، كما عرَّت السـورة المنافقين، وأنهم لا يؤمنـون بقـدر اللـه، ويحبون الحيـاة، ويرغبون عن الجهـاد بالنفس خوفًا مـن الموت، وقد ينفقون المال كرهًا دون نيـة صالحة، ولهم جرأة على قول الباطل، فهم يتهمون سواهم بالجبن، فإذا حوسبوا عن أقوالهم تنصلوا منها، وزعمـوا أنهم كانوا يمزحـون!! وقد رفض القرآن عذرهـم، وأعلن كفرهـم، ونهى عن الاسـتغفار لهم والصـلاة على أمواتهم، وتوعدهـم بالبكاء طويلاً في جهنم مقابل ضحكهم في الدنيا الفانية، ومنعهم من المشاركة في الجهاد مسـتقبلاً تبكيتًـا لهـم، وتنقية لصف المؤمنين مـن أمثالهم، وتمييـزًا لهم عن المؤمنين، لئلا يشـيعوا فيهم الضعف والخذلان، وقد أرجأت إحدى الآيات البـت في أمر بعـض المتخلفيـن، الذين ندمـوا على تخلفهم، وهـم من غير المنافقين المعتذرين والمتخلفين المعترفين بخطئهم.

وقـد عاتبت هذه السـورة المتخلفين من أهل المدينـة ومن حولهم من الأعـراب، مبينـة عظيم أجر الجهـاد. وما ذلـك إلا لأن الجهاد يصيـر متعينًا وقت النفير العام.

الوصول إلى تبوك:

وقـد ذكرت المصادر نـص خطبة طويلة ألقاها الرسـول ﷺ في تبوك، ولـم تثبت هـذه الخطبة مـن طريق صحيح[1] برغـم أن فقراتهـا مأخوذة من أحاديـث أخـرى معروفـة بعضهـا صحيح وبعضها حسـن، ويبـدو أن بعض الرواة لفَّقَ منها هذه الخطبة.

---

(١) أخـرج الإمـام أحمد في مسـنده ٣/ ٣٧ وأبو عبيد: الأمـوال ٢٥٥ - ٢٥٦ نص خطبة قصيرة، وفي إسـنادهما أبو الخطاب المصـري مجهول. وأخرج الحافظ ابن كثير فـي البداية والنهاية ٥/ ١٣ - ١٤ نص خطبة طويلة وفي إسناده عبد العزيز بن عمران متروك.

وفي تبوك أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد مع عدد من الصحابة إلى دومة الجندل، وقد ذكر عروة بن الزبير مرسلاً أنه أرسله في أربع مئة وعشرين فارسًا[١]، حيث أسر أكيدر بن عبدالملك الكندي - ملكها - وهو في الصيد خارجها[٢]، فصالحه النبي ﷺ على الجزية[٣]. وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه، فقال الرسول ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[٤]. وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمان مئة من السبي وألف بعير وأربع مئة درع وأربع مئة رمح[٥].

وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي ﷺ وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه على الجزية[٦].

وتشير رواية ضعيفة إلى قيام مراسلة بين النبي ﷺ وهرقل ملك الروم من تبوك، وأن النبي أوفد دحية الكلبي إليه، وأن هرقل أرسل التنوخي ليعرف

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١٧ وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود، وابن لهيعة هنا ضعيف فضلا عن إرسال عروة.

(٢) ابن حجر: الإصابة ١/ ٤١٢ - ٤١٥ من طريق ابن إسحاق بإسناد حسن عن عاصم بن عمر عن أنس، لولا عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس. والسيوطي: الخصائص الكبرى ٢/ ١١٢ - ١١٣ من طريق ابن إسحاق أيضا عن شيخيه عبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان مرسلاً، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع.

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ١٨٢.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٠ بإسناد حسن.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١٧ وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود وابن لهيعة هنا ضعيف فضلا عن إرسال عروة.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الجزية ٦/ ٧٧ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل ٧/ ٦١.

بعض علامات النبوة[١]، ولو صح ذلك لكان إرسـال دحية للمرة الثانية لأنه حمل رسالة النبي ﷺ إلى قيصر في أول سنة ٧هـ.

ولـم يقع قتـال مع الروم في هذه الغزوة، بل انتهى المسـلمون إلى تبوك، ولم يلقـوا جموع الروم والقبائل العربية المتنصـرة، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية. وقد مكث الجيش عشرين ليلة[٢] في تبوك، ثم عادوا إلى المدينة.

العودة من تبوك:

وفي طريق العودة من تبوك إلى المدينة مر المسلمون بالحجر، وهي في ديار ثمـود الذين امتحنوا بالناقـة فنحروها فأخذتهم الصيحـة لعتوهم وعصيانهم[٣]. وقد سـارع النـاس إلى دخول بيـوت الحجر فنهاهم الرسـول ﷺ[٤] وقال: «لا تدخلوا مسـاكن الذين ظلموا أنفسـهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسـه وأسـرع السـير حتى أجـاز الوادي[٥]، كمـا نهاهم عن شـرب الماء من بئرها أو الوضوء منه، وأن يعلفوا إبلهم ما عجنوه من عجين بمائها[٦].

(١) مسـند أحمـد ١/ ٢٠٣، ٣/ ٤٤٢، ٤/ ٧٤، ٥/ ٢٩٢ بإسـناد فيـه سـعيد بـن أبي راشـد وهو مقبول، وقد تفرد به.

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ١٤٥ بإسناد صحيح.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ٤/ ١١٨ - ١١٩ وصحيح مسلم ٨/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٤) مسـند أحمد ٤/ ٢٣١ بإسـناد حسن وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ١١ وقال: إسناده حسن وصححه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤٠ - ٢٤١ ووافقه الذهبي.

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٢٥).

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١١ بإسناد حسن إلى العباس بن سهل بن سعد الساعدي مرسلاً.

obeikandi.com

وقد اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الجهد في طريق العودة، فدعا ربه: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر»، فنشطت بهم حتى أبلغتهم المدينة ولم يشتكوها[١].

وفي طريق العودة حاول المنافقون وهم ملثمون لا يعرفون تنفير دابة الرسول ﷺ في إحدى الثنايا لتطرحه، ففطن لهم وأمر بإبعادهم[٢].

ولما اقترب الجيش من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه[٣]، ودخل المدينة فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس. وجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة، فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء كعب بن مالك وقد سبقه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وقد أقر الثلاثة بأنه لا عذر لهم في تخلفهم عن الغزوة، ولم يرضوا أن يضيفوا إلى ذنب التخلف ذنبًا جديدًا وهو الكذب، فنهى الرسول ﷺ المسلمين عن الكلام مع الثلاثة، فاجتنبهم الناس خمسين ليلة، وأمرت نساؤهم باعتزالهم، فذهبن عند أهلهن إلا زوجة هلال إذ كان شيخًا كبيرًا، فبقيت لخدمته فقط بإذن من الرسول ﷺ. وقد ضاقت بهم الدنيا، وحاول ملك الغساسنة استغلال الموقف، فراسل كعب ابن مالك ليلحق به، لكن كعب بن مالك أحرق الرسالة، وقال: إنها زيادة في امتحانه. واستمرت المقاطعة حتى نزل القرآن يعلن توبة الله عليهم ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٢٠ بإسناد حسن، وموارد الظمآن في زوائد ابن حبان ٤١٨.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٣٩٠ - ٣٩١ بإسناد حسن. والبيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٣٢ - ٣٣ من طريقين إحداهما عن ابن إسحاق دون إسناد والثانية عن عروة بن الزبير مرسلا أيضا، وفي الإسناد عروة ضعف بسبب ابن لهيعة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي ٦/ ٨.

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ [١]﴾[٢].

الأحكام المستنبطة من غزوة تبوك:

صلى رسول الله ﷺ خلف عبدالرحمن بن عوف الذي أم المسلمين في صلاة الفجر بتبوك، حيث تأخر عنهم في حاجته، ولما قدم أراد عبدالرحمن أن يتأخر فأومأ له النبي أن يتم بهم الصلاة وصلى خلفه. مما يدل على جواز إمامة المفضول وصلاة الأفضل خلفه[٣].

وقد سأله معاذ بن جبل عن عمل يدخله الجنة، وهما في طريق العودة، فأجابه النبي ﷺ بأن رأس هذا الأمر الشهادة، وقوامه الصلاة والزكاة، وذروة سنامه الجهاد[٤].

وقد سئل ﷺ في هذه الغزوة عن سترة المصلي؟ فأجاب بأنها مثل مؤخرة الرحل[٥].

وقد جمع في الغزوة بين صلاة الظهر والعصر، وكذلك المغرب والعشاء[٦]. وقد أقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة[٧].

وفي الطريق إلى تبوك خرص الرسول صلى الله عليه و سلم حديقة في وادي القرى، أي حزر مقدار التمر الذي يجتنى من الرطب على النخل، مما يدل على مشروعية الخرص[٨].

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٨.
(٢) فتح الباري ٨/ ١١٣ - ١١٦ من رواية البخاري.
(٣) صحيح مسلم ١/ ١٥٨ - ١٥٩ وصحيح البخاري ١/ ٤٣ - ٤٤.
(٤) مسند أحمد ٥/ ٢٤٥ - ٢٤٦ بإسناد حسن.
(٥) سنن النسائي ٢/ ٦٢ بإسناد صحيح.
(٦) شرح موطأ مالك للزرقاني ٢/ ٥٥ - ٥٨.
(٧) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ١٤٥ بإسناد صحيح.
(٨) فتح الباري ٣/ ٣٤٣ - ٣٤٤.

وطلب الماء من بيت في تبوك، وهو في قربة من جلد، وقال عن أهبة الميتة: دباغها طهورها(١).

وأهدر ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة ومعها الثنية(٢).

ويستدل من مقاطعة الثلاثة المتخلفين عن الغزوة من الصحابة على جواز الهجر أكثر من ثلاث لسبب شرعي(٣).

*****

لقد حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الأقسام الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وكانت تمهيدًا لفتوح بلاد الشام، حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان قد جهز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة قبيل وفاته للتوجه إلى الشام، لكن الجيش لم يتحرك نحو أهدافه إلا في خلافة الصديق رضي الله عنه، حيث حالت وفاة النبي ﷺ دون إنفاذه في حياته، وبرغم ظروف الخطر المحدقة بالمدينة وبكيان الإسلام كله بسبب حركة الردة فإن الصديق أصر على إنفاذ الجيش، وما أن استتبت الأمور نسبيًا حتى جهز الصديق جيوش الفتح إلى بلاد الشام والعراق، تحقيقًا لأهداف الدعوة الإسلامية بتحرير البشر من نير الظلم والطغيان والعبودية لغير الله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

*****

---

(١) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/ ٦٤ بإسناد حسن.

(٢) صحيح البخاري ٩/ ٧ - ٨ ومسلم ٥ ١٠٤ - ١٠٥. وفتح الباري ٨/ ١١٢ - ١١٣.

(٣) انظر عن الفوائد الكثيرة المستنبطة، فتح الباري ٨/ ١٢٣ - ١٢٤ حيث يفصل ذلك.

obeikandl.com

الأحداث الأخيرة

- عام الوفود
- حج أبي بكر بالناس ٩ هـ
- حجة الوداع.
- تجهيز جيش أسامة بن زيد بن حارثة.
- وفاة الرسول ﷺ.

obeikandl.com

obeikandl.com

عام الوفود

سمي العام التاسع بعام الوفود، حيث ابتدأت وفود القبائل العربية تقدم من أنحاء الجزيرة العربية معلنة دخولها في الإسلام منذ رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر سنة ثمان، فقد «كانت العرب تلوم بإسلامها الفتح» فلما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وتعد طبقات ابن سعد أوسع المصادر جمعًا لأخبار تلك الوفود[١]، وقد بلغ مجموع ما ذكرته المصادر أكثر من ستين وفدًا[٢].

وقد ساقت المصادر أخبار هذه الوفود دون أسانيد في الغالب، وأقدم من تكلم عنها بتفصيل ابن إسحاق، ولم يبين مصادر معلوماته وأسانيد مروياته إلا نادرًا[٣]، وهذه الروايات النادرة إنما هي مراسيل الزهري وعبدالله بن أبي بكر والحسن البصري، سوى خبر قدوم ضمام بن ثعلبة وافدًا، فقد أسنده إلى ابن عباس وفيه محمد بن الوليد بن نويفع مقبول ولم يتابع، فتضعف الرواية لأجله. والوفود التي ساق ابن إسحاق أخبارها هي وفد تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد عبدالقيس، ووفد بني حنيفة، ووفد طيء، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد ملوك حمير، ووفد بني الحارث بن كعب، ووفد همدان، ووفد عدي بن حاتم، ووفد فروة بن مسيك المرادي، ووفد صرد بن عبدالله الأزدي، ووفد فروة بن عمرو الجذامي، ويلاحظ أنه يكثر من سرد الأشعار ضمن الأخبار.

---

(١) أشار الحافظ ابن حجر إلى ذلك، ولكنه بين إغفاله ذكر وفد هوازن من بينها.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢١ - ٢٢٢. وفتح الباري ٨/ ٨٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٦٠.

وأما ابن سعد[١] فقد فصل كثيرًا واستقصى في جمع المعلومات عن الوفود، ولكن معظم رواياته من طريق الواقدي وهشام الكلبي، وكلاهما متروك وبقيتها إلا القليل جدًّا من طريق علي بن محمد المدائني وهو صدوق، ولكن سائر الأسانيد التي أوردها ابن سعد لا تخلو من مطعن في ضعف الرواة أو الإرسال. والقليل جدًّا (بضع روايات) عن عفان بن مسلم وعارم بن الفضل السدوسي. وهما ثقتان من شيوخ البخاري.

وبرغم عدم ثبوت هذه الأخبار المفصلة التي ساقها المؤرخون عن الوفود بالنقل الصحيح المعتمد عند المحدثين، فإن خبر قدوم بعض هذه الوفود ثابت بالروايات الصحيحة[٢]، وكذلك بعض الأخبار المتعلقة بهم، فقد ذكر الإمام البخاري قدوم وفد تميم، كما حكت سورة الحجرات بعض ما صدر منهم من الأعمال المتسمة بجفاء الطبع وقلة الذوق، حيث نادوا الرسول عليه الصلاة والسلام بصوت عال من خارج حجرته دون أن يستأذنوا عليه[٣]، ولا شك أن سورة الحجرات نزلت لتعليم المسلمين جميعًا بهذه المناسبة أدب مخاطبة الرسول ﷺ والاستئذان عليه.

كما ذكر البخاري قدوم وفد عبدالقيس، ووفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب، وأنه اشترط لإسلامه أن يكون له الأمر بعد الرسول ﷺ، وأن النبي ﷺ قال له: إنه لو سأله قطعة جريد ما أعطاه، وأشار إلى ما سيكون منه من فتنة!!، وذكر وفد نجران وفيهم العاقب والسيد حاكما نجران، وقد دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبوا فدعاهم إلى المباهلة لما نزلت آية المباهلة

---

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٢٩١ - ٣٥٩.

(٢) فتح الباري ٨/ ٨٣ - ١٠٣ وابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٤٠ - ٩٨ ومعظم رواياته عن ابن إسحاق والواقدي والبيهقي.

(٣) الطبري: تفسير ٢٦/ ١٢٢.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤].

فأراد ا الاستجابة إلى الملاعنة، ثم عدلا عن ذلك خوف أن تصيبهم اللعنة، وطلبا منه المصالحة على أن يدفعوا الجزية، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح لتحصيلها[٥]، ولا شك أن مصالحة أهل نجران[٦] على الجزية ربطتهم بدولة الإسلام، وقطعت الأواصر بينهم وبين الروم، فكان ذلك تأمينًا لظهر المسلمين، وهم يخططون لمواجهة كبيرة مع الروم في الشام.

وقد ذكر البخاري وفد الأشعريين وأهل اليمن، كما ذكر وفد دوس ووفد طيء، وقدوم عدي بن حاتم الطائي.

وذكر ابن عباس إرسال بني سعد بن بكر لضمام بن ثعلبة إلى المدينة، وكان رجلًا جلدًا كثير الشعر له غديرتان، فأناخ بعيره على باب المسجد وعقله، ثم دخل على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: أيكم

(٤) سورة آل عمران: الآيات ٥٩ - ٦١.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٣٢٤ وأخرجه مسلم: الصحيح - فضائل الصحابة - باب فضائل علي بن أبي طالب، والترمذي: الجامع حديث رقم ٣٧٢٤.

(٦) أما نص كتاب صلح نجران فلم يثبت من طريق صحيحة أو حسنة، بل إن طرق وروده كلها معلولة، ففي الأموال لأبي عبيد ولابن زنجويه طريق لها علتان؛ إحداهما الإرسال والأخرى أن أحد رجال السند وهو عبيد الله بن أبي حميد متروك كما في التقريب، وورد في سنن أبي داود ٣/ ١٦٧ من رواية السدي عن ابن عباس، وفيها نظر لاحتمال الانقطاع بينهما، وورد في كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٢ بإسنادين مرسلين، وورد في طبقات ابن سعد ١/ ٧ بإسناد جمع فيه ضعفاء.

ابـن عبدالمطلب؟ فقال رسـول الله ﷺ: أنا ابـن عبدالمطلب. قال: محمد؟ قـال: نعم، قال: يا محمد إني سـائلك ومغلظ عليك في المسـألة، فلا تجدن عليَّ في نفسـك، فإني لا أجد في نفسـي، قال: سل عما بدا لك. قال: أنشدك الله... الله بعثك إلينا رسـولاً؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشـد الله... الله أمرك أن نعبده ولا نشـرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأوثان والأنداد، التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال: اللهم نعم.

ثم جعل يذكر فرائض الإسـلام فريضة فريضة، وينشـده عند كل فريضة حتى إذا فرغ قال: أشـهد أن لا إله إلا الله وأنك عبدالله ورسـوله، وسـأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ولا أزيد، ولا أنقص، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: إن يصدق دخل الجنة.

ثم رجع ضمام إلى قومه فاجتمعوا إليه، فسـب أمامهم اللات والعزى، فقالوا: ياضمام اتق البرص والجذام والجنون!!

فقال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسـولاً وأنزل كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسـوله. وإني قد جئتكم من عنده، وبما أمركم به ونهاكم عنه. فو الله ما أمسى ذلك اليوم من حاضرته رجل ولا امرأة إلا مسلمًا[١].

(١) أبو داود: سنن ١/ ٧٩ ومستدرك الحاكم ٣/ ٥٤ - ٥٥ ومسند أحمد رقم ٢٣٧٠ من حديث ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وإنما هو حسن فقط، لأنه من طريق ابن إسحاق وفيه محمد بن الوليد بن نويفع الأسدي مقبول، وقد توبع في رواية أبي داود من قبل سلمة بن كهيـل وهو ثقة، وقد ذكر الإمامان البخاري ومسـلم ورود ضمام بالمدينة باختصار. (صحيح مسلم ١/ ٣٢ وصحيح البخاري ١/ ٢٢).

فلا شك إذا في قدوم الوفود في العام التاسع إلى المدينة لإعلان إسلام قبائلهم، ولكن الأخبار المفصلة تحتاج إلى نقد تاريخي للمتون ونقد أدبي للأشعار التي ربما تخضع لمقاييس أدق، يمكن عن طريقها تثبيت صحة المعلومات تاريخيًّا أو نفيها.

وعلى أي حال فإنه في العام التاسع ساد الإسلام الجزيرة العربية التي توحدت سياسيًّا لأول مرة في تاريخها تحت رايته، فبرغم أنها عرفت نشوء الدويلات ونظم السياسة قبل الإسلام، إلا أن أي دويلة من تلك الدويلات مثل (معين وسبأ وحمير وكندة والغساسنة والمناذرة) لم تتمكن من توحيد الجزيرة العربية تحت رايتها، بل إن حضارات تلك الدويلات كانت قد اضمحلت وطغت البداوة على مراكزها قبل الإسلام، وقد تمكن الرسول ﷺ من تحقيق وحدة الجزيرة في أقل من عشر سنوات برغم قوة الروح الفردية، وتغلغل العصبية القبلية والنزعات الجاهلية، ولم تكن وحدة صورية، بل كانت تشابكًا وثيقًا وتجانسًا في الروح والعقل والسلوك، لذلك صلحت أن تكون لبنة قوية وأساسًا متينًا قامت عليه الدولة الإسلامية، التي بسطت سلطانها على رقعة شاسعة من آسيا وأفريقيا وأوروبا.

*****

obeikandl.com

حج أبي بكر بالناس عام ٩ هـ

لم يحج الرسول ﷺ عام فتح مكة، بل اعتمر ورجع إلى المدينة، وقد حج المشركون والمسلمون معا في عام ٨ هـ، فلما كان العام التاسع، أمَّر أبا بكر على الحج، فخرج في ذي الحجة[١] إلى مكة، وقد انفرد الواقدي بذكر عدد من حج معه، فقال: إنهم ثلاث مئة من الصحابة ومعهم عشرون بدنة[٢].

ولما خرج أبو بكر بالناس من المدينة نزلت سورة براءة، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب بصدر سورة براءة ليعلنها على الناس في موسم الحج يوم النحر وهو العاشر من ذي الحجة، وقال النبي: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»[٣]، ولما رأى أبو بكر عليًّا سأله: أأمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، فمضيا[٤]؛ أبو بكر أمير على الحج وعلي يبلغ صدر سورة براءة، ويساعده عدد من الصحابة في النداء بها، منهم أبو هريرة[٥]. والطفيل بن عمرو الدوسي، وقد ذكر علي بن أبي طالب أنه بعث بأربع: (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته)[٦].

---

(١) نص على ذلك ابن سعد بإسناد صحيح إلى مجاهد (الطبقات الكبرى ٢/ ١٦٨) وابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠١).

(٢) فتح الباري ٨/ ٨٢.

(٣) ابن إسحاق بإسناد حسن لكنه من مرسل محمد بن علي الباقر (سيرة ابن هشام ٤/ ٢٠٣ وتفسير الطبري ١٠/ ٦٥) وله شواهد يتقوى بها (ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٣٧ – ٣٨).

(٤) السابق نفسه.

(٥) مسند أحمد حديث رقم ٥٩٤ بإسناد صحيح، وسنن الترمذي ٤/ ١١٦ وصححه. وتفسير الطبري ١٠/ ٦٣ – ٦٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٣٨ نقلاً عن مسند أحمد، وقال: إسناده جيد.

وقد تضمن صدر سورة براءة مفاصلة مع الوثنية وأتباعها، حيث منعت حج المشركين بعد العام التاسع وأعلنت الحرب عليهم، لكنها أمهلت المعاهدين منهم إلى انتهاء مدتهم، وأمهلت من له عهد إلى أجل غير محدود - أو إلى أجل محدود قد نقضه - أربعة أشهر متتابعة تبتدئ في العاشر من ذي الحجة، وتنتهي في نهاية العاشر من ربيع الآخر، وأمهل من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم، أي خمسين يوما تنتهي بنهاية المحرم، فإذا انتهت مددهم صاروا في حالة حرب مع المسلمين[1]. ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2].

لقد مضت على دعوة الإسلام اثنتان وعشرون سنة، بذل المسلمون خلالها كل جهد، وسلكوا كل طريق مشروع لتبليغ الدعوة، ومع ذلك أصر بعض المشركين على عبادة الأصنام، والطواف بالبيت العتيق وفق طقوس الجاهلية، وقد آن الأوان لمفاصلتهم، ووضع حد لعنادهم وتجاهلهم لدعوة الحق.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ساندته حملة للتوعية والدعوة إلى الإسلام، وتنظيم المناطق النائية، التي انضمت للدولة الإسلامية، فقد

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٦٦، ٧٤ وهي من ترجيحات الطبري رحمه الله؟. وذهب ابن كثير إلى أن الصحيح أن من كان له عهد فأجله إلى أمده، بالغًا ما بلغ ولو زاد على أربعة أشهر، ومن ليس له أمد بالكلية فله تأجيل أربعة أشهر، والقسم الثالث من له أمد ينتهي إلى أقل من أربعة أشهر من يوم التأجيل، وهذا يحتمل أن يلتحق بالأول، فيكون أجله إلى مدته وإن قل، ويحتمل أن يقال: إنه يؤجل إلى أربعة أشهر، لأنه أولى ممن ليس له عهد بالكلية، والله أعلم (البداية والنهاية ٥/ ٣٨).

(٢) سورة التوبة: الآيات ١-٣.

أرسل النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل قبل حجة الوداع، كلاًّ منهما على أحد مخلافيها، وأوصاهما بقوله: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»(١).

وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(٢).

ثم أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن، ثم أرسل علي بن أبي طالب مكانه، فمكث بها ثم رجع فحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وقد نجح عليٌّ في نشر الإسلام في صفوف قبيلة همدان(٣).

*****

(١) صحيح البخاري ٤/ ٧٩.

(٢) رواه البخاري: الصحيح ٤/ ٧٩.

(٣) رواه البخاري (ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١٠٤).

حجة الوداع

يمثل الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد فرض في العام العاشر أو التاسع أو السادس على اختلاف الروايات[١]، وفي العام العاشر أعلن النبي ﷺ عزمه على الحج، وهي المرة الوحيدة التي حج فيها بعد الهجرة إلى المدينة، فتقاطر الناس من أرجاء الجزيرة للحج معه، وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة[٢]. ولما وقف في عرفة نزلت عليه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[٣].

وقد تعلم المسلمون مناسك الحج من النبي ﷺ، حيث قال لهم: (خذوا عني مناسككم)، فجاءت حجته حافلة بالأحكام الشرعية، وخاصة ما يتعلق بالحج وبالوصايا والأحكام العامة، التي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتم العلماء بحجة الوداع اهتمامًا كبيرًا، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث، وخصص بعضهم مؤلفات مستقلة في حجة الوداع[٤].

وقد شهد الموسم معه جمع غفير من المسلمين[٥]. استمعوا إلى خطبة الوداع التي ألقاها في عرفات في وسط أيام التشريق، وجاء فيها: (إن دماءكم

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١٠٩.

(٢) فتح الباري ٨/ ١٠٤ وابن إسحاق بإسناد حسن (سيرة ابن هشام ٤/ ٢٧٢) وابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ١١١ وهي رواية ابن إسحاق نفسها، وقال: إسناده جيد.

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٠٨).

(٤) أفردها ابن حزم في مجلده (البداية والنهاية ٥/ ١٠٩)، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني في مؤلفه حجة النبي، والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في مؤلفه حجة الوداع.

(٥) قدرهم أبو زرعة بأربعين ألفًا، (ابن كثير: اختصار علوم الحديث ١٨٥).

وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال: بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد)(١).

وقد ألقى خطبًا أخرى في منى، وذكر في إحداها: (لا ترجعوا من بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض)(٢). وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول ﷺ الناس في غدير خم قريبًا من الجحفة في اليوم الثامن

---

(١) الرواية في صحيح مسلم ٤/ ٣٨ - ٤٣ من حديث جابر بن عبد الله، وقد أضاف إليها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني زيادات يسيرة من كتب الحديث الأخرى، التي أوردت حديث جابر بزيادة صحيحة (حجة النبي ص ٧١ - ٧٣)، وانظر تخريج حديث جابر في (حجة النبي ٣٨ - ٤١) وانظر بعض الخطبة في صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٠٨)، وقد ساق ابن إسحاق نصًا طويلاً لخطبة الوداع دون إسناد، وساق الإمام أحمد نصًا طويلاً لخطبة حجة الوداع التي ألقيت في أوسط أيام التشريق، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: «ضعيف» قال البنا: «وروى البزار نحوه بمعناه عن ابن عمر من وجه آخر، ورواه أئمة الحديث في كتبهم مقطعا في أبواب متفرقة من طرق صحيحة، والله أعلم» (الفتح الرباني ٢٧٩ - ٢٨١).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٠٧) وصحيح مسلم ١/ ٨٢.

عشر من ذي الحجة، وأمسك بيد علي بن أبي طالب، فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه)، وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع[١]. وقد اشتكى بعض الجند عليًّا وأنه اشتد في معاملتهم، وكان قد استرجع منهم حللًا وزعها عليهم نائبه، فأوضح لهم النبي ﷺ في غدير خم مكانة عليٍّ، ونبَّه على فضله، لينتهوا عن الشكوى[٢].

*****

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٠٩ وقال عن الحديث إسناده جيد قوي، وذكره بأسانيد أخرى صحح الذهبي إحداها. وذكر ٥/ ٢١٢ زيادة له، وهي قوله ﷺ: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) وقال عن سندها: «إسناد جيد، رجاله ثقات على شرط السنن، وقد صحح الترمذي بهذا السند حديثا».

(٢) المصدر السابق ٥/ ١٠٦.

تجهيز جيش
أسامة بن زيد بن حارثة

قفل النبي ﷺ من حجة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش إلى الشام، وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة، وأوصى به خيرًا(١). ولكن هذه الحملة تأخرت بسبب مرض الرسول ﷺ بعد البدء بتجهيزها بيومين فقط. وكان أسامة قد أخذ اللواء الذي عقده الرسول ﷺ بيده وعسكر بالجرف(٢). وقد تفرد الواقدي بذكر عدد جيش أسامة، وأنهم ثلاثة آلاف(٣).

*****

(١) انظر الفتح الرباني ٢١/ ٢٢١ - ٢٢٣.
(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢٨ وفتح الباري ٨/ ١٥٢.
(٣) فتح الباري ٨/ ١٥٢.

وفاة الرسول ﷺ

وقد ألم المرض بالرسول ﷺ فاشتكى بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر[١]، وكان بدء شكواه في بيت ميمونة أم المؤمنين[٢]، واستغرق مرضه عشرة أيام[٣]، ومات في يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول[٤]. وهو ابن ثلاث وستين[٥]، وقد صح أن شكواه ابتدأت منذ العام السابع عقب فتح خيبر، بعد أن تناول قطعة من شاة مسمومة قدمتها له زوجة سلام بن مشكم اليهودية برغم أنه لفظها ولم يبتلعها، لكن السم أثر عليه[٦]. وقد طلب من زوجاته أن يُمَرض في بيت عائشة أم المؤمنين[٧]، فكانت تمسح بيده عليه لبركتها، وتقرأ عليه المعوذتين[٨].

ولما حضرته الوفاة واشتد به المرض، قال للصحابة: «هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده». فاختلفوا، فمنهم من أراد إحضار أدوات الكتابة، ومنهم من خشي أن يشق على الرسول ﷺ ذلك، ويبدو أن ثمة قرائن احتفت بذلك، أفادت أن الأمر بإحضار أدوات الكتاب ليس على الوجود، بل فيه

---

(١) قال ابن كثير: إن وفاته عليه السلام كانت بعد واحد وثمانين يومًا من يوم الحج الأكبر (البداية والنهاية ٥/ ١٠١).

(٢) قال ابن حجر إنه المعتمد، ووردت روايات متعارضة أخرى أنه اشتكى في بيت زينب بنت جحش أو ريحانة (فتح الباري ٨/ ١٢٩).

(٣) جزم به سليمان التيمي، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح. والأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا (فتح الباري ٨/ ١٢٩).

(٤) اعتمد الحافظ ابن حجر قول أبي مخنف أنه مات في ثاني شهر ربيع الأول، وأن الآخرين زادوا «عشر «بعد «ثاني» غلطًا منهم (فتح الباري ٨/ ١٣٠).

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٥٠).

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣١).

(٧) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٤١) ومسند أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٦) بإسناد صحيح.

(٨) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣١).

تخيير، فلما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حسبنا كتاب الله، لم يكرر الرسول ﷺ ذلك، ولو كان ما أراد كتابته لازمًا لأوصاهم به، كما أوصاهم في تلك الحالة مشافهة بإخراج المشركين من جزيرة العرب وبإكرام الوفود[١]. وقد أفادت رواية صحيحة أن طلبه الكتابة كان يوم الخميس قبل وفاته بأربعة أيام، «ولو كان واجبًا لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ[٢] لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر».

وقد دعا إليه فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، وقد أخبرت بعد وفاته أنه أخبرها أنه يموت فبكت، وأخبرها أنها أول أهله لحاقًا به فضحكت[٣]. وقد كان ذلك، فهو من علامات النبوة.

وقد أثقله المرض ومنعه من الخروج للصلاة بالناس، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس، وقد راجعته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لئلا يتشاءم الناس بأبيها فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن[٤]. فأصر على ذلك، فمضى أبو بكر يصلي بهم[٥]. وخرج النبي مرة يتوكأ على العباس وعلي، فصلى بالناس وخطبهم، وقد أثنى في خطابه على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبيَّن فضله، وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة، واختياره الآخرة[٦].

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣٢).

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣٥).

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١/ ٢٠٨)، وانظر معاني أخرى في أعلام الحديث للخطابي.

(٤) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣٠ بإسناد صحيح، وابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٣٣.

(٥) انظر ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٤١)، وانظر مسند أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٢٣١). وابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

وكانت آخر خطبة له قبل موته بخمس ليال، وقال فيها: إن عبدًا عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة، ففطن أبو بكر إلى أنه يقصد نفسه فبكى، وتعجب الناس منه إذ لم يدركوا ما فطن له[١].

وكشف في صلاة الفجر يوم وفاته ستر حجرة عائشة، ونظر إلى المسلمين وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم وضحك وكأنه يودعهم، وهم المسلمون أن يفتتنوا فرحًا بخروجه. وتأخر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث ظن أن الرسول ﷺ يريد الخروج للصلاة فأشار الرسول إليهم بيده: أن أتموا صلاتكم. ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

ودخلت عليه فاطمة فقالت: واكرب أباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم[٢].

ودخل عليه أسامة بن زيد فدعا له بالإشارة، إذ كان صامتًا لا يتكلم، لثقل المرض[٣].

وكان عندما حضره الموت مستندًا إلى صدر عائشة، وقد أخذت سواكًا من أخيها عبدالرحمن فقضمته وأعدته، فاستن به الرسول ﷺ[٤].

وكان يدخل يده في إناء الماء فيمسح وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات[٥]. وأخذته بحة، وهو يقول: (مع الذين أنعم الله عليهم)[٦].

---

(١) مسند أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٢٢٢ والحاشية رقم ٣ منه)، وتركة النبي (ق. أ. ب) بإسناد رجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢) صحيح البخاري (فتح ٨/ ١٤٩).

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢٩ بإسناد صحيح.

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣٨).

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٤٤).

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣٦).

ويقول: اللهم في الرفيق الأعلى، فعرفت عائشة أنه يخير، وأنه يختار الرفيق الأعلى[١].

وقبض ﷺ ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها حين اشتد الضحى، وقيل عند زوال الشمس، ودخل أبو بكر رضي الله عنه وكان غائبًا في السنح، فكشف عن وجه النبي ﷺ ثوبًا كان عليه، ثم أكب عليه وقبله وخرج إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق من هول الأمر، فرأى عمر رضي الله عنه يكلم الناس منكرًا موت الرسول ﷺ، فاجتمع الناس على أبي بكر، فقال: أما بعد. من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبدالله فإن الله حي لا يموت. قال الله ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ فسكن الناس، وجلس عمر رضي الله عنه على الأرض لا تحمله قدماه وكأنهم لم يسمعوا الآية إلا تلك الساعة[٢].

وقالت فاطمة رضي الله عنها:

يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه.

يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه.

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[٣].

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبيه وآله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٣٦) وسيرة ابن هشام ٤/ ٣٢٩ بإسناد صحيح.

(٢)صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٤٥).

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/ ١٤٩).